سجناء وأسرى

- حقـــوق الســـــجناء في المواثيـــق الدوليـــــة .
- زعمـاء وأئمـة ومصلحون.. فـى غياهـب الأسـر والسـجون .
- مفكـــرون وأدبـــاء وشـــعراء .. وراء القضـــبان .
- الأسري الفلسطينيون .. في السجون والمعتقلات الإسـرائيلية
- تعــذيب الســـجناء في أبـــو غريـــــب .
- نـــوادر وعجائـــب .. مـــن عـــالم الســـدود والقيـــود .

دكتور
خالد محمد القاضي

دار الطلائع

القاضى ، خالد محمد
سجناء وأسرى / خالد محمد القاضى - القاهرة: دار الطلائع، ٢٠٠٦
٣٢٠ ص؛ ١٧×٢٤ سم
تدمك ٦ ٤٢١ ٢٧٧ ٩٧٧
١ - السجون - قوانين وتشريعات
٢ - السجون - سجلات ومعاملات
٣- السجون والسياسة
أ- العنوان
ديوى ٣٤٤/٠٣٥٤٨

رقم الإيداع : ٢٠٠٦/٣٣٧٥
الترقيم الدولي : ٦-٤٢١-٢٧٧-٩٧٧



للنشر والتوزيع والتصدير
٥٩ شارع عبد الحكيم الرفاعى - مدينة نصر - القاهرة
تليفون: ٢٧٤٤٦٤٢ - ٦٣٨٩٣٧٢(٢٠٢) فاكس : ٦٣٨٠٤٨٣(٢٠٢)
Web site : www.altalae.com E-mail : info@altalae.com

تصميم الغلاف : إبراهيم محمد إبراهيم
طبع بمطابع ابن سينا بالقاهرة ت : ٣٢٠٩٧٢٨ فاكس : ٦٣٨٠٤٨٣

الإهداء

إليك يا بُنى .. يا محمد ،،،

وقد خطوت مرحلة من مراحل الطفولة وبلغت العاشرة ..

وبدأت تدرك أنه (ياما فى الحبس مظاليم)..

إليك يا بُنى هذه الكلمات .. تقرؤها ببصيرتك قبل بصرك :

- المتهم برىء حتى تثبت إدانته.
- خيرٌ للعدالة أن يُفلِت من العقاب ألف متهم .. من أن يُدان برىء.
- لئن يخطئ الإمام بالعفو .. خير من أن يخطئ بالعقوبة.
- الرجوع إلى الحق .. خير من التمادى فى الباطل.
- دعوة المظلوم ليس بينها .. وبين الله .. حجاب.

ولتعلم يا بُنى أنه : ليس كل سجين .. مُدانا !!

والدك

القاضي : خالد القاضي

مُقدّمة

قديمة هى السجون قدم العقوبة .. ولكن لم يكن يدخلها إلا الآثمون !

وتمر السنون .. فإذ بالسجون تصبح مأوى للخصوم السياسيين ، والمغضوب عليهم من خاصة الحاكم ، وكبار رجال دولته ، و أصحاب الرأى الحر من الشعراء ، و الأدباء ، و المفكرين ، و القادة ، والأمراء، و العلماء !

وليس هناك ممّا يؤلم الإنسان أشد على نفسه من إخراس صوته ، والحيلولة بينه و بين أن يقول كلمة الحق حين يُضطهد ، أو يُنفى من الأرض ، و يذوق ألوان العذاب !

وكثيرا ما يصبح صاحب المبدأ موضع خصومة .. و كثيرا ما تنتقل الخصومة إلى إيذاء ، فيُتهم فى عقله ، و فى أمانته ، وفى شرفه .. و من قبل قال ورقة بن نوفل للنبى محمد - صلى الله عليه و سلم - حين عرض عليه دعوته : (ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا أوذى) !

ولعل هذا الذى دفعنى إلى القراءة ، ثم الكتابة فى هذا الموضوع المهم ، وأعترف أننى ترددت كثيراً فى ظهور هذا الكتاب للنور ، سيما أننى بدأت فى إعداده منذ أكثر من خمس سنين ، فبقدر أهمية الموضوع وحيويته وتجدده كذلك.. بقدر اتساعه وتشعبه إلى الحد الذى شعرت معه خلال تلك السنوات أننى لن أستطيع الفراغ منه — مع اعباء اعمالي الأخرى - ، فكلما أقدمت على تجميع الأفكار وتصنيفها وتبويبها .. زاد نهمى، وقويت إرادتى على المزيد.. سيما أن الأحداث تتوالى وتتصاعد أيضاً على الصعيد الإقليمى : كالأسرى والسجناء الفلسطينيين لدى إسرائيل ، والعالمى . كتلك الانتهاكات الصارخة للمعتقلين فى غياهب السجون فى (أبو غريب) ..

ثم كان القرار بطباعة الكتاب .. ولكن أمامى أكثر من ألفى صفحة كتبتها عن السجناء والأسرى والمعتقلين عبر التاريخ .. فانقلب التردد إلى حيرة فيما أنشره وما أبقيه حبيس الأدراج .. والكاتب - دوماً - حريص على عرض كل أفكاره حول موضوع ما يكتب .. و كان أمامى أحد خيارين: إما أن يصدر كتاب ضخم تزيد صفحاته على مقدرة القارئ — حتى الحريص — على شرائه والانتفاع به ، وإما

احتزاء أهم الأفكار الرئيسة فيما كتبت حتى يصدر الكتاب فى حجم مناسب للناشر والقارئ معا !!

و(بين يدي الكتاب) .. بدأت بمفاهيم السجن و الأسر والتعزير ، وتساءلت عن مشروعية الضرب للمتهم السجين ! وكذلك عن حق المتهم السجين في التعويض عند ظهور براءته ، و ما موقف الإسلام من أسرى الحرب..

ثم قسمت الكتاب إلى أربعة أبواب ..

الباب الأول يعرض لأهم المواثيق الدولية التي تكفل حماية السجناء ، التي تشكل في مجموعها القواعد الحاكمة للجماعة الدولية ..

والثانى : يبرز أهم الزعماء و الأئمة و المصلحين الذين زج بهم في غياهب الأسر والسجون .

و الثالث : يعيش مع المفكرين و الأدباء و الشعراء وراء القضبان .

أما الباب الرابع والأخير : فينتقي ثلة من النوادر و العجائب في عالم السدود والقيود، خلال حقب مختلفة على مر الأيام .. و التي شهدت بدايات الألفية الثالثة فيها مشاهد مفزعة و مروعة.. حين أميط اللثام عن الممارسات الوحشية في سجن أبوغريب ..

وفى عجز الكتاب أوردت ملحقاً عن الأسرى الفلسطينيين فى السجون ، والمعتقلات الإسرائيلية .

أملى كبير أن يحظى هذا الكتاب بعناية القارئ الكريم .. وهذا الأمل مقرون برجاء إرشادى إلى مواطن الخطأ والزلل والقصور فيه .. فالكمال لله وحده .

و الله من وراء القصد وسبحانه و تعالى يهدي إلى سواء السبيل

د. خالد القاضي

Email :elkady67@gmail.com

القاهرة - الدوحة

بين يدي الكتاب :

السجن والحبس والتعزير والأسر..
مفاهيم وتساؤلات

- الحبس في الإسلام .
- السجن فى لسان العرب .
- القرآن والسجن .
- الحبس الشرعى .
- الحبس على الدَّيْن ظلم .
- سؤال مهم جداً :

هل الضرب والحبس للمتهمين من الشرع ؟

- التعزير فى اللغة.
- التعزير والحدود.
- أسرى الحرب ، وموقف الإسلام منهم.
- زعيم العجم وعمر بن الخطاب .
- أسرانا وأسراهم !
- تعويض المتهم السجين عند ظهور براءته .

الحبس فى الإسلام

الحبس فى اللغة : المنع.. ثم أُطلق على الموضع. وهو كل ما يملكه القاضى على الممتنع عن إيفاء الحق تعزيزًا له.

وهو مشروع بالكتاب لقوله تعالى فى قُطّاع الطرق :

﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ [المائدة : ٣٣]

و النفى من بلد إلى بلد أن يُطلَب فلا يقدر عليه كلما سُمع بـــه فى أرض طُلب!

ومعنى النفى: الطرد. وقيل: النفى: السجن فى البلد الذى نفى إليه حـــتى يتوب!

وبالسنة : لأن الرسولﷺ حبس رجلاً للتهمة، **وبالإجماع** : لأن الصحابة - رضى الله عنهم - ومن بعدهم أجمعوا عليه إلا أنه فى زمن النبى ﷺ وزمـــن أبى بكر وعمر وعثمان لم يكن سجن. وكان الحبس فى المســـجد والـــدِّهليز والرُّبط[1] . ولما كان زمن على - رضى الله عنه - بنى السجن .

وهو أول من بناه فى الإسلام ، وسمَّى السجن نافعاً، ولم يكـــن حصـــيناً ، فانفلت الناس منه، وبنى سجناً آخر سماه مَخْبَأً .

وصفة الحبس: أن يكون فى موضع ليس فيه فـــراش ولا وِطـــاءٌ [2]، ولا يُمَكّن أحد أن يدخل عليه، للاستئناس إلا أقـــاربه وجيرانه ، ولا يخرج لجمعة ولا لجماعة ولا لحج ولا لمجىء رمضان والعيدين ، ليضجرَ قلبه حـــتى يـــوفَى المحبوس ما عليه ، وإن مرض فى السجن فإن وجد من يعوله فيه لا يخرج وإلا أُخرج بكفيل.

ولا يهان ، ولا يضرَب ، ولا يُقيّد ما لم يُخَفْ فِرارُه ، ولا يؤَاجَر . وعن أبى يوسف :

(١) الدّهليز : المدخل بين الباب والدار ، و الجمع دهاليز. والرُّبط : جمع رِباط ، والمراد : ملجأ الفقراء وأهل الصُّفّة . (٢) الوِطاء : المِهاد الوطىء .

أن القاضىَ يؤَجره لقضاء دينه ، ولا يمنع من الجماع إن احتاج إليه!، وتعيينُ مكانِ الحبس للقاضى ، إلا إذا طلب المدعَى عليه مكاناً آخر.

ولا يحبس القاضى المدعَى عليه إلا إذا ظهر مَطْلُه[1] ، فمتى ثبت الحق للمدعى ببينة أو إقرار ، أمر القاضى المدعى عليه بالدفع. فإن أبى حبسه جزاءَ ظلمه بمنعه الحق ، وفرق فى الهداية[2] .

ما إذا ثبت الحق بالبينة أو الإقرار فقيل : إذا أُثبت بالبينة عجل حبسه لظهور المطل بإنكاره وإلا لم يعجل ويطالبه بالدفع ، فإن امتنع حبسه وهو المذهب عند أبى حنيفة.

وقال شمس الأئمة السرخسى : لأنه إذا ثبت بالبينة ربما تعلل بأنه لم يعلم به إلا الآن.

ويحبس فى كل عين يقدر على تسليمها ، وفى القليل والكثير من كل دين لزمه بدلا من مال كثمن المبيع ، وبدل القرض ، والمغصوب ، ونحوه أو بالتزامه بعقد كالمهر أو الكفالة ، لأنه إذا حصل المال فى يده ثبت غناه به ، وزواله عن الملك محتمل ، والثابت لايزول بالمحتمل ، وإقدامه على التزامه بالكفالة أو النكاح دليل على يساره إذ هو لا يلتزم إلا بما يقدر عليه.

ولا يحبس المدين فى غير ما ذكر إلا إذا أقام المدعى بينة على يساره. فإن أقامها حبسه القاضى بطلبه ، فإن لم يظهر له مال خَلَّى القاضى سبيلَه لأن عسرته ثبتت عنده ، فاستحق النظر إلى الميسرة للآية[3] فحبسه بعد ذلك يكون ظلماً ، ويطلقه القاضى بلا كفيل إلا فى ثلاثة مواضع.

١- فى مال اليتيم . ٢- إذا كان رب الدين غائباً .

٣- فى مال الوقف .

وإذا أخلى القاضى سبيل المدين لا يمنع غريمه من ملازمته عند أبى حنيفة. وقال أبو يوسف ومحمد بالمنع لكون المدين مُنْظَراً بِإنظار الله تعالى وهو أقوى من إِنظار العبد بالأجل .

---

(١) أجّل موعد الوفاء بالحق مرة بعد أخرى فهو مطّال . (٢) من كتب الفقه عند الأحناف .

(٣) قوله تعالى فى آخر سورة البقرة ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ الآية (٢٨٠) .

ولأبى حنيفة أنه مُنْظَر إلى قدرته على الإبقاء وهو ممكن فى كل وقت فيلازمه كى لا يخفى يساره والدين حال ، بخلاف الإنظار للأجل فلا مطالبة للدائن قبل مضى الأجل ولو كان المدين قادراً فظهر الفرق[1] .

وأحسن الأقاويل فى الملازمة ما روى عن محمد صاحب أبى حنيفة من أنه يلازمه فى قيامه وقعوده ، ولا يمنعه من الدخول على أهله ولا من الغَداء والعَشاء . ولا يمنعه من الصلاة والوضوء ولا الخَلاءِ (قضاء الحاجة) .

وله أن يلازمه بنفسه أو إخوانه وولده ومن أحب .. أ.هـ.

ولا يلازمه الليالى ، لأنها ليست وقتاً للكسب ، إلا أن يكون الرجل يكتسب فى الليالى .

وملازمة المرأة : أن تلازمها امرأة أُخرى .. فإن لم توجد حبسها عند امرأة. وجلس هو على الباب . أو حبس المرأة فى بيتها وجلس هو على بابها . ويحبس الرجل بنفقة زوجته إذا امتنع عن الإنفاق عليها ، ولا يحبس فى دين ولده، لأنه لا يستحق العقوبة بسبب ذلك .

ولذا لا قصاص عليه بقتله . ويحبس إذا امتنع عن الإنفاق عليه ، لأنها لحاجة الوقت وهو بالمنع قصد إهلاكه فيحبس لدفع الهلاك عنه ، والمراد بالولد الصغير الفقير ، أو البالغ الفقير المزمن .

قال فى البحر : والحاصل أنه إذا امتنع عن الإنفاق على أصله وإن علا وفرعه وإن سفل وعلى زوجته يحبس .

وفى الزيلعى : لا يحبس فى الحدود والقصاص حتى يشهد شاهدان مستوران، أو واحد عدل ، لأن الحبس هنا لتهمة الفساد ، الحبس بتهمة الفساد مشروع ، وقال أبو يوسف ومحمد : لا حبس فى الحدود والقصاص . إذا كان هناك كفيل بنفس الجانى لحصول المقصود بغير الحبس.

ولو تعارضت بينة اليسار ، وبينه الإعسار فبينة اليسار أحق بالقبول لأن اليسار عارض والبينة لإثبات العارض .

(١) انظر نظم الحكم فى مصر للدكتور عطية مشرفة ص ٢٨٢ وما بعدها .

قال فى " البزازية " : ولا يشترط بيان ما به اليسار ، لأن المقصود منـــها دوام الحبس عليه ، وإذا كان موسراً ظاهر اليسار أبدا حبسه جـــزاءَ ظلمـــه ومطله حتى يدفع ما عليه .

ومدة الحبس اختلفت الروايات فى تقديرها : فروى محمد عن أبى حنيفـــة أنها مقدرة بشهرين إلى ثلاثة أشهر . وروى الحسن بن زياد عن أبى حنيفة أنها مقدرة من أربعة أشهر إلى ستة أشهر ، وروى عن الطحاوى أنها مقدرة بشهر واحد . واتفق أغلب الفقهاء على أن الصحيح من ذلك أنه مفـــوض إلى رأى القاضى . ومعنى هذا أنه إذا تبين للقاضى أنه معسر غير متمرد يفرج عنـــه ، وإن كانت مدة الحبس دون الشهر ، وإن وقع عند القاضى من العلـــم أنـــه متمرد ، وقد مضى عليه فى الحبس ستة أشهر لا يفرج عنه ، وطريقة معرفـــة القاضى الحال فيه أن يسأل جيرانه وأصدقاءه عن حاله وماليته فـــإن أخـــبره واحد منهم غير فاسق أنه معسر و لم يعارض هذا الإخبار غيره خلى سبيله .

السجن فى لسان العرب

السِّجن : بكسر السين – الحبس . والسَّجن : بالفتح – المصدر . ســـجنه يسجُنُه سجناً : أى حبسه ، وفى بعض القراءة : ﴿ **قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَـــبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ** ﴾ [يوسف : ٣٣]

فمن كسر السين فهو المَحْبِس ، وهو اسم. ومن فتح السين فهو مصـــدر سجنَه سَجناً. وفى الحديث : (**ما شيءٌ أحقَّ بطولِ سَجْن مـــن لســـان**)

والسّجّان : صاحب السجن.

ورجل سجين : أى مسجون ، وكذلك الأنثى بغيرها.

وقال اللّحيانى : امرأة سجين وسجينة : أى مسجونة من نسوة سَجْنَى ، وسجائن.

ورجل سجين فى قوم سَجْنى ، كل ذلك عنه.

والسِّجّين : السجن. وسِجّين : وَاد فى جهنم ، نعوذ بالله منها.

القرآن والسجن

هدد فرعونُ موسى إن اتخذ إلها غيره ليجعلنه من المسجونين فليس السجن عليه ببعيد ، وما هو بالإجراء الجديد.

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾

[الشعراء : ٢٩]

غير أن هذا التهديد لم يُفقد موسى –عليه السلام– رباطة جأشه. كيف وهو رسول الله ، والله معه ومع أخيه هارون؟

وتوعدت امرأة العزيز " **يوسف عليه السلام** " بالسجن فقال :

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : ٣٣]

وفى السجن يظهر صلاحه وإحسانه فيوجه الأنظار إليه ، ويصبح موضع ثقة المساجين ، وفيهم الكثيرون ممن كانوا يعملون فى قصر العزيز أو الحاشية.

ويلجأإليه فتيَان أنسا إليه ، وراحا يقصان عليه رؤيا رأياها ، ويطلبان إليه تعبيرها لما يتوسمان فيه من الطيبة والصلاح وإحسان العبادة والذكر والسلوك.

وينتهز "يوسف" الفرصة ليبث بين السجناء عقيدته الصحيحة وأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ، واتبع ملة آبائه " إبراهيم وإسحاق ويعقوب "

﴿ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾

[يوسف : ٣٨]

ويخرج يوسف من السجن ليكون على خزائن الأرض بعد أن استخلصه الملك لنفسه وليكون لديه مكينا أمينا .. ليكون المستشار والنجيّ والصديق.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف:٥٤]

ويظل يوسف يذكر نعمة الله حيث أخرجه من السجن ، وأتاح له لقاء مع إخوته وأبيه!

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ١٠٠]

أما وقد تناولنا السجن والسجناء ، والحبس والمحبوسين .. لم يبق إلا التعزير والمعَزَّرون ، وفيم يكون؟

فتعال إلى فقه الفقهاء .. لنقف على لون من ألوان العقوبات التأديبية فى الإسلام.

الحبس الشرعى

يقول ابن قيم الجوزية : إن الحبس الشرعى ليس هو الحبس فى مكان ضيق.

وإنما هو تعويق شخص ، ومنعه من التصرف بنفسه. سواء كان فى بيت أو مسجد ، أو كان بتوكيل الخصم أو وكيله عليه ، وملازمته له.

ولهذا سماه النبى ﷺ " أسيرا " كما روى أبو داود ، وابن ماجه عن الهرماس ابن حبيب عن أبيه قال : " أتيت النبى ﷺ بغريم لى ، فقال : " الزمه"

ثم قال : **" يا أخا بنى تميم ، ما تريد أن تفعل بأسيرك ؟"**

وفى رواية ابن ماجه " ثم مر بى آخر النهار ، فقال : **ما فعل أسيرُك يا أخا بنى تميم ؟ "**

وكان هذا هو الحبس على عهد النبى ﷺ وأبى بكر الصديق رضى الله عنه.

ولم يكن له محبس مُعَدّ لحبس الخصوم.

ولكن لما انتشرت الرعية فى زمن عمر بن الخطاب ابتاع بمكة دارا وجعلها سجنا يحبس فيها ، ولهذا تنازع العلماء من أصحاب أحمد وغيرهم :

هل يتخذ الإمام حبسا ؟ على قولين :

١- فمن قال لا يتخذ حبسا قال : لم يكن لرسول الله ﷺ ولا لخليفته بعده حبس ، ولكن يعوقه بمكان من الأمكنة ، أو يقام عليه حافظ - وهو الذى

يسمى الترسيم – أو يأمر غريمه بملازمته كما فعل النبى ﷺ .

٢– ومن قال له أن يتخذ حبسا. قال : اشترى عمر بن الخطاب من صفوان ابن أمية دارا بأربعة آلاف ، وجعلها حبسا.

الحبس على الدَّيْن ظلم

يقول ابن قيم الجوزية فى كتابه " الطرق الحكمية " تحت العنوان أعلاه :

وكان على – رضى الله عنه وأرضاه – لا يحبس فى الدَّين ، ويقول : " إنه ظلم ".

قال أبو داود فى غير كتاب السنن – حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثنا مروان – يعنى : ابن معاوية – عن محمد بن على :

قال على : "حبس الرجل فى السجن بعد معرفة ما عليه من الحق ظلم"

وقال أبو حاتم الرازى : حدثنا يزيد ، حدثنا محمد بن إسحاق عن أبى جعفر أن عليا كان يقول : "حبس الرجل فى السجن بعد أن يعلم ما عليه من الحق ظلم".

وقال أبو نعيم : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم قال : سمعت عبد الملك بن عمير يقول : " إن عليا كان إذا جاء الرجل بغريمه قال : لى عليه كذا . يقول: اقضه . فيقول : ما عندى ما أقضيه ".

فيقول غريمه : إنه كاذب ، وإنه غَيَّبَ ماله .

فيقول : هلمَّ بينةً على ماله يُقضَى لك عليه.

فيقول : إنه غيبه.

فيقول : استحلفه بالله ما غيب منه شيئا.

قال : لا أرضى بيمينه.

فيقول : فما تريد ؟

قال : أريد أن تحبسه لى.

فيقول : لا أعينك على ظلمه ، ولا أحبسه !

قال : إذن ألزمه.

فيقول : إن لزمته كنتَ ظالما له ، وأنا حائل بينك وبينه.

ويقول ابن قيم الجوزية : هذا الحكم عليه جمهور الأمة فيما إذا كان عليه دين من غير عوض مالى ، كالإتلاف ، والضمان ، والمهر ، ونحوها ، فإن القول قوله مع يمينه ، ولا يحل حبسه بمجرد قول الغريم : إنه ملىء[1] ، وإنه غيّب ماله.

سؤال مهم جداً :

هل الضرب والحبس للمتهمين من الشرع ؟!

يقول ابن قيم الجوزية : رأيت لشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله ورضى عنه – جواب سؤال : هل السياسة بالضرب والحبس للمتهمين فى الدعاوى وغيرها من الشرع أم لا ؟!

وإذا كانت من الشرع فمن يستحق ذلك ؟ ومن لا يستحقه ؟ وما قدر الضرب ومدة الحبس ؟

فأجاب : الدعاوى التى يحكم فيها ولاة الأمور سواء سموا قُضاةً أو ولاة – فإن حكم الله تبارك وتعالى – شامل لجميع الخلائق ، وعلى كل من ولى أمرا من أمور الناس أو حكم بين اثنين : أن يحكم بالعدل ، فيحكم بكتاب الله ، وسنة رسوله ، وهذا هو الشرع المنزل من عند الله ، قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ [الحديد : ٢٥]

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾ [النساء : ٥٨]

---

(١) ملىء : غنى.

وقال تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائـــدة : ٤٨]

التعـزيـر فـى اللـغـة

جاء فى **لسان العرب** : **العَزْر** : اللوم .

وعزَرَه يَعْزِرُه عَزْرًا ، وعَزَّره : ردّه .

والعَزْر والتعزير : ضرب دون الحد ، لمنعه الجانىَ من المعاودة ، وردعه عن المعصية .

وأصل **التعزير** : التأديب ، ولهذا يسمى الضرب دون الحد تعزيرا إنما هـــو أدب .

وعزّره فخّمه وعظّمه ، فهو من الأضداد

والآن تعال بين يدى الفقه والفقهاء لتحيط علما بالتعزير ..

متى يجب ؟ وبم يكون ؟ وما صفته ؟ إلى غير ذلك من البحوث التى لا غنى لمسلم عنها حتى نكون على بينة من أمر ديننا ..

التعـزيـر والحـدود

لقد تناولنا الحبس فى الدَّين والنفقة ، وهنا نتناول التعزير .. ومتى يجب ؟ لقد جاء فى " تحفة الفقهاء " **لعلاء الدين السمرقندى**" (٥٣٩) : وأمـــا التعزيـــر فيجب فى جنايَة ليست بموجبة للحدّ ، بأن قال : يا "كافر" يا " فاسق " أو يا " فاجر" ونحو ذلك .

بم يكون التعزير ؟

ويكون التعزير على قدر الجناية ، وعلى قدر مراتب الجانى :

- قد يكون بالتغليظ فى القول .

- وقد يكون بالحبس .
- وقد يكون بالضرب .

وقد قال المجربون : **العبد يقرع بالعصا ... والحر تكفيه المقالة .**

وأقل التعزير : ثلاثة أسواط فصاعدا ، ولا يبلغ أربعين ، بل يُنقص منه سوط.

وهذا عند أبي حنيفة ومحمد . وقال أبو يوسف : فى الحد لا يبلغ ثمانين ، وينقص منه خمسة أسواط .

وأصله قوله ﷺ : (**من بلغ حدًّا ، فى غير حدٍّ - فهو من المعتدين**)[1] .

ولا يؤخذ فيه الكفالة. ولا يثبت بشهادة النساء مع الرجال ، ولا بالشهادة مع الشهادة .

وعند محمد يؤخذ فيه الكفيل ، وتقبل فيه الشهادة على الشهادة .. وشهادة النساء مع الرجال .

وروى عنه أنها تقبل فى حق الحبس أياما ، ثم يخرج .

ولا تقبل فى حق الضرب .

أشد الضرب

وأشد الضرب هو التعزير .

ثم **الجلد** فى الزنا ، ثم فى الشرب ، ثم فى القذف .

ويضرب الحد فى الأعضاء كلها متفرقا ، إلا فى العضو الذى هو مقتل ، وهو : الرأس ، والوجه ، والصدر ، والبطن ، والمذاكير ، **وهذا فى حق الصحيح.**

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان عن النعمان بن بشير .

فأما المريض فلا يجلد حتى يبرأ ، **وكذا الحامل** حتى تضع حملها ، وتخرج عن النفاس ، لأن النفاس مرض بخلاف الحيض .

فأما الرجم فيقام فى الأحوال كلها إلا فى الحامل ، لأنه لا جناية من الحمل

ويقول فضيلة الشيخ سيد سابق – رحمة الله عليه – فى " فقه السنة " : يأتى التعزير بمعنى " التعظيم والنصرة " ومن ذلك قول الله سبحانه وتعالى : ﴿**لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ**﴾ [الفتح: ٩]

أى : تعظموه وتنصروه .

ويأتى بمعنى الإهانة . يقال : عزّر فلانا ، إذا أهانه زجرا وتأديبا له على ذنب وقع منه والمقصود به فى الشرع : التأديب على ذنب لا حد فيه ولا كفارة .

أى : أنه عقوبة تأديبية يفرضها الحاكم على جناية ، أو معصية لم يعين الشرع لها عقوبة .

أو حدود لها عقوبة ولكن لم تتوفر فيها شروط التنفيذ مثل المباشرة فى غير الفرج ، وسرقة ما لا قطع فيه ، وجناية لا قصاص فيها ، وإتيان المرأة المرأة ، والقذف بغير الزنى .

ذلك أن المعاصى ثلاثة أقسام :

١- **نوع فيه حد** ، **ولا كفارة فيه** ، **وهى الحدود** . (الزنا ، والقذف ، والسرقة ، والسُّكر ، والمحاربة ، والرِّدة ، والبَغْى) .

✯ **فعقوبة الزنا** : الجلد للبكر ، والرجم للثيب (جلد مائة وتغريب عام).

✯ **وعقوبة جريمة القذف** : ثمانون جلدة .

✯ **وعقوبة جريمة السرقة** : قطع اليد .

✯ **وعقوبة جريمة السكر** : ثمانون جلدة أو أربعون .

✯ **وعقوبة جريمة الفساد فى الأرض** (القتل أو الصلب ، أو النفى ، أو تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف) .

☆ **وعقوبة الرِّدة** : القتل .

☆ **وعقوبة جريمة البغى** : القتل .

٢- ونوع فيه كفارة ، ولا حد فيه مثل :

الجماع فى نهار رمضان ، والجماع فى الإحرام .

٣- **ونوع لا كفارة فيه ولا حد كالمعاصى مثل** : المباشرة فى غير الفـــرج ، وسرقة ما لا قطع فيه ، وجناية لا قصاص فيها ، وإتيان المرأة المـــرأة ، والقذف بغير الزنى .

والأصل فى مشروعيته : ما رواه أبو داود ، والترمـــذى ، والنســـائى ، والبيهقى عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده : " **أن النبى ﷺ حبس فى التهمة** " صححه الحاكم .

وإنما كان هذا الحبس حبسا احتياطيا حتى تظهر الحقيقة .

وأخرج البخارى ومسلم وأبو داود عن هانى بن نيار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : " **لا تجلدوا فوق عشرة أسواط إلا فى حد من حدود الله** " .

وقد ثبت أن عمر – رضى الله عنه – **كان يعزر ويؤدب بحلق الـــرأس ، والنفى ، والضرب** .

وقد اتخذ دِرّة [١] يضرب بها من يستحق الضرب .

واتخذ دارا للسجن ..

وضرب النائحة حتى بدا شعرُها ..

وقال الأئمة الثلاثة : إنه واجب .

وقال الشافعى : ليس بواجب .

حكمه ومشروعيته و الفرق بينه وبين الحدود :

وقد شرعه الإسلام لتأديب العصاة ، والخارجين على النظام ، فالحكمة فيه هى الحكمة من شرعية الحدود إلا أنه يختلفُ عن الحدود من ثلاثة أوجه :

---

(١) الدِّرَّة : السوط يضرب به ومنه درة عمر وجمعها درر ، [الوسيط].

١. أن الحدود يتساوى فيها الناس جميعا ، بينما التعزير يختلف باختلافهم .
فإذا زَلّ رجل كريم ، فإنه يجوز العفو عن زلته. وإذا عوقب عليها ، فإنه ينبغى أن تكون عقوبتُه أخفَّ من عقوبة من ارتكب مثل زلته ممن هو دونه فى الشرف والمنزلة .
روى أحمد وأبو داود والنسائى والبيهقى أن رسول الله ﷺ قال : "أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم إلا الحدود " أى : إذا زَلّ رجل ممن لا يُعْرَفُ بالشر زلةً أو ارتكب صغيرة من الصغائر ، أو كان طائعا ، وكانت هذه أُولى خطاياه ، فلا تؤاخذوه . وإذا كان ولابد من المؤاخذة ، فلتكن مؤاخذة خفيفة .
٢. أن الحدود لا تجوز فيها الشفاعة بعد أن ترفع إلى الحاكم ، بينما التعازير يجوز فيها الشفاعة.
٣. أن من مات بالتعزير ، فإن فيه الضمان ، فقد أرهب عمر بن الخطاب – رضى الله عنه امرأة ، فأُخمِصت[1] بطنُها ، فألقت جنينا ميتا ، فحمل دية جنينها.
٤. وقال أبو حنيفة ومالك : لا ضمان ولا شىء ، لأن التعزير والحد فى ذلك سواء.

صفة التعزير : (ما يجوز منه وما لا يجوز) .

والتعزير يكون بالقول : مثل التوبيخ ، والزجر ، والوعظ ، ويكون بالفعل حسب ما يقتضيه الحال.

كما يكون بالضرب والحبس ، والقيد ، والنفى ، والعزل ، والرفَث[2].

روى أبو داود أنه أتى النبى ﷺ بمخنث قد خضب يديه ورجليه بالحناء ، فقال النبى ﷺ : ما بالُ هذا ؟

فقالوا : يتشبه بالنساء .

(١) خلت وضمرت .
(٢) الرفث : التصريح بكلام قبيح .

فأمر به فنفى إلى البقيع.

فقالوا : يا رسول الله نقتله ؟

فقال ﷺ : ((إني نُهيتُ عن قتلِ المُصَلِّين))

ولا يجوز التعزير بحلق اللحية .. ولا بتخريب الدُّورِ ، وقلع البساتين والزروع والثمار والشجر.

كما أنه لا يجوز بجَدْع[1] الأنف.

ولا بقطع الأذن أو الشَّفَة أو الأنامل ...

لأن ذلك لم يعهد عن أحد من الصحابة.

وبعد : فقد تناولنا الحبس فى الدَّين وغيره .. وتناولنا التعزير تلك العقوبة التأديبية التى شرعها الإسلام لتأديب العصاة والخارجين .. وبقى أن نتحدث عن الأسرى .. وموقف الإسلام منهم .. وكيف تكون معاملتهم ؟!

أسرى الحرب وموقف الإسلام منهم

أسرى الحرب من جملة الغنائم وهم : إما من النساء والصِّبيان ، وإما من الرجال البالغين المقاتلين من الكفار إذا ظفر المسلمون بهم أحياء ووقعوا أسرى..

وللمسئول اتخاذ ما ينفع وما هو أصلح من المَنّ[2] ، أو الفداء ، أو القتل.

والمن : هو إطلاق سراحهم مجانا.

والفداء : قد يكون بالمال ، وقد يكون بما يقابلهم من أسرى المسلمين أو بأداء خدمة كتعليم المسلمين ما يجهلونه. ففى غزوة بدر كان الفداء بالمال.

وصح عنه ﷺ : **" أنه فدى رجلين من أصحابه برجل من المشركين من بنى عقيل "**. [رواه أحمد والترمذى وصححه].

---

(١) الجدع : قطع الأطراف. وفى المثل : أنفك منك وإن كان أجدع. يضرب فى غير المَرضِيِّ يستبقيه المرء ، ولا يجفوه لقرابته منه ، أو صلته به.   (٢) المن عليهم بإطلاق سراحهم دون فداء .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد : الآية ٤]

والإثخان : المبالغة فى القتل.

وروى مسلم من حديث أنس- رضى الله عنه- أن النبى ﷺ أطلق سراح الذين أخذهم أسرى ، وكان عددهم ثمانين ، وكانوا هبطوا عليه وعلى أصحابه من جبال التنعيم عند صلاة الفجر ليقتلوهم.

وفى هذا نزل قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح : ٢٤]

و قال ﷺ لأهل مكة يوم الفتح : " **اذهبوا فأنتم الطلقاء** " على أنه يجوز للإمام مع ذلك ، أن يقتل الأسير إذا كانت المصلحة تقتضى قتله كما ثبت ذلك عن الرسول ﷺ فقد قتل النضر بن الحارث ، وعقبة بن معيط يوم بدر ، وقتل أبا عزة الجمحى يوم أحد.

وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ ﴾ [الأنفال : ٦٧]

وممن ذهب إلى هذا جمهور العلماء فقالوا للإمام الحق فى أحد الأمور المتقدمة.

معاملة الأسرى :

عامل الإسلام الأسرى معاملة إنسانية رحيمة ، فهو يدعو إلى إكرامهم ، والإحسان إليهم ، ويمدح الذين يَبَرُّونهم ، ويثنى عليهم الثناء الجميل ، يقول الله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا ﴾ [الإنسان : ٨ ، ٩]

ويروى عن رسول الله ﷺ : " **فكوا العانى ، وأجيبوا الداعى ، وأطعموا الجائع ، وعودوا المريض** " وعندما وقع ثمامة بن أثال أسيرًا فى أيدى المسلمين

وجاءوا به إلى النبى ﷺ فقال : " **أحسنوا إساره وقـــال : اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه** "

فكانوا يقدمون إليه لبن لَقْحَة (ناقة حلوب) الرسول ﷺ غدوا ورواحا.

ودعاه النبى ﷺ إلى الإسلام فأبى ، وقال له : إن أردت الفداء ، فاسأل ما شئت من المال ، فمَنّ عليه الرسول ﷺ وأطلق سراحه بدون فداء فكان ذلك من أسباب دخوله فى الإسلام.

وقد جاء فى الصحاح فى شأن أسرى "غزوة بنى المصطلق" — وكان مـــن بينهم جويرية بنت الحارث — أن أباها الحارث بن ضرار حضر إلى المدينـــة ، ومعه كثير من الإبل ليفتدى بها ابنته ، وفى وادى العقيق ، قبل المدينة بأميال ، أخفى اثنين من الجمال أعجباه فى شِعب بالجبل.

فلما دخل على النبى ﷺ قال له :

يا محمد ، أصبتُم ابنتى ، وهذا فداؤها ، فقال له — عليه الصلاة والسلام : " فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق فى شِعب[1] كذا " ؟!

فقال الحارث : أشهد أن لاإله إلا الله ، وأنك رسول الله ، والله ما أطلعك على ذلك إلا الله .

وأسلم الحارث ، وابنان له ، وأسلمت ابنته أيضا ، فخطبها رسول الله ﷺ إلى أبيها وتزوجها، فقال الناس : لقد أصبح هؤلاء الأسرى الـــذين بأيـــدينا أصهار رسول الله ﷺ ، فَمَنُّوا عليهم دون فداء .

وتقول عائشة — رضى الله عنها — " فما أعلم أن امرأة كانت أعظمَ بركةً على قومها من "جُوَيرية " إذ بتزوج الرسول ﷺ إياها أعتق مائة من أهل بيت بنى المصطلق ".

وَيقول الشيخ سيد سابق — عليه رحمة الله — فى فقه السنة : ولمثـــل هـــذا تزوج النبى ﷺ من جويرية ، لا لشهوة يقضيها ، بل لمصلحة شرعية يبتغيها .

---

(١) الشِّعب : بكسر الشين — الطريق ، والفراج بين جبلين.

ولو كان يبغى الشهوة لأخذها أسيرة حرب بملك اليمين . وهكذا كانت معاملة الأسرى فى الإسلام ، فكيف عامل الغرب – الذى يتحدث عن حقوق الإنسان – أسرانا ؟!

اللهم فاشهد !!

زعيم العجم .. وعمر بن الخطاب

كان الهرمزان زعيم العجم فى فارس ، وكان رستم أعظم رجال فارس وقائد جيوش واقعة القادسية التى انتصر فيها المسلمون ، وقتل رستم فى هذه الموقعة وجيء بالهرمزان أسيرا إلى عمر بن الخطاب – رضى الله عنه ، فقيل له: يا أمير المؤمنين ، هذا زعيم العجم ، وصاحب رستم ، فقال له عمر – رضى الله عنه :

أعرض عليك الإسلام نصحا لك فى عاجلك وآجلك ، فقال : إنما أعتقد ما أنا عليه ، ولا أرغب فى الإسلام رهبة ، فدعا عمر بالسيف ، فلما هم بقتله قال : يا أميرَ المؤمنين ، شربة من ماء هى أفضل من قتلى على الظمأ !

فأمر له بشربة من ماء .

فلما أخذها الهرمزان **قال** : يا أمير المؤمنين ، إنى آمن حتى أشربها ؟

قال : نعم ، فرمى بها ، وقال : الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج[1]!

قال : صدقت .

لك التوقف عنك ، والنظر فيك ، ارفعوا عنه السيف.

فقال : يا أمير المؤمنين ، الآن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وما جاء به حق من عنده.

فقال عمر : أسلمت خير إسلام ، فما أخّرك ؟

(١) أبلج : شديد الوضوح.

قال : كرهت أن يُظَنَّ بى أنى أسلمت خوفا من السيف !

فقال عمر : ألا إن لأهل فارس عقولا استحقوا بها ما كانوا عليه من الملك ، ثم أمر ببره وإكرامه !

أسرانا وأسراهم !

من رسالة ابن تيمية إلى ملك قبرص ...

كان **ابن تيمية** يعيش فى دمشق .. ومع هذا كان يؤرقه ويُقْلقه أنين أسارى المسلمين الذى يتصاعد فوق أمواج البحر الأبيض فى " **قبرص**" فكتب له رسالة طويلة جاء فيها تحت عنوان : " **أسرى .. وأسرى** " ثم أما يعلم الملك: أن بديارنا من النصارى أهل الذمة والأمان ما يحصى عددهم إلا الله ، ومعاملتنا فيهم معروفة ؛ فكيف أسرى المسلمين بهذه المعاملات التى لا يرى بها ذو مروءة ولا ذو دين !

لست أقول على الملك ، وأهل بيته ، ولا إخوته ، فإن أبا العباس : شاكر للملك ، ولأهل بيته كثيرا ، معترف بما فعلوه معه من الخير ، وإنما أقول عن عموم الرعية.

أليس الأسرى فى رعية الملك!

أليست عهود المسيح — عليه السلام — وسائر الأنبياء توصى بالبر والإحسان ! فأين ذلك ؟!

ثم إن كثيرا منهم أخذوا غدرا ، والغدر حرام فى جميع المِلَلِ والشرائع والسياسات !

فكيف تستحلون أن تستولوا على من أخذ غدرا ؟!

أفتأمنون مع هذا أن يقابلكم المسلمون ببعض هذا ، وتكونون مغرورين ؟!

والله ناصرهم ومعينهم ، لا سيما فى هذه الأوقات ، والأمة قد تهيأت للجهاد ، واستعدت للجِلاد، ورغب الصالحون وأولياء الرحمن فى طاعته.

وقد تولى الثغور الساحلية أمراء ذوو بأس شديد ، وقد ظهر بعض أثرهم ، وهم فى ازدياد .

تعويض المتهم السجين عند ظهور براءته

الحبس بتهمة ...أمر مقرر في الشرائع والأنظمة القديمة والحديثة ، وهو ما تدعو إليه الحاجة للكشف عن الحقيقة موضوع الدعوى وإيصالها لأصحابها، ولمنع المتهم من الاستحواذ على حقوق غيره والفرار بها بعيداً عن هيمنة العدالة.

أجاز الإسلام حبس المتهم، واعتبره من السياسة العادلة ، والتصرف الحكيم، وذلك إذا تأيدت التهمة بقرينة قوية ، أو ظهرت علامات الشك والريبة على المتهم ، أو كانت له سوابق في الانحراف والجريمة ..

روى أبو داود والترمذي والنسائي بإسناد حسن: (أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حبس رجلاً في تهمة بدم (دعوى قتل) يوماً وليلة. وروى الشيخان أن النبي — صلى الله عليه وسلم — حبس يهوديًا اُتُّهِم في قتلِ فتاة ، فلم يزل به حتى أقر أنه قتلها، فقتله) .

وقد أجازت القوانينُ المعاصرُة عامةً حبسَ المتهَم، على خلاف بينها في تحديد طبيعة الأفعال المبررة لهذا الحبس: هل هي جنائية، أم جنحية، أم متلبس بها، أم مهيئاً لها.

مدة الحبس بتهمة

يرى بعض الفقهاء: أن مدة حبس المتهم لا ينبغي أن تزيد على ثلاثة أيام، وأجازت جماعة أخرى أن تبلغ شهراً، وقال آخرون: ليس لها حد أعلى، بل هي حسب اجتهاد القاضي وتقديره لظروف التهمة، والمدة التي يمكن أن ينكشف فيها حال المتهم، واتفقوا جميعاً على أنه لا يجوز تأخير حبس المتهم عن الحد اللازم، بل يجب التعجيل قدر الإمكان في التحقيق معه والكشف عن الحقيقة، وإظهارها دون تأخير ولا مماطلة.

وقد أشار بعضهم إلى أن المدة التي تكفي في التحقيق في تهمة قتل، ربما لا تكفي في التحقيق في تهمة تزييف أو سرقة أو غير ذلك، والعكس صحيح أيضاً. هذا، وقد ذهبت بعض القوانين إلى أنه لا يُزاد على ثلاثة أيام في استنطاق المشتبه فيه، ولا يُزاد على عشرين يوماً في توقيف ومساءلة المظنون به، وأجازت قوانين أخرى حبس المتهم مدة خمسة عشر يوماً، يمكن تمديدها - حسب الحاجة - على فترتين إلى خمسة وأربعين يوماً... مع ملاحظة عدم جواز التباطؤ في التحقيق حتى لا يترتب على ذلك بقاء المتهم في الحبس ظلماً دون حاجة إلى ذلك .

كتابات فقهية سابقة تصلح في موضوع التعويض عن الضرر :

إن المتأمل في كتابات الفقهاء السابقين تتحصل لديه مسائل عدة يمكن اعتمادها مقدمة تأسيسية لما نحن بصدده، ومن هذه المسائل ما يلي:

١ - إذا نُفِّذ حدّ أو قصاص في شخص ثم رجع الشهود عن شهادتهم لظهور خطأ، فعليهم الدية، وتروى في ذلك قصة عن عليّ - رضي الله عنه.

٢ - إن بدا للشهود خطأ فرجعوا عن شهادة بمال بعد الحكم به واستيفائه، غَرِمُوه في قول كثير من الفقهاء، وفي معاقبتهم تعزيراً قولان.

٣ - إن أخطأ القاضي وبنى حكماً على شهادة فاسقين أو كافرين (ونحوهم ممن لا تصح شهادتهم) ضمن آثار ذلك الخطأ، وللفقهاء قولان في الجهة التي تلزم بالتعويض (عن خطأ القاضي) هل هي بيت المال (الخزانة العامة) أم العاقلة (قرابة القاضي أو النقابات المهنية التي ينتمي إليها) ؟.

٤ - يرى فقهاء الشافعية : أن ما يحدث في التعزير من تلف وضرر فيجب ضمانُه على القاضي لأن علياً أشار على عمر بأنه يضمن جنين التي أُجهضت خوفاً منه "عمر" حين بعث إليها يطلبها للحضور إليه. إن هذه المسائل وأمثالها تدل بوضوح على أن تضمين المخطئ أو المقصِّر التعويض عن الأضرار الناشئة من تصرفاته المشروعة ابتداء، هو أمر مقرر في الإسلام، سواء في العقوبات أو في الأضرار المالية.

تعويض المتهم المحبوس حال ظهور براءته

إن المبدأ السابق المستخلص من المسائل الآنفة يدعو إلى القول: إن على الدولة معاقبة أو تضمين من يتسبب في حبس المتهم، أو يتأخر في الإفراج عنه بغير قرينة مقبولة أو موجب شرعي، وكذا تعويض المتهم عن الأضرار الواقعة عليه في مدة حبسه، وخصوصاً إذا تجاوزت الحد اللازم المشروع عرفاً للكشف عنه واستبراء حاله بحسب ما سبق بيانه. هذا، ومما يمكن اعتماده دليلاً مؤنساً لما نحن بصدده ما رواه عبدالرزاق في (المصنف) وأبوعبيد في (الأموال) ، وابن حزم في (المحلى) وغيرهم: أن رجلين من قبيلة غفار نزلا بمياه حول المدينة، وعليها ناس من قبيلة غطفان معهم ظهر (إبل) لهم، فأصبح الغطفانيون قد أضلوا بعيرين من إبلهم، فاتهموا الغفاريين بهما، فأقبلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكروا أمرهم فحبس أحد الغفاريين، وقال للآخر: اذهب فالتمس (البعيرين) فذهب وعاد بهما، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للمحبوس: استغفر لي، فقال: غفر الله لك يا رسول الله، فقال النبي : ولك، وقتلك في سبيله، قال الراوي: فقتل يوم اليمامة. ووجه الدلالة: أن الرجل حبس بتهمة ثم ظهرت براءته، فأطلقه النبي صلى الله عليه وسلم وعوّضه بدعائه له بالشهادة في سبيل الله، وأعظم بهذا الدعاء النبوي وبهذه الشهادة ذات المكانة العظيمة عند الله تعالى .

قال تعالى: ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٦٩]

وقائع أخرى تؤكد مبدأ التعويض عن الضرر : مما يمكن اعتباره منسجماً مع هذا المبدأ: ما رواه النسائي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسم شيئاً بين أصحابه، فأقبل رجل وأكبَّ عليه، فطعنه النبي بعرجون "عود" كان معه فجرحه ، فقال : تعال فاستقد " اقتص " ، قال : بل عفوت يا رسول الله.

ومن هذا القبيل أن عمر – رضي الله عنه – نهى عن طواف الرجال مع النساء ثم رأى رجلاً يفعله فضربه بالدرة، ولما علم أن نهيه لم يبلغه عزم عليه أن يقتصّ منه أو يعفو عنه، ومن المنقول عنه قوله: (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقصّ من نفسه) رواه النسائي.

التعويض يشمل الأضرار المادية والمعنوية : قد يتبادر إلى الذهن أن التعويض عن الأضرار المادية يسلّم به في ضوء النصوص السابقة، بخلاف التعويض عمّا يعرف بالأضرار المعنوية أو الأدبية ؟.

والجواب على هذا : أن استسماح النبي صلى الله عليه وسلم المحبوس من الغفاريين ـــ في القصة الآنفة ـــ يصلح في التعويض عن الأضرار المعنوية، ويضاف إليه ما يلي:

١- ما رواه أحمد والحاكم وابن ماجه وغيرهم من حديث النبي صلى الله عليه وسلم:

(**لا ضررَ ولا ضرارَ**) ، ومن المعلوم أن الضرر يكون مادياً ومعنوياً، وقد يكون المعنوي أفظع وأشد من المادي، قال الشاعر:

جراحات السنان لها التئام ...... ولا يَلْتَامُ ما جرح اللسان

٢ – من المقرر عند علماء المسلمين: وجوب إزالة الضرر شرعاً، وذلك اعتماداً على القاعدة الفقهية المتفق عليها: (الضرر يزال) وإزالة الضرر تكون بإزالة آثاره وتداعياته.

٣ – ذكر المالكية : أن من سجن غيره بقصد تفويت منفعة عليه يضمن ذلك، ويعلم قصده بقوله أو بالقرينة.

٤ – نص الحنابلة على أن من غصب حراً وحبسه فعليه أجرته.

إن إنزال العقاب بالجهة المقصرة في هذا الصدد لا يغني المحبوس المتضرر شيئاً، وإنما يغنيه رد الاعتبار الأدبي إليه، وتعويضه عن الأضرار المادية والنفسية والاجتماعية التي لحقت به ونزلت بأسرته. إن قواعد العدالة تقتضي إسناد جميع المسئوليات إلى أصحابها ومحاسبة المتهاونين والمتسببين بالأضرار، كما

تقتضي التعويض عن الأضرار أياً كانت: مادية أو معنوية، وخصوصاً أن عصرنا الحالي يشهد نمواً مطرداً في مفاهيم حقوق الإنسان، وهي لا تتعارض مع تعاليم الإسلام وتوجيهاته في كثير من صورها ومجالاتها، ومنها الحقوق المعنوية والأدبية.

من الجدير بالذكر هنا الإشارة إلى بعض المواقف الإيجابية في هذا الصدد، حيث اتجهت بعض الدول إلى وجوب تعويض المتهم المحبوس عند ظهور براءته عن عامة الأضرار التي لحقت به ، سواء كانت مادية أو معنوية ، ومن هذه الدول: بلجيكا، وسويسرا، والولايات المتحدة، وفرنسا.

كما صدرت أحكام قضائية في بعض البلدان العربية منها: المملكة العربية السعودية، والكويت فيها تعويض متهمين ــ كانوا قد حبسوا ــ عن أضرار معنوية لحقت بهم، وتعتبر هذه المواقف خُطْوات إيجابية في الطريق الصحيح.

وزيادة على ما سبق رأت بعض الدول وجوب إعلان براءة المتهم في الصحافة ، ووسائل الإعلام الأخرى، وذلك من أجل العمل على رد الاعتبار الأدبي والاجتماعي إليه، وتصحيح وضعه وصورته في أذهان الناس .

وهكذا يتضح مما سبق: أن الحبس بتهمة أمر مقرر في الشرائع والأنظمة عامة، وذلك لمحاصرة الجريمة والكشف عن الفاعلين والوصول إلى الحقيقة، غير أنه من الأهمية بمكان التعجيل في التحقيق مع المتهمين ، وعدم التمادي في حبسهم من غير قرينة قوية مقبولة ، ولا موجب مشروع.

فإذا تجاوزت جهة مّا تلك المسلمات الإجرائية، فأطالت حبس المتهم من غير مسوّغ، توجب عليها أن تعوضه عما لحقه من أضرار مادية ومعنوية، وتُسائل الأشخاص الذين باشروا هذه التجاوزات ، وتُنزل بهم الجزاءات المناسبة، وبذلك يمكن ضمان ورعاية حرية كل إنسان وأمنه الفردي، وهذا في مجمله يلتقي مع تعاليم الشريعة الإسلامية والاتجاهات القانونية المعاصرة .

الباب الأول



حقوق السجناء في المواثيق الدولية

(١) قواعد الأمم المتحدة لمعاملة السجناء ١٩٥٧.

(٢) مبادئ حماية جميع الأشخاص الذين يتعرضون لأى شكل من أشكال الاحتجاز أو السجن ١٩٨٨.

(٣) المبادئ الأساسية لمعاملة السجناء ١٩٩٠.

(٤) قواعد الأمم المتحدة بشأن حماية الأحداث المجردين من حريتهم ١٩٩٠.

(١)

"القواعد النموذجية الدنيا لمعاملة السجناء"

اعتمدها مؤتمر الأمم المتحدة الأول لمنع الجريمة ومعاملة المجـــرمين المعقود في جنيف عام ١٩٥٥ ، وأقرها المجلس الاقتصادي والاجتماعي بقراريه : ٦٦٣ جيم (د–٢٤) المؤرخ في ٣١ تموز/يوليه ١٩٥٧ و ٢٠٧٦ (د-٦٢)٩المؤرخ في ١٣ أيار/ مايو ١٩٧٧

توطــئة :

تضمنت القواعد النموذجية الدنيا لمعاملة السجناء التي صدرت عن الأمـــم المتحدة في عام ١٩٥٥ العديد من القواعد الصالحة للتطبيق كحـــدود دنيـــا لجميع السجناء في جميع سجون العالم ومن أمثلة هذه المبادئ .

- ضرورة أن تكون السجون مجتمعات منظمةً تنظيما جيدا؛ أي تكون أماكن لا خطر فيها على الحياة والصحة والسلامة الشخصية .
- يجب أن تكون السجون أماكن لا تظهـــر فيهـــا أي تفرقـــة في معاملـــة المسجونين .
- عندما تصدر المحكمة حكما بالسجن على المجرم فإنها تفرض عقوبة هي في ذاتها قاسية للغاية ، لذلك يجب ألا تعمل ظروف السجن على زيادة هـــذه القسوة .
- يجب أن تركز الأنشطة في السجن كلما أمكن على مساعدة المســـجونين على العودة للاستقرار في المجتمع بعد انقضاء عقوبة السجن ، ولهذا السبب يجب ألا تعمل قواعد ونظم السجن على تقييد حرية النزيل ، واتصـــالاته الاجتماعية مع خارج السجن، وإمكانية تطوير ذاته بما ليس ضروريا، بـــل على العكس يجب أن تؤدي قواعد ونظم السجن على التأقلم والانـــدماج مع الحياة العادية للمجتمع .

ومنذ تأسيس الأمم المتحدة وهي تعمل على تشجيع المعاملة الإنسانية للمسجونين، وخاصة وقد حظر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي تم إقراره في ١٩٤٨/١٢/١ التعذيبَ والمعاملة أو العقوبة القاسية أو الإنسانية والحاطّة بالكرامة (مادة ٥) وتبع الإعلان العالمي مجموعة من الاتفاقيات، والقرارات الدولية الأخرى، وعلى رأسها مجموعة القواعد النموذجية الدنيا لمعاملة السجناء، والتي تتعلق بصفة خاصة بظروف السجن، ومعاملة المسجونين إلا أن مكانة "مجموعة القواعد النموذجية الدنيا لمعاملة السجناء" قد شهدت تطورا هائلا إذ أصبحت من الصكوك الدولية الهامة وأصبحت ضرورية لتفسير اتفاقيات حقوق الإنسان الدولية الأخرى، والتي يجب الاعتراف بها على أساس أنها جزء من القانون الدولي لحقوق الإنسان .

وتضمنت مجموعة القواعد النموذجية الدنيا لمعاملة السجناء (٩٥) قاعدة، وهي قواعد عامة صالحة للتطبيق بأي نظام سجني فجاءت (القواعد: ١، ٢، ٣، ٤) بالنص على الغايات والمبادئ الأساسية من المجموعة؛ بأن القصد منها ليس تقديم وصف تفصيلي لنظام نموذجي للمؤسسات العقابية، ولكنها ترمي إلى إبراز ما تم قبوله بالإجماع العام، على أنه عناصر أساسية من حيث المبدأ والممارسة في معاملة المسجونين، وفي إدارة السجون، ولا يمكن القول بأن هناك نظاما سجنيا يلبي المتطلبات الدنيا التي تنص عليها القواعد؛ فهناك نظم عقابية مثل: المطبقة في مصر تقصر دون ذلك على نحو واضح، بل وتخالف العديد من أحكام القواعد الدنيا .

وتقضي القاعدة (٢٧) على آن يؤخذ بالحزم في المحافظة على الانضباط والنظام، لكن دون أن يفرض من القيود أكثر مما هو ضرورة لكفالة الأمن، وحسن انتظام الحياة المجتمعية . وتتضمن هذه القاعدة التزاما على كل إدارات السجون بأن تكون كل السجون بيئات آمنة للسجناء ولطاقم السجن والمجتمع.

وحرَصت المجموعة على النص على حظر التمييز بين السجناء وذلك بالقاعدة (٦) منها إذا جرى نصها على أنها " تطبق القواعد التالية بصورة

حيادية ولا يجوز أن يكون هناك تمييز في المعاملة بسبب العنصر، أو اللون، أو الجنس، أو الدين، أو الرأي سياسيا أو غير سياسي، أو المنشأ القومي، أو الاجتماعي، أو الثروة، أو المولد، أو أي وضع آخر وفي الوقت نفسه من الضروري احترام المعتقدات الدينية والمبادئ الأخلاقية للفئة التي ينتسب إليها السجين " .

ويعني التمييز والتفرقة إلحاق الضرر بالمسجونين أفرادًا، أو جماعات بدون سبب. وعلى ذلك فإن أي إجراء يقوم على أساس من التحيز، أو التعصب، أو التحامل يعتبر محظورا ، وقد استخدمت هذه المادة نفس الألفاظ التي وردت بالمادة الثانية من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وتكرر نفس الحظر في المادة الثامنة من المبادئ الأساسية لمعاملة المسجونين التي تبنتها الجمعية العامة للأ مم المتحدة في اجتماعها الثامن والستين الذي عقد في ديسمبر ١٩٩٠ .

كما تؤكد "المادة السابعة" من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي تبنته الأمم المتحدة عام ١٩٤٨على أن كل الناس سواسية أمام القانون، ولهم الحق في التمتع بحماية متكافئة دون أي تفرقة، كما أن لهم جميعا الحق في حماية متساوية ضد أي تمييز يخل بهذا الإعلان، وضد أي تحريض على تمييز كهذا .

أما ما يحدث داخل السجون المصرية من التمييز والتفرقة بين فئات السجناء الجنائيين، والسياسيين، أو بين الشخصيات العامة، والأغنياء، والفقراء، والأفراد العاديين، والتفرقة التي تحدث بين أي سجين وآخر - فهي نوع من التمييز المحظور بمقتضى القانون والقواعد الدولية المتعارف عليها وذلك واضح من الدراسة الميدانية لسجن مزرعة طره .

وقد أعلنت لجنة الأمم المتحدة الخاصة بحقوق الإنسان في تعليقها العام في ٦ أبريل ١٩٩٢ أنه ينبغي مطالبة الدول معاملة المسجونين بصورة تحترم كرامتهم واعتبرت اللجنة ذلك " قاعدة أساسية عالمية الطابع " ويعتبر تطبيقها حدًّا أدنى مستقلا عن الموارد المادية المتاحة للدول .

وحظر التعذيب والمعاملة أو العقوبة القاسية وغير الإنسانية كذلك تنص المادة (٥) من الميثاق الأفريقي لحقوق الإنسان والشعوب والمادة (٥) من الاتفاقية الأمريكية للحقوق الإنسانية ، والمادة (٣) من الاتفاقيات الأوربية لحقوق الإنسان علي ذات المبدأ .

حيث ذكرت المادة (٥) من الاتفاقية الأمريكية لمنع التعذيب والعقاب بأنه لا يبرر التعذيب السمات الخطرة للمسجون أو المحبوس، ولا عدم توافر الأمن في السجن أو المؤسسة العقابية .

وقد نصت الدساتير الوطنية في جميع بلدان العالم على حظر التعذيب والمعاملة، أو العقوبة القاسية غير الإنسانية والحاطة بالكرامة سواء مباشرة أو ضمنا، ولدعم ذلك القبول العالمي لهذا المبدأ تلزم اتفاقية الأمم المتحدة لمناهضة التعذيب وغيره من ضروب المعاملة، أو العقوبة القاسية، أو الإنسانية أو المهينة الدول والحكومات بالتحقيق في هذه الأعمال، والمعاقبة عليها، وتعويض ضحايا التعذيب والعقوبة أو المعاملة القاسية أو غير الإنسانية أو الحاطة بالكرامة .

وتعتبر العقوبة قاسية، أو غير إنسانية، أو مهينة إذا كانت :

١- غير متناسبة مع الفعل المرتكب، أو مع هدف الحفاظ علي النظام والأمن في حياة مجتمع السجن .

٢- إذا كانت غير منطقية .

٣- أو غير ضرورية .

٤- أو تعسفية .

٥- أو تنتج عنها ألما شديدا .

كما أنه من المستقر عليه أيضا عدم تبرير المعاملة القاسية للمسجونين باللجوء إلى القانون، أو الانصياع لأوامر الرؤساء كما تنص المادة (٥) من مدونة سلوك الموظفين المكلفين بتنفيذ القوانين على أنه:

" لا يجوز لأي موظف من الموظفين المكلفين بإنفاذ القوانين أن يقوم بأي عمل من أعمال التعذيب، أو غيرها من ضروب المعاملة" ، أو العقوبة القاسية، أو الإنسانية، أو المهينة، أو يحرض عليه، أو يتقاضى عنه أجرًا، كما لا يجوز لأي من الموظفين المكلفين تنفيذ القوانين أن يتذرع بأوامر عليا، أو بظروف استثنائية كحالة الحرب، أو التهديد بالحرب، أو تهديد الأمن القومي، أو عدم الاستقرار السياسي الداخلي، أو أي حالة أخرى من حالات الطوارئ العامة ، لتبرير التعذيب أو غيره من ضروب المعاملة، أو العقوبة القاسية، أو الإنسانية، أو الحاطّة بالكرامة .

و في إطار احترام التوجيه المجتمعي للسجين أوردت القاعدة (٦٠) من مجموعة القواعد النموذجية الدنيا لمعاملة السجناء مبدأ الحياة العادية؛ إذ جري نصها على أنه " ينبغي للنظام أن يلتمس السبل إلى تقليص الفروق التي يمكن أن تقوم بين حياة السجن والحياة الحرة ، والتي من شأنها أن تهبط بحس المسئولية لدى السجناء، أو بالاحترام الواجب لكرامتهم البشرية " ذلك أنه من المستقَرّ عليه في السياسة العقابية الحديثة ضرورة اتخاذ التدابير التي تضمن للسجين عودته تدريجيا إلى الحياة في المجتمع ، كما جاء بالفقرة الثانية من القاعدة (٦٠) أنه لا يجب تقييد حرية المسجون واتصالاته الخارجية وإمكانات تنمية شخصيته أكثر من القدر الضروري، وأن تؤدى قواعد ومتطلبات السجن إلى إعادته للحياة الطبيعية في المجتمع بعد إطلاق سراحه .

ففكرة السجن – وإن كانت تعني تقليص تفاعل، وتواصل السجناء بالعالم الخارجي، وتبرر بعض القيود على العلاقات الاجتماعية، مع الألم النفسي – التي يجسدها ذلك البناء الهندسي للسجن بحواجزه العمودية وحدوده المانعة للأفق، وأبوابه الموصدة، وحيطانه العالية، وأسلاكه الشائكة، ورغم ذلك فالاعتبارات الإنسانية والعملية ضد هذه الفكرة التقليدية للسجن .

فعملية الإيداع في السجن لا تُلغِي الحقوق الإنسانية المرتبطة بالتفاعل والتواصل ، وفي ذلك الإطار نصت القاعدة (٥) من مجموعة المبادئ الأساسية

لمعاملة المسجونين على أنه باستثناء هذه القيود التي دعت إليها ضرورة الإيداع في السجن يظل المسجونون جميعا محتفظين بالحقوق الإنسانية والحريات الأساسية التي نص عليها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والعهد الدولي الخاص بالحقوق الاجتماعية والاقتصادية والثقافية إذا كانت الدولة المعنية طرفا فيها والعهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية والبروتوكول الاختياري وكذلك الحقوق الأخرى التي نصت عليها اتفاقيات الأمم المتحدة الأخرى .

ويرتبط مبدأ احتفاظ المسجونين بالحقوق الإنسانية، والحريات الأساسية داخل حدود معينة بفكرة أن المسجونين سيعودون إلى المجتمع مرة أخرى، وأن فترة السجن هي فترة ضرورية وهامة لإعادة تأهيلهم باعتبارهم مواطنين عاديين، لذلك فإن الاتصالات بالعالم الخارجي جزء ضروري من عملية إعادة التأهيل الاجتماعي، وهو ما أكدته القاعدة (٦١) من مجموعة القواعد النموذجية الدنيا لمعاملة السجناء؛ إذ نصت على أنه "لا ينبغي - في معالجة السجناء - أن يكون التركيز على إقصائهم عن المجتمع، بل على نقيض ذلك على كونهم يظلون جزءاً منه".

ولابد من تعزيز الاتصالات كمّا وكَيْفًا مع الأسرة وغيرها من الاتصالات من حيث أداء دورها في إعادة تأهيل المسجون اجتماعيا للعودة مرة أخرى إلى مجتمعه، وهناك أنماط عديدة وأساليب شتى يمكن الاستعانة بها مثل المؤسسات المفتوحة وشبه المفتوحة ، وفتح مجال للاتصال عن طريق الزيارة والمراسلة بين السجين والأسرة والأصدقاء ، وإعلان ذوي السجين بالنقل من سجن إلى آخر ، والإيداع بالقرب من محل الإقامة ، وتصريحات الخروج من السجن ، والاطلاع على وسائل الإعلام .

وعكس ذلك ما يحدث في مصر؛ إذ قيد القانون الحق في الزيارة مرة واحدة كل خمسة عشر يوما على الأقل وفي أحيان كثيرة تغلق بعض السجون تماما إذ لا يسمح فيها بالزيارة مطلقا وتعتبر هذه السجون أماكن عزل تامة، ولا يسمح بوجود أي اتصالات للسجين مع العالم الخارجي ، وفي بعض الحالات

لا يعرف ذووهم أماكن إيدعهم وذلك في حالات الاختفاء القسري الـــذي أصبح ظاهرة في مصر!

وفي نهاية هذا الجزء القانوني حول تلك المبادئ العامة لحقوق المســجونين نشير إلى أنه يقع على الإدارة العقابية ضمان إعادة تأهيل المسجونين أثناء فترة وجودهم بالسجن، وكذلك بعد الإفراج عنهم فيما يعرف "بالرعاية اللاحقة" والتي تعد المقياس الحقيقي لنجاح السجن في أداء دوره في الإصلاح والتأهيل.

ملاحظات تمهيدية :

ليس الغرض من القواعد التالية تقديم وصف تفصــيلي لنظــام نمــوذجي للسجون ، بل إن كل ما تحاوله هو أن تحدد ، علــى أســاس التصــورات المتواضع على قبولها عموما في أيامنا هذه والعناصر الأساســية في الأنظمــة المعاصرة الأكثر صلاحا ، ما يعتبر عموما خير المبادئ والقواعــد العمليــة في معاملة المسجونين وإدارة السجون . ومن الجلي – نظرا لما تتصف به الظروف القانونية والاجتماعية والجغرافية في مختلف أنحاء العالم من تنوع بالغ – أن من غير الممكن تطبيق جميع القواعد في كل مكان، وفي أي حين . ومــع ذلــك يرجى أن يكون فيها ما يحفز على بذل الجهد باستمرار للتغلب على المصاعب العملية التي تعترض تطبيقها ، انطلاقا من كونها تمثل، في جملتها الشروط الدنيا التي تعترف بصلاحها الأمم المتحدة .

ثم إن هذه القواعد ، من جهة أخرى ، تتناول ميدانا يظل الرأي فيــه في تطور مستمر . وهي بالتالي لا تستبعد إمكانية التجربة والممارسة ما دامــت متفقة مع المبادئ التي تستشف منها مجموعة القواعد في جملتها، ومع الســعي لتحقيق مقاصدها . وبهذه الروح يظل دائما من حق الإدارة المركزية للسجون أن تسمح بالخروج الاستثنائي على هذه القواعد .

١- والجزء الأول من هذه المجموعة يتناول القواعد المتعلقة بــالإدارة العامــة للمؤسسات الجزائية ، وهو ينطبق على جميع فئات المسجونين ، سواء كان سبب حبسهم جنائيا أم مدنيا ، وسواء كانوا متهمين أم مدانين ، وبمــا في

ذلك أولئك الذين تطبق بحقهم (تدابير أمنية) أو تدابير إصلاحية أمر بها القاضي .

٢- أما الجزء الثاني فيتضمن قواعدَ لا تنطبق إلا على فئات المسجونين الذين يتناولهم كل فرع فيه .ومع ذلك فإن القواعد الواردة في الفرع (ألف) منه بشأن السجناء المدانين تنطبق أيضا على فئات السجناء الذين تتناولهم الفروع (باء) و(جيم) و (دال) في حدود عدم تعارضها مع القواعد الخاصة بهذه الفئات وكونها في صالح هؤلاء السجناء .

٣- ولا تحاول القواعد تنظيم إدارة المؤسسات المخصصة للأحداث الجانحين (مثل الإصلاحيات، أو معاهد التهذيب، وما إليها) ، ومع ذلك فإن الجزء الأول منها يصلح أيضا ، للتطبيق في هذه المؤسسات .

٤- ويجب اعتبار فئة الأحداث المعتقلين شاملة على الأقل لجميع القاصرين الذين يخضعون لصلاحية محاكم الأحداث . ويجب أن تكون القاعدة العامة ألا يحكم على هؤلاء الجانحين الصغار بعقوبة السجن .

* * * * *

الجزء الأول

قواعد عامة التطبيق

المبدأ الأساسي :

٥- تطبق القواعد التالية بصورة حيادية . ولا يجوز أن يكون هنالك تمييز في المعاملة بسبب العنصر، أو اللون، أو الجنس، أو الدين، أو الرأي سياسيا، أو غير سياسي ، أو المنشأ القومي، أو الاجتماعي، أو الثروة، أو المولد، أو أي وضع آخر .

٦- وفي الوقت نفسه ، من الضروري احترام المعتقدات الدينية والمبادئ الأخلاقية للفئة التي ينتسب إليها السجين .

السجل :

٧- ١- في أي مكان يوجد فيه مسجونون ، يتوجب مسك سجل مجلد ومرقوم الصفحات ، تورد فيه المعلومات التالية بشأن كل معتقل :

(أ) تفاصيل هويته

(ب) أسباب سجنه، والسلطة المختصة التي قررته.

(ج) يوم وساعة دخوله، وإطلاق سراحه .

٢- لا يقبل أي شخص في أية مؤسسة جزائية دون أمر حبس مشروع تكون تفاصيله قد دونت سلفا في السجل .

الفصل بين الفئات :

٨- توضع فئات السجناء المختلفة في مؤسسات مختلفة، أو أجزاء مختلفة من المؤسسات مع مراعاة جنسهم وعمرهم وسجل سوابقهم، وأسباب احتجازهم، ومتطلبات معاملتهم . وعلى ذلك:

(أ) يسجن الرجال والنساء ، بقدر الإمكان ، في مؤسسات مختلفة . وحين تكون هناك مؤسسة تستقبل الجنسين على السواء يتحتم أن يكون مجموع الأماكن المخصصة للنساء منفصلا كليا.

(ب) يفصل المحبوسون احتياطا عن المسجونين المحكوم عليهم.

(ج) يفصل المحبوسون لأسباب مدنية ، بما في ذلك الديون ، عن المسجونين لأسباب جزائية.

(د) يفصل الأحداث عن البالغين .

أماكن الاحتجاز :

٩- ١- حيثما وجدت زنزانات أو غرف فردية للنوم لا يجوز أن يوضع في الواحدة منها أكثر من سجين واحد ليلا . فإذا حدث لأسباب استثنائية، كالاكتظاظ المؤقت ، أن اضطرت الإدارة المركزية للسجون إلى الخروج عن هذه القاعدة ، يتفادى وضع مسجونين اثنين في زنزانة، أو غرفة فردية.

٢- وحيثما تستخدم المهاجع ، يجب أن يشغلها مسجونون يعتنى باختيارهم من حيث قدرتهم على التعاشر في هذه الظروف . ويجب أن يظل هؤلاء ليلا تحت رقابة مستمرة موائمة لطبيعة المؤسسة.

١٠- توفر لجميع الغرف المعدة لاستخدام المسجونين ، ولا سيما حجرات النوم ليلا ، جميع المتطلبات الصحية ، مع الحرص على مراعاة الظروف المناخية ، وخصوصا من حيث حجم الهواء والمساحة الدنيا المخصصة لكل سجين والإضاءة والتدفئة والتهوية .

١١- في أي مكان يكون على السجناء فيه أن يعيشوا أو يعملوا :

أ) يجب أن تكون النوافذ من الاتساع بحيث تمكن السجناء من استخدام الضوء الطبيعي في القراءة والعمل ، وأن تكون مركبة على نحو يتيح دخول الهواء النقي سواء وجدت أم لم توجد تهوية صناعية.

ب) يجب أن تكون الإضاءة الصناعية كافية لتمكين السجناء من القراءة والعمل دون إرهاق نظرهم .

١٢- يجب أن تكون المراحيض كافية لتمكين كل سجين من تلبية احتياجاته الطبيعية في حين ضرورتها وبصورة نظيفة ولائقة .

١٣- يجب أن تتوفر منشآت الاستحمام والاغتسال بالدش بحيث يكون في مقدور كل سجين، ومفروضا عليه أن يستحم أو يغتسل ، بدرجة حرارة متكيفة مع الطقس ، بالقدر الذي تتطلبه الصحة العامة تبعا للفصل، والموقع الجغرافي للمنطقة ، على ألا يقل ذلك عن مرة في الأسبوع في مناخ معتدل.

١٤- يجب أن تكون جميع الأماكن التي يتردد عليها السجناء بانتظام في المؤسسة مستوفاة الصيانة والنظافة في كل حين .

النظافة الشخصية :

١٥- يجب أن تفرض على السجناء العناية بنظافتهم الشخصية ، ومن أجل ذلك يجب أن يوفر لهم الماء، وما تتطلبه الصحة والنظافة من أدوات.

١٦- بغية تمكين السجناء من الحفاظ على مظهر مناسب يساعدهم على احترام ذواتهم ، يزود السجن بالتسهيلات اللازمة للعناية بالشعر والذقن . ويجب تمكين الذكور من الحلاقة بانتظام .

٧- أ- كل سجين لا يسمح له بارتداء ملابسه الخاصة، يجب أن يزود بمجموعة ثياب مناسبة للمناخ، وكافية للحفاظ على عافيته ولا يجوز في أية حال أن تكون هذه الثياب مهينة أو حاطّة بالكرامة .

ب- يجب أن تكون جميع الثياب نظيفة، وأن يحافظ عليها في حالة جيدة . ويجب تبديل الثياب الداخلية وغسلها بالوتيرة الضرورية للحفاظ على الصحة .

ج- في حالات استثنائية ، حين يسمح للسجين ، بالخروج من السجن لغرض مرخص به ، يسمح له بارتداء ثيابه الخاصة، أو بارتداء ملابس

أخرى لا تسترعي الأنظار .

١٨- حين يسمح للسجناء بارتداء ثيابهم الخاصة ، تتخذ لدى دخولهم السجن ترتيبات لضمان كونها نظيفة وصالحة للارتداء .

١٩- يزود كل سجين ، وفقا للعادات المحلية أو الوطنية ، بسرير فردي، ولوازم لهذا السرير مخصصة له وكافية ، تكون نظيفة لدى تسليمه إياها ، ويحافظ على لياقتها ، وتستبدل في مواعيد متقاربة بالقدر الذي يحفظ نظافتها .

الطعام:

٢٠-١- توفر الإدارة لكل سجين ، في الساعات المعتادة ، وجبة طعام ذات قيمة غذائية كافية للحفاظ على صحته وقواه ، جيدة النوعية وحسنة الإعداد والتقديم.

٢- توفر لكل سجين إمكانية الحصول على ماء صالح للشرب كلما احتاج إليه.

التمارين الرياضية :

٢١- ١- لكل سجين غير مستخدم في عمل في الهواء الطلق حق في ساعة على الأقل في كل يوم يمارس فيها التمارين الرياضية المناسبة في الهواء الطلق، إذا سمح الطقس بذلك

٢- توفر تربية رياضية وترفيهية - خلال الفترة المخصصة للتمارين - للسجناء الأحداث وغيرهم ممن يسمح لهم بذلك عمرهم ووضعهم الصحي. ويجب أن توفر لهم - على هذا القصد - الأرض والمنشآت والمعدات اللازمة .

الخدمات الطبية :

٢٢-١- يجب أن توفر في كل سجن خدمات طبيب مؤهل واحد على الأقل، يكون على بعض الإلمام بالطب النفسي . وينبغي أن يتم تنظيم الخدمات

الطبية على نحو وثيق الصلة بإدارة الصحة العامة المحلية أو الوطنية . كما يجب أن تشتمل على فرع للطب النفسي بغية تشخيص حالات الشذوذ العقلي وعلاجها عند الضرورة .

٢- أما السجناء الذين يتطلبون عناية متخصصة فينقلون إلى سجون متخصصة، أو إلى مستشفيات مدنية . ومن الواجب ، حين تتوفر في السجن خدمات العلاج التي تقدمها المستشفيات ، أن تكون معداتها وأدواتها والمنتجات الصيدلانية التي تزود بها وافية بغرض توفير الرعاية والمعالجة الطبية اللازمة للسجناء المرضى ، وأن تضم جهازا من الموظفين ذوي التأهيل المهني المناسب .

٣- يجب أن يكون في وسع كل سجين أن يستعين بخدمات طبيب أسنان مؤهل .

٢٣-١- في سجون النساء ، يجب أن تتوفر المنشآت الخاصة الضرورية لتوفير الرعاية والعلاج قبل الولادة وبعدها . ويجب - حيثما كان ذلك في الإمكان - اتخاذ ترتيبات لجعل الأطفال يولدون في مستشفى مدني . وإذا ولد الطفل في السجن ،لا ينبغي أن يذكر ذلك في شهادة ميلاده .

٢- حين يكون من المسموح به بقاء الأطفال الرضَّع إلى جانب أمهاتهم في السجن ، تتخذ التدابير اللازمة لتوفير دار حضانة مجهزة بموظفين مؤهلين ، يوضع فيها الرضع خلال الفترات التي لا يكونون أثناءها في رعاية أمهاتهم.

٢٤- يقوم الطبيب بفحص كل سجين في أقرب وقت ممكن بعد دخوله السجن ، ثم بفحصه بعد ذلك كلما اقتضت الضرورة ، وخصوصا بغية اكتشاف أي مرض جسدي، أو عقلي يمكن أن يكون مصابا به، واتخاذ جميع التدابير الضرورية لعلاجه ، وعزل السجناء الذين يشك في كونهم مصابين بأمراض معدية أو سارية ، واستبانة جوانب القصور الجسدية، أو العقلية التي يمكن أن تشكل عائقا دون إعادة التأهيل ، والبت في الطاقة البدنية على العمل لدى كل سجين .

٢٥-١- يكلف الطبيب بمراقبة الصحة البدنية والعقلية للمرض . وعليه أن يقابل يوميا جميع السجناء المرضى ، وجميع أولئك الذين يشكون من اعتلال ، وأي سجين استرعي انتباهه إليه على وجه خاص .

٢- على الطبيب أن يقدم تقريرا إلى المدير كلما بدا له أن الصحة الجسدية أو العقلية لسجين ما قد تضررت، أو ستتضرر من جراء استمرار سجنه، أو من جراء أي ظرف من ظروف هذا السجن .

٢٦-١- على الطبيب أن يقوم بصورة منتظمة بمعاينة الجوانب التالية وأن يقدم النصح إلى المدير بشأنها :

(أ) كمية الغذاء ونوعيته وإعداده ؛

(ب)مدى اتباع القواعد الصحية والنظافة في السجن ولدى السجناء.

(ج) حالة المرافق الصحية والتدفئة والإضاءة والتهوية في السجن.

(د) نوعية ونظافة ملابس السجناء ولوازم أسرّتهم.

(هـ) مدى التقيد بالقواعد المتعلقة بالتربية البدنية والرياضة ، حين يكون منظمو هذه الأنشطة غير متخصصين .

٢- يضع المدير في اعتباره التقارير والنصائح التي يقدمها له الطبيب عملا بأحكام المادتين ٢٥ (٢) و٢٦ ، فإذا التقى معه في الرأي عمد فورا إلى اتخاذ التدابير اللازمة لوضع هذه التوصيات موضع التنفيذ . أما إذا لم يوافقه على رأيه، أو كانت التوصيات المقترحة خارج نطاق اختصاصه، فعليه أن يقدم فورا تقريرا برأيه الشخصي ، مرفقا بآراء الطبيب ، إلى سلطة أعلى .

الانضباط والعقاب :

٢٧- يؤخذ بالحزم في المحافظة على الانضباط والنظام ، ولكن دون أن يفرض من القيود أكثر مما هو ضروري لكفالة الأمن وحسن انتظام الحياة المجتمعية.

٢٨-١- لا يجوز أن يستخدم أي سجين ، في خدمة المؤسسة ، في عمل ينطوي على صفة تأديبية .

٢- إلا أنه لا يجوز تطبيق هذه القاعدة على نحو يعيق نجاح أنظمة قائمة على الحكم الذاتي ، تتمثل في أن تناط أنشطة أو مسئوليات اجتماعية أو رياضية محددة ، تحت إشراف الإدارة ، بسجناء منظمين في مجموعات لأغراض العلاج .

٢٩- تحدد النقاط التالية ، دائما ، إما بالقانون، وإما بنظام تضعه السلطة الإدارية المختصة:

(أ) السلوك الذي يشكل مخالفة تأديبية ؛

(ب) أنواع ومدة العقوبات التأديبية التي يمكن فرضها ؛

(ج) السلطة المختصة بتقرير إنزال هذه العقوبات .

٣٠-١- لا يعاقب أي سجين إلا وفقا لأحكام القانون أو النظام المذكورين ، ولا يجوز أبدا أن يعاقب مرتين على المخالفة الواحدة .

٢- لا يعاقب أي سجين إلا بعد إعلامه بالمخالفة، وإعطائه فرصة فعلية لعرض دفاعه . وعلى السلطة المختصة أن تقوم بدراسة مستفيضة للحالة .

٣- يسمح للسجين ، حين يكون ذلك ضروريا وممكنا ، بعرض دفاعه عن طريق مترجم.

٣١- العقوبة الجسدية، والعقوبة بالوضع في زنزانة مظلمة ، وأية عقوبة قاسية أو لا إنسانية، أو مهنية ، محظورة كليا كعقوبات تأديبية .

٣٢-١- لا يجوز في أي حين أن يعاقب السجين بالحبس المنفرد، أو بتخفيض الطعام الذي يعطى له إلا بعد أن يكون الطبيب قد فحصه وشهد خطيا بأنه قادر على تحمل مثل هذه العقوبة.

٢- ينطبق الأمر نفسه على أية عقوبة أخرى يحتمل أن تلحق الأذى بصحة السجين الجسدية، أو العقلية . ولا يجوز في أي حال أن تتعارض هذه العقوبات مع المبدأ المقرر في القاعدة ٣١ أو أن تخرج عنه .

٣- على الطبيب أن يقوم يوميا بزيارة السجناء الخاضعين لمثل هذه العقوبات، وأن يشير على المدير بوقف العقوبة، أو تغييرها إذا رأى ذلك ضروريا لأسباب تتعلق بالصحة الجسدية أو العقلية .

أدوات تقييد الحرية :

٣٣- لا يجوز أن تستخدم أدوات تقييد الحرية ، كالأغلال والسلاسل والأصفاد وثياب التكبيل كوسائل للعقاب . وبالإضافة إلى ذلك لا يجوز استخدام السلاسل أو الأصفاد كأدوات لتقيد الحرية . أما غير ذلك من أدوات تقييد الحرية فلا تستخدم إلا في الظروف التالية :

(أ) كتدبير للاحتراز من هرب السجين خلال نقله ، شريطة أن تفك بمجرد مثوله أمام سلطة قضائية أو إدارية ؛

(ب) لأسباب طبية ، بناء على توجيه الطبيب ؛

(ج) بأمر من المدير ،إذا أخفقت الوسائل الأخرى في كبح جماح السجين لمنعه من إلحاق الأذى بنفسه، أو بغيره، أو من تسبيب خسائر مادية . وعلى المدير في مثل هذه الحالة أن يتشاور فورا مع الطبيب، وأن يبلغ الأمر إلى السلطة الإدارية الأعلى .

٣٤- الإدارة المركزية للسجون، هي التي يجب أن تحدد نماذج أدوات تقييد الحرية، وطريقة استخدامها . ولا يجوز استخدامها أبدا لمدة أطول من المدة الضرورية كل الضرورة.

تزويد السجناء بالمعلومات، وحقهم في الشكوى :

٣٥-١- يزود كل سجين ، لدى دخوله السجين ، بمعلومات مكتوبة حول الأنظمة المطبقة على فئته من السجناء ، وحول قواعد الانضباط في السجين، والطرق المرخص بها لطلب المعلومات وتقديم الشكاوى ، وحول أية مسائل أخرى تكون ضرورية لتمكينه من معرفة حقوقه وواجباته على السواء ومن تكييف نفسه وفقا لحياة السجن .

٢- إذا كان السجين أميا وجب أن تقدم له هذه المعلومات بصورة شفوية .

٣٦-١- يجب أن تتاح لكل سجين إمكانية التقدم ، في كل يوم عمل من أيام الأسبوع ، بطلبات أو شكاوى إلى مدير السجن أو إلى الموظف المفوض بتمثيله.

٢- يجب أن يستطيع السجناء التقدم بطلبات أو شكاوى إلى مفتش السجون خلال جولته التفتيشية في السجن . ويجب أن تتاح للسجين فرصة للتحدث مع المفتش، أو مع أي موظف آخر مكلف بالتفتيش، دون أن يحضر حديثه مدير السجن أو غيره من موظفيه .

٣- يجب أن يسمح لكل سجين بتقديم طلب أو شكوى إلى الإدارة المركزية للسجون، أو السلطة القضائية أو إلى غيرهما من السلطات ، دون أن يخضع الطلب أو الشكوى للرقابة من حيث الجوهر، ولكن على أن يتم وفقا للأصول وعبر الطرق المقررة .

٤- ما لم يكن الطلب أو الشكوى جلي التفاهة، أو بلا أساس ، يتوجب أن يعالج دون إبطاء ، وأن يجاب عليه في الوقت المناسب .

الاتصال بالعالم الخارجي :

٣٧- يسمح للسجين - في ظل الرقابة الضرورية - بالاتصال بأسرته، وبذوي السمعة الحسنة من أصدقائه ، على فترات منتظمة ، بالمراسلة وبتلقي الزيارات على السواء .

٣٨-١- يمنح السجين الأجنبي قدرا معقولا من التسهيلات للاتصال بالممثلين الدبلوماسيين والقنصليين للدولة التي ينتمي إليها .

٢- يمنح السجناء - المنتمون إلى دول ليس لها ممثلون دبلوماسيون أو قنصليون في البلد واللاجئون وعديمو الجنسية - تسهيلات مماثلة للاتصال بالممثل الدبلوماسي للدولة المكلفة برعاية مصالحهم أو بأية سلطة وطنية، أو دولية تكون مهمتها حماية مثل هؤلاء الأشخاص .

٣٩- يجب أن تتاح للسجناء مواصلة الاطلاع بانتظام على مجرى الأحداث

ذات الأهمية عن طريق الصحف اليومية أو الدورية أو أية منشورات خاصة تصدرها إدارة السجون، أو بالاستماع إلى محطات الإذاعة أو إلى المحاضرات ، أو بأية وسيلة مماثلة تسمح بها الإدارة، أو تكون خاضعة لإشرافها .

الكتب :

٤٠- يزود كل سجن بمكتبة متخصصة لمختلف فئات السجناء، تضم قدرا وافيا من الكتب الترفيهية والتثقيفية على السواء، ويشجع السجناء على الإفادة منها إلى أبعد حد ممكن .

الدين :

٤١-١- إذا كان السجن يضم عددا كافيا من السجناء الذين يعتنقون نفس الدين ، يعين أو يقر تعيين ممثل لهذا الدين مؤهل لهذه المهمة . وينبغي أن يكون هذا التعيين للعمل كل الوقت إذا كان عدد السجناء يبرر ذلك، وكانت الظروف تسمح به .

٢- يسمح للمثل المعين، أو الذي تم إقرار تعيينه وفقا للفقرة (١) أن يقيم الصلوات بانتظام وأن يقوم ، كلما كان ذلك مناسبا، بزيارات خاصة للمسجونين من أهل دينه رعاية لهم .

٣- لا يحرم أي سجين من الاتصال بالممثل المؤهل لأي دين . وفي مقابل ذلك، يحترم رأي السجين كليا إذا هو اعترض على قيام أي ممثل ديني بزيارة له.

٤٢- يسمح لكل سجين ، بقدر ما يكون ذلك في الإمكان ، بأداء فروض حياته الدينية بحضور الصلوات المقامة في السجن ، وبحيازة كتب الشعائر والتربية الدينية التي تأخذ بها الطائفة .

حفظ متاع السجناء :

٤٣-١- حين لا يسمح نظام السجن للسجين بالاحتفاظ بما يحمل من نقود، أو أشياء ثمينة أو ثياب أو غير ذلك من متاعه ، يوضع ذلك كله في حرز

أمين لدى دخوله السجن . ويوضع كشف بهذا المتاع يوقعه السجين ، وتتخذ التدابير اللازمة للإبقاء على هذه الأشياء في حالة جيدة .

٢- لدى إطلاق سراح السجين تعاد إليه هذه النقود والحوائج ، باستثناء ما سمح له بإنفاقه من مال، أو ما أرسله إلى الخارج من متاع أو ما دعت المقتضيات الصحية إلى إتلافه من ثياب . ويوقع السجين على إيصال بالنقود والحوائج التي أعيدت إليه .

٣- تطبق هذه المعاملة ذاتها على أية نقود، أو حوائج ترسل إلى السجين من خارج السجن.

٤- إذا كان السجين ، لدى دخوله السجن ، يحمل أية عقاقير، أو أدوية ، يقرر مصيرها طبيب السجن .

الإخطار بحالات الوفاة، أو المرض، أو النقل ، الخ :

٤٤-١- إذا تُوفي السجين، أو أصيب بمرض خطير، أو بحادث خطير، أو نقل إلى مؤسسة لعلاج الأمراض العقلية ، يقوم المدير فورا ، إذا كان السجين متزوجا ، بإخطار زوجه ، وإلا فأقرب أنسبائه إليه ، وفي أية حال أي شخص آخر يكون السجين قد طلب إخطاره .

٢- يخطر السجين فورا بأي حادث وفاة، أو مرض خطير لنسيب قريب له . وإذا كان مرض هذا النسيب بالغ الخطورة يرخص للسجين ، إذا كانت الظروف تسمح بذلك ، بالذهاب لعيادته إما برفقة حرس وإما بمفرده .

٣- يكون لكل سجين حق إعلام أسرته فورا باعتقاله، أو بنقله إلى سجن آخر .

انتقال السجناء :

٤٥-١- حين ينقل السجين إلى السجن، أو منه ، يجب عدم تعريضه لأنظار الجمهور إلا بأدنى قدر ممكن ، ويجب اتخاذ تدابير لحمايته من شتائم الجمهور وفضوله، ومن العلنية بأي شكل من أشكالها .

٢-يجب أن يحظر نقل السجناء في ظروف سيئة من حيث التهوية والإضاءة ، أو بأية وسيلة تفرض عليهم عناء جسديا لا ضرورة له .

٣- يجب أن يتم نقل السجناء على نفقة الإدارة ، وأن تسود المساواة بينهم جميعا .

موظفو السجن :

٤٦-١- على إدارة السجون أن تنتقي موظفيها على اختلاف درجاتهم بكل عناية ، إذ على نزاهتهم وإنسانيتهم وكفاءتهم المهنية وقدراتهم الشخصية للعمل يتوقف حسن إدارة المؤسسات الجزائية .

٢- على إدارة السجون أن تسهر باستمرار على إيقاظ وترسيخ القناعة ، لدى موظفيها، ولدى الرأي العام ، بأن هذه المهمة هي خدمة اجتماعية بالغة الأهمية ، وعليها - طلبا لهذا الهدف - ، أن تستخدم جميع الوسائل المناسبة لتنوير الجمهور .

٣- بغية تحقيق الأهداف السابقة الذكر ، يعين موظفو السجون على أساس العمل طوال ساعات العمل المعتادة ، بوصفهم موظفي سجون محترفين ، ويعتبرون موظفين مدنيين يضمن لهم بالتالي أمن العمل دون أن يكون مرهونا إلا بحسن السلوك والكفاءة واللياقة البدنية . ويجب أن تكون الأجور من الكفاية بحيث تجتذب الأكفاء من الرجال والنساء ، كما يجب أن تحدد مزايا احترافهم، وظروف خدمتهم على نحو يراعي طبيعة عملهم المرهقة .

٤٧-١- يجب أن يكون الموظفون على مستوى كاف من الثقافة والذكاء .

٢- قبل الدخول في الخدمة ، يعطى الموظفون دورة تدريبية على مهامهم العامة والخاصة ، وعليهم أن يجتازوا اختبارات نظرية وعملية .

٣- على الموظفين - بعد مباشرتهم العمل وطوال احترافهم المهنة - أن يرسخوا ويحسنوا معارفهم وكفاءتهم المهنية بحضور دورات تدريبية أثناء الخدمة تنظم على فترات مناسبة .

٤٨- على جميع الموظفين أن يجعلوا سلوكهم، وأن يضطلعوا بمهامهم على نحو يجعل منهم قدوة طيبة للسجناء، ويبعث على احترامهم لهم .

٤٩-١- يجب أن يضم جهاز الموظفين - بقدر الإمكان - عددا كافيا من الأخصائيين كأطباء الأمراض العقلية، وعلماء النفس والمساعدين الاجتماعيين، والمعلمين، ومدرسي الحرف .

٢- يُكْفَلُ جعل خدمات المساعدين الاجتماعيين والمعلمين ومدرسي المهن الحرة على أساس دائم ، ولكن دون استبعاد العاملين لبعض الوقت، أو العاملين المتطوعين .

٥٠-١- يجب أن يكون مدير السجن على حظ واف من الأهلية لمهمته ، من حيث طباعه وكفاءته الإدارية، وتدريبه المناسب، وخبرته .

٢- يجب أن يكون كامل وقته لمهامه الرسمية ، فلا يعين على أساس بعض الوقت فحسب .

٣- وعليه أن يجعل إقامته داخل السجن، أو على مقربة مباشرة منه .

٤- حين يوضع سجنان أو أكثر تحت سلطة مدير واحد أن يكون عليه أن يزور كلا منها في مواعيد متقاربة ، كما يجب أن يرأس كلا من هذه السجون بالنيابة موظف مسئول .

٥١-١- يجب أن يكون المدير ومعاونه وأكثرية موظفي السجن الآخرين - قادرين على تكلم لغة معظم السجناء ، أو لغة يفهمها معظم هؤلاء .

٢- يستعان ، كلما اقتضت الضرورة ذلك ، بخدمات مترجم .

٥٢-١- في السجون التي تبلغ من الاتساع بحيث تقتضي خدمات طبيب أو أكثر كامل الوقت، يجب أن تكون إقامة واحد منهم على الأقل داخل السجن، أو على مقربة مباشرة منه .

٢- أما في السجون الأخرى فعلى الطبيب أن يقوم بزيارات يومية ، وأن يجعل إقامته على مقربة كافية من السجن بحيث يستطيع الحضور دون إبطاء في حالات الطوارئ .

٥٣-١- في السجون المختلطة ، المستخدمة للذكور والإناث معا ، يوضع القسم المخصص للنساء من مبنى السجن تحت رئاسة موظفة مسئولة تكون في عهدتها مفاتيح جميع أبواب هذا القسم .

٢- لا يجوز لأي من موظفي السجن الذكور أن يدخل قسم النساء، ما لم يكن مصحوبا بموظفة أنثى .

٣- تكون مهمة رعاية السجينات والإشراف عليهن من اختصاص موظفات سجن النساء حصرا . على أن هذا لا يمنع الموظفين الذكور، ولا سيما الأطباء والمعلمين ، من ممارسة مهامهم المهنية في السجون، أو أقسام السجون المخصصة للنساء .

٥٤-١- لا يجوز لموظفي السجون أن يلجئوا إلى القوة ، في علاقاتهم مع المسجونين ، إلا دفاعا عن أنفسهم، أو في حالات محاولة الفرار، أو المقاومة الجسدية بالقوة، أو بالامتناع السلبي لأمر يستند إلى القانون أو الأنظمة . وعلى الموظفين الذين يلجئون إلى القوة ألا يستخدموها إلا في أدنى الحدود الضرورية، وأن يقدموا فورا تقريرا عن الحادث إلى مدير السجن .

٢- يوفر لموظفي السجون تدريب جسدي خاص لتمكينهم من كبح جماح السجناء ذوي التصرف العدواني .

٣- لا ينبغي للموظفين - الذين يقومون بمهمة تجعلهم في تماس مباشر مع السجناء - أن يكونوا مسلحين ، إلا في ظروف استثنائية . وبالإضافة إلى ذلك لا يجوز ، أيا كانت الظروف ، تسليم سلاح لأي موظف ما لم يكن قد تم تدريبه على استعماله .

التفتيش :

٥٥- يجب أن يكون هناك تفتيش منتظم لمؤسسات السجون وخدماتها ، يكلف به مفتشون مؤهلون ذوو خبرة تعينهم سلطة مختصة . وعلى هؤلاء المفتشين بوجه خاص واجب الاستيقان من كون هذه المؤسسات تدار طبقا للقوانين والأنظمة وعلى قصد تحقيق أهداف الخدمات التأديبية والإصلاحية .

الجزء الثاني

قواعد تنطبق على فئات خاصة

ألف – السجناء المدانون

مبادئ توجيهية :

٥٦– تهدف المبادئ التوجيهية التالية إلى تبيان الروح التي ينبغي أن يؤخذ بها في إدارة السجون والأهداف التي يجب أن تسعى إليها ، طبقا للبيان الوارد في الملاحظة التمهيدية (رقم: ١) من هذا النص .

٥٧– إن الحبس وغيره من التدابير الآيلة إلى عزل المجرم عن العالم الخارجي تدابير مؤسسية بذات كونها تسلب الفرد حق التصرف بشخصه بحرمانه من حريته . ولذلك لا ينبغي لنظام السجون ، إلا في حدود مبررات العزل، أو الحفاظ على الانضباط ، أن يفاقم من الآلام الملازمة لمثل هذه الحال .

٥٨– والهدف الذي يبرر عقوبة الحبس وغيرها من تدابير الحرمان من الحرية هو في نهاية المطاف حماية المجتمع من الجريمة . ولا سبيل إلى بلوغ مثل هذا الهدف إلا إذا استخدمت فترة الحبس للوصول ، حتى أقصى مدى مستطاع ، إلى جعل المجرم، وهو يعود إلى المجتمع لا راغبا في العيش في ظل احترام القانون، وتدبر احتياجاته بجهده فحسب ، بل قادرا أيضا على ذلك .

٥٩– وطلبا لهذه الغاية ، ينبغي لنظام السجون أن يستعين بجميع الوسائل الإصلاحية والأخلاقية، وغيرها، وبجميع طاقات وأشكال المساعدة المناسبة المتاحة له ، ساعيا إلى تطبيقها على هدى مقتضيات العلاج الفردي للسجناء .

٦٠-١- ينبغي إذن لنظام السجون أن يلتمس السبل إلى تقليص الفوارق التي يمكن أن تقوم بين حياة السجن والحياة الحرة ، والتي من شأنها أن تهبط بحس المسئولية لدى السجناء أو بالاحترام الواجب لكرامتهم البشرية .
٢- ومن المستحسن أن يعمد - قبل انتهاء مدة العقوبة - إلى اتخاذ التدابير الضرورية لكي تضمن للسجين عودة تدريجية إلى الحياة في المجتمع . وهذا هدف يمكن بلوغه ، تبعا للحالة ، من خلال مرحلة تمهد لإطلاق سراح السجين تنظم في السجن نفسه، أو في مؤسسة أخرى ملائمة ، أو من خلال إطلاق سراحه تحت التجربة مع إخضاعه لضرب من الإشراف والرقابة، ولا يجوز أن يعهد به إلى الشرطة بل ينبغي أن يشتمل على مساعدة اجتماعية فعالة .

٦١- ولا ينبغي ، في معالجة السجناء ، أن يكون التركيز على إقصائهم عن المجتمع ، بل — على نقيض ذلك — على كونهم يظلون جزءا منه . وعلى هذا الهدف ينبغي اللجوء ، بقدر المستطاع ، إلى المؤازرة التي يمكن أن توفرها هيئات المجتمع المحلي لمساعدة جهاز موظفي السجن على إعادة التأهيل الاجتماعي للسجناء .ويجب أن يكون هناك مساعدون اجتماعيون يتعاونون مع كل مؤسسة احتجاز، وتناط بهم مهمة إدامة، وتحسين كل صلات السجين المستصوبة بأسرته وبالمنظمات الاجتماعية الجزيلة الفائدة. كما يجب أن تتخذ ، إلى أقصى الحدود المتفقة مع القانون، ومع طبيعة العقوبة ، تدابير لحماية ما للسجين من حقوق تتصل بمصالحه المدنية، وبتمتعه بالضمان الاجتماعي، وغير ذلك من المزايا الاجتماعية .

٦٢- وعلى الخدمات الطبية في مؤسسة السجن أن تحاول رصد أي علل، أو أمراض جسدية أو عقلية لدي السجين ، وأن تعالجها حتى لا تكون عقبة دون إعادة تأهيله . ويجب ، على هذا الهدف ،أن توفر للسجين جميع الخدمات الطبية والجراحية والنفسانية الضرورية .

٦٣-١- إن الإنفاذ الكامل لهذه المبادئ يتطلب إفرادية المعالجة ، وبالتالي يقتضي الأخذ بنظام مرن لتصنيف السجناء في فئات . وعلى ذلك

يستصوب أن توزع هذه الفئات على مؤسسات منفصلة تستطيع كل فئة أن تجد فيها العلاج الذي يناسبها .

٢- وليس من الضروري أن يتوفر في كل مؤسسة نفس القدر من متطلبات الأمن بالنسبة لكل فئة ، بل أن المستصوب أن تتفاوت درجات هذا الأمن تبعا لاحتياجات مختلف الفئات . والسجون المفتوحة الأبواب ، بسبب كونها لا تقيم حواجز أمن مادية تحول دون الهرب ،بل تعتمد في ذلك على انضباط السجين نفسه ، توفر ، في حالة انتقاء السجناء المرشحين لهذه التجربة بعناية ، أفضل الظروف مواتاة لإعادة تأهيلهم .

٣- ويستصوب ، في حالة السجون المغلقة الأبواب ، ألا يكون عدد المسجونين في كل منها من الكثرة بحيث يعرقل إفرادية المعالجة . والرأي في بعض البلدان أنه لا ينبغي لهذا العدد في السجون المذكورة أن يتجاوز الخمسمائة، أما في السجون المفتوحة الأبواب فيجب أن يكون عدد المسجونين صغيرا بقدر المستطاع .

٤- على أنه ليس من المستصوب إقامة سجون تكون من فرط ضآلة الحجم بحيث لا يستطاع أن توفر فيها التسهيلات المناسبة .

٦٤- ولا ينتهي واجب المجتمع بإطلاق سراح السجين؛ ولذلك ينبغي أن تكون هناك هيئات حكومية أو خاصة قادرة على أن توفر للسجين الذي استرد حريته رعاية ناجعة ، تهدف إلى تخفيف مواقف العداء العفوية ضده، وتسمح بتأهيله للعودة إلى مكانه من المجتمع .

المعالجة :

٦٥- إن الهدف من معالجة المحكوم عليهم بالسجن، أو بتدبير مماثل - يحرمهم من الحرية يجب أن يكون ، بقدر ما تسمح بذلك مدة العقوبة - إكسابهم العزيمة على أن يعيشوا في ظل القانون وأن يتدبروا احتياجاتهم بجهدهم ، وجعلهم قادرين على إنفاذ هذه العزيمة . ويجب أن يخطط هذا العلاج بحيث يشجع احترامهم لذواتهم وينمي لديهم حس المسئولية.

٦٦-١- وطلبا لهذه المقاصد ، يجب أن تستخدم جميع الوسائل المناسبة ، ولا سيما الرعاية الدينية في البلدان التي يستطاع فيها ذلك ، والتعليم ، والتوجيه والتكوين على الصعيد المهني، وأساليب المساعدة الاجتماعية الأفرادية ، والنصح في مجال العمالة ، والرياضة البدنية وتنمية الشخصية ، تبعا للاحتياجات الفردية لكل سجين ، مع مراعاة تاريخه الاجتماعي والجنائي ، وقدراته ومواهبه الجسدية والذهنية ، ومزاجه الشخصي ،ومدة عقوبته ، ومستقبله بعد إطلاق سراحه .

٢- ويجب أن يتلقى مدير السجن - بصدد كل وافد على السجن محكوم عليه بعقوبة طويلة بعض الطول ، وفي أقرب موعد ممكن بعد وصوله - تقارير كاملة حول مختلف الجوانب المشار إليها في الفقرة السابقة ، يتوجب دائما أن نشمل تقريرا يضعه طبيب ، متخصص في الأمراض النفسانية إذا أمكن ، حول حالة السجين الجسدية والذهنية .

٣- توضع التقارير وغيرها من الوثائق المناسبة المتعلقة بالسجين في ملف فردي . ويجب أن يستكمل هذا الملف بكل جديد ، وأن يصنف على نحو يجعل الموظفين المسئولين قادرين على الرجوع إليه كلما طرأت حاجة إلى ذلك .

التصنيف الفئوي وإفرادية العلاج :

٦٧- تكون مقاصد التصنيف الفئوي :

(أ) أن يفصل عن الآخرين أولئك المسجونون الذين يرجح ، بسبب ماضيهم الجنائي، أو شراسة طباعهم من أن يكونوا ذوي تأثير سيئ عليهم ،

(ب) أن يصنف المسجونون في فئات ، بغية تيسير علاجهم على هدف إعادة تأهيلهم الاجتماعي.

٦٨- تستخدم لعلاج مختلف فئات المسجونين ، بقدر الإمكان ، سجون مختلفة أو أقسام مختلفة في السجن الواحد .

٦٩- يوضع من أجل كل سجين محكوم عليه بعقوبة طويلة بعض الطول ، في أقرب وقت ممكن بعد وصوله وبعد دراسة شخصيته ، برنامج علاج يتم إعداده في ضوء المعلومات المكتسبة حول احتياجاته الفردية وقدراته ومزاجه النفسي.

الامتيازات :

٧٠- تنشأ في كل سجن أنظمة امتيازات توائم مختلف فئات المسجونين ومختلف مناهج العلاج بغية تشجيع السجناء على حسن السلوك، وتنمية حس المسئولية لديهم وحفزهم على الاهتمام بعلاجهم والمؤازرة فيه .

العمل :

٧١-١- لا يجوز أن يكون العمل في السجن ذا طبيعة مؤلمة .

٢- يفرض العمل على جميع السجناء المحكوم عليهم ، تبعا للياقتهم البدنية والعقلية كما يحددها الطبيب .

٣- يوفر للسجناء عمل منتج يكفي لتشغيلهم طوال يوم العمل العادي .

٤- يكون هذا العمل إلى أقصى الحدود المستطاعة ، من نوع يصون أو يزيد قدرة السجين على تأمين عيشه بكسب شريف بعد إطلاق سراحه .

٥- يوفر تدريب مهني نافع للسجناء القادرين على الانتفاع به ، ولا سيما الشباب .

٦- تتاح للسجناء - في حدود ما يتمشى مع الاختيار المهني السليم، ومتطلبات إدارة السجن والانضباط فيه - إمكانية اختيار نوع العمل الذي يرغبون القيام به .

٧٢-١- يتم تنظيم العمل وطرائقه في السجن على نحو يقترب به بقدر الإمكان من الأعمال المماثلة خارج السجن ، بغية إعداد السجناء لظروف الحياة العملية الطبيعية .

٢- على أن مصلحة السجناء وتدريبهم المهني لا يجوز أن يصيرا خاضعين لمقصد تحقيق ربح مالي من وراء العمل في السجن.

٧٣-١ -يفضل أن تقوم إدارة السجن مباشرة، لا المقاولون الخاصون، بتشغيل مصانعه ومزارعه.

٢- حين يستخدم السجناء في أعمال لا تخضع لسلطان الإدارة ، يتوجب أن يكونوا دائما تحت إشراف موظفي السجن . وما لم يكن العمل لحساب إدارات حكومية أخري ، يتوجب على الأشخاص الذين يقدم لهم أن يدفعوا للإدارة كامل الأجر الذي يتقاضى عادة عنه ، ولكن مع مراعاة إنتاجية السجناء.

٧٤-١- تتخذ في مؤسسات السجون نفس الاحتياطات المفروضة لحماية سلامة، وصحة العمال الأحرار .

٢- تتخذ تدابير لتعويض السجناء عن إصابات العمل والأمراض المهنية ، بشروط لا تكون أقل مواتاة من تلك التي يمنحها القانون للعمال الأحرار.

٧٥-١- يحدد العدد الأقصى لساعات العمل اليومي والأسبوعي بالقانون، أو بنظام إداري ، مع مراعاة الأنظمة أو العادات المحلية المتبعة في مجال استخدام العمال الأحرار .

٢- يشترط في تحديد الساعات المذكورة أن يترك يوما للراحة الأسبوعية، ووقتا كافيا للتعليم وغيره من الأنشطة المقتضاة كجزء من علاج السجناء وإعادة تأهيلهم .

٧٦-١- يكافأ السجناء على عملهم وفقا لنظام أجور منصف .

٢- يجب أن يسمح النظام للسجناء بأن يستخدموا جزءا على الأقل من أجرهم في شراء أشياء مرخص بها لاستعمالهم الشخصي وأن يوصلوا جزءا آخر منه إلى أسرهم .

٣- ويجب أن ينص النظام أيضا على احتجاز الإدارة لجزء من الأجر بحيث يشكل كسبا مدخرا يتم تسليمه للسجين لدى إطلاق سراحه .

التعليم والترفيه :

٧٧-١- تتخذ إجراءات لمواصلة تعليم جميع السجناء القادرين على الاستفادة منه ، بما في ذلك التعليم الديني في البلدان التي يمكن فيها ذلك . ويجب أن يكون تعليم الأميين والأحداث إلزاميا ، وأن توجه إليه الإدارة عناية خاصة .

٢- يجعل تعليم السجناء ، في حدود المستطاع عمليا ، متناسقا مع نظام التعليم العام في البلد ، بحيث يكون في مقدورهم - بعد إطلاق سراحهم - أن يواصلوا الدراسة دون عناء .

٧٨- تنظم في جميع السجون ، حرصا على رفاه السجناء البدني والعقلي ، أنشطة ترويحية وثقافية .

العلاقات الاجتماعية والرعاية بعد السجن :

٧٩- تبذل عناية خاصة لصيانة وتحسين علاقات السجين بأسرته ، بقدر ما يكون ذلك في صالح كلا الطرفين .

٨٠- يوضع في الاعتبار - منذ بداية تنفيذ الحكم - مستقبل السجين بعد إطلاق سراحه ، ويشجع ويساعد على أن يواصل أو يقيم ، من العلاقات مع الأشخاص أو الهيئات خارج السجن ، كل ما من شأنه خدمة مصالح أسرته، وتيسير إعادة تأهيله الاجتماعي .

٨١-١- على الإدارات والهيئات الحكومية أو الخاصة - التي تساعد الخارجين من السجن على العودة إلى احتلال مكانهم في المجتمع - أن تسعى بقدر الإمكان لجعلهم يحصلون على الوثائق وأوراق الهوية الضرورية ، وعلى المسكن والعمل المناسبين ، وعلى ثياب لائقة تناسب المناخ والفصل ، وأن توفر لهم من الموارد ما يكفي لوصولهم إلى وجهتهم ولتأمين أسباب العيش لهم خلال الفترة التي تلي مباشرة إطلاق سراحهم ،

٢- يجب أن تتاح للممثلين الذين تعتمدهم الأجهزة المذكورة إمكانية دخول

السجن، والالتقاء بالسجناء ، ويجب أن يستشاروا بشأن مستقبل السجين منذ بداية تنفيذ عقوبته .

٣- يستصوب أن تكون أنشطة الهيئات المذكورة ممركزة أو منسقة بقدر الإمكان كيما ينتفع بجهودها على أفضل وجه .

باء – المصابون بالجنون والشذوذ العقلي :

٨٢-١- لا يجوز احتجاز الشخص في السجن إذا ظهر أنه مختل العقل ، بل يجب اتخاذ ترتيبات لنقله إلى مستشفى للأمراض العقلية بأسرع ما يمكن .

٢- يوضع المصابون بأمراض أو ظواهر شذوذ عقلية أخرى تحت المراقبة والعلاج في مصحات متخصصة تحت إدارة طبية .

٣- يوضع هؤلاء الأشخاص – طوال بقائهم في السجن – تحت إشراف طبي خاص .

٤- على الإدارة الطبية، أو النفسانية في السجون أن تكفل علاج جميع السجناء الآخرين الذين يحتاجون إلى مثل هذا العلاج .

٨٣- من المستحسن أن تتخذ ، بالاتفاق مع الأجهزة المختصة ، تدابير لمواصلة العلاج النفساني للسجين ولتقديم مساعدة اجتماعية نفسانية له بعد إطلاق سراحه عند الضرورة .

جيم – الموقوفون والمحتجزون رهن المحاكمة :

٨٤-١- في الفقرات التالية تطلق صفة (متهم) على أي شخص تم توقيفه، أو حبسه بسبب مخالفة لقانون العقوبات، ووضع في عهدة الشرطة أو السجن، ولكنه لم يحكم عليه بعد .

٢- يفترض في المتهم أنه برىء ويعامل على هذا الأساس.

٣- دون المساس بالقواعد القانونية المتعلقة بحماية الحرية الفردية أو التي تنص على الإجراءات الواجبة الاتباع إزاء المتهمين ، يجب أن يتمتع هؤلاء بنظام معاملة خاص تحدد القواعد الواردة أدناه عناصره الأساسية .

٨٥-١- يفصل المتهمون عن السجناء المحكوم عليهم .

٢- يفصل المتهمون الأحداث عن البالغين . ويجب من حيث المبدأ أن يحتجزوا في مؤسسات منفصلة .

٨٦- يوضع المتهمون في غرف نوم فردية ، ولكن رهنا بمراعاة العادات المحلية المختلفة تبعا للمناخ .

٨٧- للمتهمين - إذا رغبوا في ذلك ، في الحدود المتفقة مع حسن سير النظام في المؤسسة - أن يأكلوا ما يريدون على نفقتهم بأن يحصلوا على طعامهم من الخارج؛ إما بواسطة الإدارة أن تتكفل بإطعامهم .

٨٨-١- يسمح للمتهم بارتداء ثيابه الخاصة إذا كانت نظيفة ولائقة ،

٢- أما إذا ارتدى ثياب السجن، فيجب أن تكون هذه مختلفة عن اللباس الموحد الذي يرتديه المحكوم عليهم .

٨٩- يجب دائما أن يعطى المتهم فرصة للعمل ، ولكن لا يجوز إجباره عليه . فإذا اختار العمل وجب أن يُؤْجَرَ عليه .

٩٠- يرخص لكل متهم بأن يحصل ، على نفقته أو نفقة آخرين - وفي الحدود المتفقة مع صالح إقامة العدل، ومع أمن السجن وانتظام إدارته - على ما يشاء من الكتب والصحف وأدوات الكتابة وغيرها من وسائل قضاء الوقت .

٩١- يرخص للمتهم بأن يزوره ويعالجه طبيبه، أو طبيب أسنانه الخاص ، إذا كان لطلبه مبرر معقول، وكان قادرا على دفع النفقات المقتضاة .

٩٢- يرخص للمتهم بأن يقوم فورا بإبلاغ أسرته نبأ احتجازه ، ويعطى كل التسهيلات المعقولة للاتصال بأسرته وأصدقائه وباستقبالهم ، دون أن يكون ذلك مرهونا إلا بالقيود والرقابة الضرورية لصالح إقامة العدل، وأمن السجن وانتظام إدارته .

٩٣-١- يرخص للمتهم ، بغية الدفاع عن نفسه ، بأن يطلب تسمية محام تعينه المحكمة مجانا حين ينص القانون على هذه الإمكانية ، وبأن يتلقى زيارات محاميه إعدادا لدفاعه، وأن يسلمه تعليمات سرية .

٢- وعلى هذا القصد يحق له أن يعطى أدوات للكتابة إذا طلب ذلك . ويجوز أن تتم المقابلات بين المتهم ومحاميه على مرمى نظر الشرطي أو موظف السجن ، ولكن دون أن تكون على مرمى سمعه .

دال - السجناء المدنيون :

٩٤- في البلدان التي يجيز فيها القانون السجن من أجل الديون، أو بقرار من المحكمة في أية دعوى أخرى غير جزائية ، لا يجوز إخضاع المسجونين على هذا النحو لأية قيود، أو لأية صرامة تتجاوز ما هو ضروري لضمان عدم هربهم وللحفاظ على الأمن . ويجب ألا تكون معاملتهم أقل يسرا من تلك الممنوحة للسجناء غير المحاكمين باستثناء أنه يمكن إجبارهم على العمل .

٩٥- دون الإخلال بأحكام المادة ٩ من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية يتمتع الأشخاص الموقوفون أو المحتجزون دون أن توجه إليهم تهمة بذات الحماية التي يضمنها الجزء الأول والفرع " جيم " من الجزء الثاني) كذلك تنطبق عليهم الأحكام المناسبة من "الفرع" ألف " من الجزء الثاني" حيثما كان من الممكن أن يعود تطبيقها بالفائدة على هذه الفئة الخاصة من المحتجزين ، شريطة ألا يتخذ أي تدبير يفترض ضمنا أن إعادة التعليم، أو إعادة التأهيل يمكن على أي نحو أن يكونا مناسبين لأشخاص لم يدانوا بأية جريمة جزائية .

*****

(٢)

"مجموعة المبادئ المتعلقة بحماية جميع الأشخاص الذين يتعرضون لأي شكل من أشكال الاحتجاز أو السجن"

اعتمدت ونشرت على الملأ بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ١٧٣/٤٣ المؤرخ في ٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٨

نطاق مجموعة المبادئ :

تطبق هذه المبادئ لحماية جميع الأشخاص الذين يتعرضون لأي شكل من أشكال الاحتجاز، أو السجن.

المصطلحات المستخدمة في مجموعة المبادئ

(أ) يعنى "القبض" اعتقال شخص بدعوى ارتكابه لجريمة، أو بإجراء من سلطة مّا.

(ب) يعنى "الشخص المحتجز" أي شخص محروم من الحرية الشخصية، ما لم يكن ذلك لإدانته في جريمة.

(ج) يعنى "الشخص المسجون" أي شخص محروم من الحرية الشخصية لإدانته في جريمة.

(د) يعنى "الاحتجاز" حالة الأشخاص المحتجزين حسب تعريفهم الوارد أعلاه.

(هـ) يعنى "السجن" حالة الأشخاص المسجونين حسب تعريفهم الوارد أعلاه.

(و) يقصد بعبارة "سلطة قضائية أو سلطة أخرى" أي سلطة قضائية، أو سلطة أخرى.

يحددها القانون، ويوفر مركزها، وفترة ولايتها أقوى الضمانات الممكنة للكفاءة والتزاهة والاستقلال.

المبدأ ١ :

يعامل جميع الأشخاص الذين يتعرضون لأي شكل من أشكال الاحتجاز أو السجن معاملة إنسانية، وباحترام لكرامة الشخص الإنساني الأصيلة.

المبدأ ٢ :

لا يجوز إلقاء القبض أو الاحتجاز أو السجن إلا مع التقيد الصارم بأحكام القانون، وعلى يد موظفين مختصين، أو أشخاص مرخص لهم بذلك.

المبدأ ٣ :

لا يجوز تقييد أو انتقاص أي حق من حقوق الإنسان التي يتمتع بها الأشخاص الذين يتعرضون لأي شكل من أشكال الاحتجاز، أو السجن، والتي تكون معترفا بها، أو موجودة في أية دولة بموجب القانون أو الاتفاقيات أو اللوائح أو الأعراف، بحجة أن مجموعة المبادئ هذه لا تعترف بهذه الحقوق أو تعترف بها بدرجة أقل.

المبدأ ٤ :

لا يتم أي شكل من أشكال الاحتجاز أو السجن، ولا يتخذ أي تدبير يمس حقوق الإنسان التي يتمتع بها أي شخص يتعرض لأي شكل من أشكال الاحتجاز أو السجن إلا إذا كان ذلك بأمر من سلطة قضائية أو سلطة أخرى، أو كان خاضعا لرقابتها الفعلية.

المبدأ ٥ :

١. تطبق هذه المبادئ على جميع الأشخاص داخل أرض أية دولة معينة، دون تمييز من أي نوع، كالتمييز على أساس العنصر، أو اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو الدين أو المعتقد الديني، أو الرأي السياسي، أو غير السياسي، أو الأصل الوطني، أو العرقي، أو الاجتماعي، أو الملكية، أو المولد، أو أي مركز آخر.

٢. لا تعتبر من قبيل التمييز التدابير التي تطبق بحكم القانون، والتي لا تستهدف سوى حماية الحقوق، والأوضاع الخاصة للنساء، ولا سيما

الحوامل والأمهات والمرضعات، أو الأطفال والأحداث، أو المسنين أو المرضى أو المعوقين. وتكون ضرورة هذه التدابير وتطبيقها خاضعين دائما للمراجعة من جانب سلطة قضائية، أو سلطة أخرى.

المبدأ ٦ :

لا يجوز إخضاع أي شخص يتعرض لأي شكل من أشكال الاحتجاز، أو السجن للتعذيب، أو غيره من ضروب المعاملة، أو العقوبة القاسية، أو اللاإنسانية أو المهنية. ولا يجوز الاحتجاج بأي ظرف كان كمبرر للتعذيب، أو غيره من ضروب المعاملة، أو العقوبة القاسية أو اللاإنسانية أو المهنية.

المبدأ ٧

١. ينبغي للدول أن تحظر قانونا أي فعل يتنافي مع الحقوق والواجبات الواردة في هذه المبادئ، وأن تخضع ارتكاب أي فعل من هذه الأفعال لجزاءات مناسبة، وأن تجرى تحقيقات محايدة عند ورود أية شكاوى.

٢. على الموظفين، الذين يكون لديهم سبب للاعتقاد بأن انتهاكا لهذه المجموعة من المبادئ قد حدث، أو على وشك أن يحدث، إبلاغ الأمر إلى السلطات العليا التي يتبعونها وإبلاغه، عند الاقتضاء، إلى السلطات، أو الأجهزة المناسبة الأخرى المخولة سلطة المراجعة أو الإنصاف.

٣. لأي شخص – آخر لديه سبب للاعتقاد بأن انتهاكا لمجموعة المبادئ قد حدث، أو على وَشْك أن يحدث – الحق في أن يبلغ الأمر إلى رؤساء الموظفين المعنيين، وإلى السلطات، أو الأجهزة المناسبة الأخرى المخولة سلطة المراجعة أو الإنصاف.

المبدأ ٨

يعامل الأشخاص المحتجزون معاملة تتناسب مع وضعهم كأشخاص غير مدانين. وعلى هذا، يتعين الفصل بينهم وبين السجناء، كلما أمكن ذلك.

المبدأ ٩

لا يجوز للسلطات التي تلقى القبض على شخص، أو تحتجزه، أو تحقق في القضية أن تمارس صلاحيات غير الصلاحيات الممنوحة لها بموجب القانون، ويجوز التظلم من ممارسة تلك الصلاحيات أمام سلطة قضائية، أو سلطة أخرى.

المبدأ ١٠

يبلغ أي شخص يقبض عليه، وقت إلقاء القبض، بسبب ذلك، ويبلغ على وجه السرعة بأية تهم تكون موجهة إليه.

المبدأ ١١

١. لا يجوز استبقاء شخص محتجز دون أن تتاح له فرصة حقيقية للإدلاء بأقواله في أقرب وقت أمام سلطة قضائية أو سلطة أخرى. ويكون للشخص المحتجز الحق في أن يدافع عن نفسه، أو أن يحصل على مساعدة محام بالطريقة التي يحددها القانون.

٢. تعطى - على وجه السرعة - للشخص المحتجز ومحاميه، إن كان له محام، معلومات كاملة عن أي أمر بالاحتجاز وعن أسبابه.

٣. تكون لسلطة قضائية، أو سلطة أخرى صلاحية إعادة النظر حسب الاقتضاء في استمرار الاحتجاز.

المبدأ ١٢

١- تسجل حسب الأصول:

أ) أسباب القبض.

ب) وقت القبض، ووقت اقتياد الشخص المقبوض عليه إلى مكان الحجز، وكذلك وقت مثوله لأول مرة أمام سلطة قضائية، أو سلطة أخرى.

ج) هوية موظفي إنفاذ القوانين المعنيين،

د) المعلومات الدقيقة المتعلقة بمكان الحجز.

٢- تبلغ هذه المعلومات إلى الشخص المحتجز أو محاميه، إن وجد، بالشكل الذي يقرره القانون.

المبدأ ١٣ :

تقوم السلطة المسئولة عن إلقاء القبض أو الاحتجاز أو السجن على التوالي، بتزويد الشخص لحظة القبض عليه، وعند بدء الاحتجاز أو السجن أو بعدهما مباشرة، بمعلومات عن حقوقه وبتفسير لهذه الحقوق، وكيفية استعمالها.

المبدأ ١٤ :

لكل شخص - لا يفهم أو يتكلم على نحو كاف اللغة التي تستخدمها السلطات المسئولة عن القبض عليه، أو احتجازه، أو سجنه - الحق في أن يبلغ، على وجه السرعة، وبلغة يفهمها، المعلومات المشار إليها في (المبدأ ١٠ والفقرة ٢ من المبدأ ١١ والفقرة ١ من المبدأ ١٢ والمبدأ ١٣) وفى أن يحصل دون مقابل عند الضرورة على مساعدة مترجم شفوي فيما يتصل بالإجراءات القانونية التي تلي القبض عليه.

المبدأ ١٥ :

بصرف النظر عن الاستثناءات الواردة في (الفقرة ٤ من المبدأ ١٦ والفقرة ٣ من المبدأ ١٨) لا يجوز حرمان الشخص المحتجز، أو المسجون من الاتصال بالعالم الخارجي، وخاصة بأسرته، أو محاميه، لفترة تزيد عن أيام.

المبدأ ١٦ :

١- يكون للشخص المحتجز أو المسجون - بعد إلقاء القبض عليه مباشرة، وبعد كل مرة ينقل فيها من مكان احتجاز، أو من سجن إلى آخر- الحق في أن يخطر، أو يطلب من السلطة المختصة أن تخطر أفرادا من أسرته أو أشخاصا مناسبين آخرين يختارهم، بالقبض عليه، أو احتجازه، أو سجنه أو بنقله، وبالمكان الذي هو محتجز فيه.

٢- إذا كان الشخص المحتجز أو المسجون أجنبيا، يتم أيضا تعريفه فورا بحقه في أن يتصل بالوسائل الملائمة بأحد المراكز القنصلية، أو بالبعثة

الدبلوماسية للدولة التي يكون من رعاياها، أو التي يحق لها بوجه آخر تلقى هذا الاتصال طبقـــا للقانون الدولي، أو بممثل المنظمة الدولية المختصة، إذا كان لاجئا، أو كان على أي وجه آخر مشمولا بحماية منظمة حكوميـــة دولية.

٣- إذا كان الشخص المحتجز، أو المسجون حدثـــا، أو غير قادر على فهـــم حقه، تتولى السلطة المختصة من تلقاء ذاتها القيام بالإخطار المشار إليـــه في هذا المبدأ. ويولى اهتمام خاص لإخطار الوالدين أو الأوصياء.

٤- يتم أي إخطار مشار إليه في هذا المبدأ، أو يسمح بإتمامه دون تأخير، غير أنه يجوز للسلطة المختصة أن ترجئ الإخطار لفترة معقولة عندما تقتضـــي ذلك ضرورات استثنائية في التحقيق.

المبدأ ١٧ :

١- يحق للشخص المحتجز أن يحصل على مساعدة محـــام. وتقـــوم الســـلطة المختصة بإبلاغه بحقه هذا فور إلقاء القبض عليه، وتوفر لـــه التســـهيلات المعقولة لممارسته.

٢- إذا لم يكن للشخص المحتجز محام اختاره بنفسه، يكون له الحق في محـــام تعينه له سلطة قضائية، أو سلطة أخرى في جميع الحالات التي تقتضي فيها مصلحة العدالة ذلك، ودون أن يدفع شيئا إذا كان لا يملك موارد كافيـــة للدفع.

المبدأ ١٨:

١- يحق للشخص المحتجز أو المسجون أن يتصل بمحاميه، وأن يتشاور معه.

٢- يتاح للشخص المحتجز، أو المسجون الوقت الكافي والتسهيلات الكافيـــة للتشاور مع محاميه.

٣- لا يجوز وقف، أو تقييد حق الشخص المحتجز أو المسجون في أن يـــزوره محاميه، وفى أن يستشير محاميه ويتصل به، دون تأخير أو مراقبـــة وبســـرية كاملة، إلا في ظروف استثنائية يحددها القانون أو اللوائح القانونية، عندما

تعتبر سلطة قضائية أو سلطة أخرى ذلك أمرا لا مفر منه للمحافظة على الأمن وحسن النظام.

٤- يجوز أن تكون المقابلات بين الشخص المحتجز أو المسجون ومحاميه على مرأى من أحد موظفي إنفاذ القوانين، ولكن لا يجوز أن تكون على مسمع منه.

٥- لا تكون الاتصالات بين الشخص المحتجز، أو المسجون ومحاميه المشار إليها في هذا المبدأ مقبولة كدليل ضد الشخص المحتجز، أو المسجون ما لم تكن ذات صلة بجريمة مستمرة، أو بجريمة تدبر.

المبدأ ١٩ :

يكون للشخص المحتجز أو المسجون الحق في أن يزوره أفراد أسرته بصورة خاصة وفى أن يتراسل معهم. وتتاح له فرصة كافية للاتصال بالعالم الخارجي، رهنا بمراعاة الشروط والقيود المعقولة التي يحددها القانون أو اللوائح القانونية.

المبدأ ٢٠ :

يوضع الشخص المحتجز أو المسجون - إذا طلب وكان مطلبه ممكنا - في مكان احتجاز أو سجن قريب على نحو معقول من محل إقامته المعتاد.

المبدأ ٢١ :

١- يحظر استغلال حالة الشخص المحتجز أو المسجون استغلالاً غير لائق بغرض انتزاع اعتراف منه، أو إرغامه على تجريم نفسه بأية طريقة أخرى، أو الشهادة ضد أي شخص آخر.

٢- لا يعرض أي شخص أثناء استجوابه للعنف أو التهديد، أو لأساليب استجواب تنال من قدرته على اتخاذ القرارات أو من حكمه على الأمور.

المبدأ ٢٢ :

لا يكون أي شخص محتجز أو مسجون - حتى برضاه - عرضة لأن تجرى عليه أية تجارب طبية أو علمية قد تكون ضارة بصحته.

المبدأ ٢٣ :

١- تسجل وتعتمد بالطريقة التي يحددها القانون مدة أي استجواب لشخص محتجز أو مسجون، والفترات الفاصلة بين الاستجوابات، وكذلك هوية الموظفين الذين يجرون الاستجوابات، وغيرهم من الحاضرين.

٢- يتاح للشخص المحتجز أو المسجون، أو لمحاميه إذا ما نص القانون على ذلك، الاطلاع على المعلومات المذكورة في (الفقرة ١) من هذا المبدأ.

المبدأ ٢٤ :

تتاح لكل شخص محتجز أو مسجون فرصة إجراء فحص طبي مناسب في أقصر مدة ممكنة عقب إدخاله مكان الاحتجاز أو السجن، وتوفر له بعد ذلك الرعاية الطبية والعلاج كلما دعت الحاجة. وتوفر هذه الرعاية وهذا العلاج بالمجان.

المبدأ ٢٥ :

يكون للشخص المحتجز أو المسجون أو لمحاميه الحق في أن يطلب، أو يلتمس من سلطة قضائية، أو سلطة أخرى أن يوقع الفحص الطبي عليه مرة ثانية، أو أن يحصل على رأى طبي ثان، ولا يخضع ذلك إلا لشروط معقولة تتعلق بكفالة الأمن، وحسن النظام في مكان الاحتجاز، أو السجن.

المبدأ ٢٦ :

تسجل على النحو الواجب واقعة إجراء الفحص الطبي للشخص المحتجز، أو المسجون، واسم الطبيب، ونتائج هذا الفحص. ويكفل الاطلاع على هذه السجلات. وتكون الوسائل المتبعة في ذلك متفقة مع قواعد القانون المحلي ذات الصلة.

المبدأ ٢٧ :

يؤخذ في الاعتبار عدم التقيد بهذه المبادئ في الحصول على الدليل لدى البت في جواز قبول ذلك الدليل ضد شخص محتجز أو مسجون.

المبدأ ٢٨ :

يكون للشخص المحتجز أو المسجون الحق في الحصول - في حدود الموارد المتاحة، إذا كانت من مصادر عامة - على كميات معقولة من الموارد التعليمية والثقافية والإعلامية، مع مراعاة الشروط المعقولة المتعلقة بكفالة الأمن، وحسن النظام في مكان الاحتجاز، أو السجن.

المبدأ ٢٩ :

١- لمراقبة مدى دقة التقيد بالقوانين والأنظمة ذات الصلة، يقوم بتفقد أماكن الاحتجاز بصفة منتظمة أشخاص مؤهلون ومتمرسون تعينهم، وتسألهم سلطة مختصة مستقلة تماما عن السلطة التي تتولى مباشرة إدارة مكان الاحتجاز أو السجن.

٢- يحق للشخص المحتجز أو المسجون الاتصال بحرية، وفى سرية تامة بالأشخاص الذين يتفقدون أماكن الاحتجاز، أو السجن وفقا (للفقرة: ١) مع مراعاة الشروط المعقولة المتعلقة بكفالة الأمن وحسن النظام في تلك الأماكن.

المبدأ ٣٠ :

١- يحدد القانون أو اللوائح القانونية أنواع سلوك الشخص المحتجز أو المسجون التي تشكل جرائم تستوجب التأديب أثناء الاحتجاز أو السجن، ووصف العقوبة التأديبية التي يجوز توقيعها ومدهّا، والسلطات المختصة بتوقيع تلك العقوبة، ويتم نشر ذلك على النحو الواجب.

٢- يكون للشخص المحتجز، أو المسجون الحق في أن تسمع أقواله قبل اتخاذ الإجراء التأديبي. ويحق له رفع هذا الإجراء إلى سلطات أعلى لمراجعته.

المبدأ ٣١ :

تسعى السلطات المختصة إلى أن تكفل - وفقا للقانون المحلي - تقديم المساعدة عند الحاجة إلى المُعالين، وخاصة القُصّر، من أفراد أسر الأشخاص المحتجزين أو المسجونين، وتولى تلك السلطات قدرا خاصا من العناية لتوفير الرعاية المناسبة للأطفال الذين تركوا دون إشراف.

المبدأ ٣٢ :

١- يحق للشخص المحتجز أو محاميه في أي وقت أن يُقيم - وفقا للقانون المحلى - دعوى أمام سلطة قضائية أو سلطة أخرى للطعن في قانونية احتجازه بغية الحصول على أمر بإطلاق سراحه دون تأخير، إذا كان احتجازه غير قانوني.

٢- تكون الدعوى المشار إليها في (الفقرة ١) بسيطة وعاجلة ودون تكاليف بالنسبة للأشخاص المحتجزين الذين لا يملكون إمكانات كافية. وعلى السلطة التي تحتجز الشخص إحضاره دون تأخير لا مبرر له أمام السلطة التي تتولى المراجعة.

المبدأ ٣٣ :

١- يحق للشخص المحتجز أو المسجون أو لمحاميه تقديم طلب، أو شكوى بشأن معاملته، ولا سيما في حالة التعذيب أو غيره من ضروب المعاملة القاسية، أو اللاإنسانية أو المهينة. إلى السلطات المسئولة عن إدارة مكان الاحتجاز، وإلى السلطات الأعلى، وعند الاقتضاء إلى السلطات المناسبة المنوطة بها صلاحيات المراجعة أو الإنصاف.

٢- في الحالات التي لا يكون فيها الشخص المحتجز، أو المسجون، أو محاميه قادرا على ممارسة حقوقه المقررة في الفقرة ١، يجوز لأحد أفراد أسرة الشخص المحتجز أو المسجون أو لأي شخص آخر على معرفة بالقضية أن يمارس هذه الحقوق.

٣- يحتفظ بسرية الطلب أو الشكوى إذا طلب الشاكي ذلك.

٤- يبت على وجه السرعة في كل طلب، أو شكوى، ويرد عليه، أو عليها دون تأخير لا مبرر له. وفى حالة رفض الطلب، أو الشكوى، أو وقوع تأخير مفرط، يحق للشاكي عرض ذلك على سلطة قضائية، أو سلطة أخرى. ولا يتعرض المحتجز أو المسجون أو أي شاك بموجب (الفقرة ١) للضرر نتيجة لتقديمه طلبا أو شكوى.

المبدأ ٣٤ :

إذا توفى شخص محتجز أو مسجون، أو اختفى أثناء احتجازه أو سجنه، تقوم سلطة قضائية، أو سلطة أخرى بالتحقيق في سبب الوفاة أو الاختفاء، سواء من تلقاء نفسها، أو بناء على طلب من أحد أفراد أسرة ذلك الشخص، أو من أي شخص على معرفة بالقضية. ويجرى هذا التحقيق، إذا اقتضت الظروف، على نفس الأساس الإجرائي إذا حدثت الوفاة، أو وحدث الاختفاء عقب انتهاء الاحتجاز، أو السجن بفترة وجيزة. وتتاح عند الطلب نتائج هذا التحقيق، أو تقرير عنه ما لم يعرض ذلك للخطر تحقيقا جنائيا جاريا.

المبدأ ٣٥ :

١- يعوض، وفقا للقواعد المطبقة بشأن المسئولية والمنصوص عليها في القانون المحلى، عن الضرر الناتج عن أفعال لموظف عام تتنافى مع الحقوق الواردة في هذه المبادئ، أو عن امتناعه عن أفعال يتنافى امتناعه عنها مع هذه الحقوق.

٢- تتاح البيانات المطلوب تسجيلها بموجب هذه المبادئ وفقا للإجراءات التي ينص القانون المحلى على اتباعها عند المطالبة بالتعويض بموجب هذا المبدأ.

المبدأ ٣٦ :

١- يعتبر الشخص المحتجز المشتبه في ارتكابه جريمة جنائية، أو المتهم بذلك بريئا، ويعامل على هذا الأساس إلى أن تثبت إدانته وفقا للقانون في محاكمة علنية تتوافر فيها جميع الضمانات الضرورية للدفاع عنه.

٢- لا يجوز القبض على هذا الشخص أو احتجازه على ذمة التحقيق والمحاكمة إلا لأغراض إقامة العدل وفقا للأسس والشروط، والإجراءات التي ينص عليها القانون. ويحظر فرض قيود على هذا الشخص لا تقتضيها مطلقا أغراض الاحتجاز، أو دواعي منع عرقلة عملية التحقيق، أو إقامة العدل، أو حفظ الأمن وحسن النظام في مكان الاحتجاز.

المبدأ ٣٧ :

يحضر الشخص المحتجز المتهم بتهمة جنائية أمام سلطة قضائية، أو سلطة أخرى، ينص عليها القانون، وذلك على وجه السرعة عقب القبض عليه.

وتبت هذه السلطة دون تأخير في قانونية وضرورة الاحتجاز، ولا يجوز إبقاء أي شخص محتجزا على ذمة التحقيق أو المحاكمة إلا بناء على أمر مكتوب من هذه السلطة. ويكون للشخص المحتجز الحق، عند مثوله أمام هذه السلطة، في الإدلاء بأقوال بشأن المعاملة التي لقيها أثناء احتجازه.

المبدأ ٣٨ :

يكون للشخص المحتجز بتهمة جنائية الحق في أن يحاكم خلال مدة معقولة أو أن يفرج عنه رهن محاكمته.

المبدأ ٣٩ :

باستثناء الحالات الخاصة التي ينص عليها القانون، يحق للشخص المحتجز بتهمة جنائية، ما لم تقرر خلاف ذلك سلطة قضائية، أو سلطة أخرى لصالح إقامة العدل، أن يطلق سراحه إلى حين محاكمته رهنا بالشروط التي يجوز فرضها وفقا للقانون. وتظل ضرورة هذا الاحتجاز محل مراجعة من جانب هذه السلطة.

حكم عام :

ليس في مجموعة المبادئ هذه ما يفسر على أنه تقييد، أو حد من أي حق من الحقوق التي حددها العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية.

*****

(٣)

"المبادئ الأساسية لمعاملة السجناء"

اعتمدت وأعلنت بقرار الجمعية العامة ١١١/٤٥ المؤرخ في ١٤ كانون الأول ١٩٩٠

١- يعامل كل السجناء بما يلزم من الاحترام لكرامتهم المتأصلة، وقيمتهم كبشر.

٢- لا يجوز التمييز بين السجناء على أساس العنصر، أو اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو الدين أو الرأي السياسي، أو غير السياسي، أو الأصل القومي، أو الاجتماعي، أو الثورة، أو المولد أو أي وضع آخر.

٣- من المستحب، مع هذا، احترام المعتقدات الدينية، والمبادئ الثقافية للفئة التي ينتمي إليها السجناء، متى اقتضت الظروف المحلية ذلك.

٤- تضطلع السجون بمسئوليتها عن حبس السجناء، وحماية المجتمع من الجريمة بشكل يتوافق مع الأهداف الاجتماعية الأخرى للدولة ومسئولياتها الأساسية عن تعزيز وفاء كل أفراد المجتمع.

٥- باستثناء القيود التي من الواضح أنّ عملية السجن تقتضيها، يحتفظ كل السجناء بحقوق الإنسان والحريات الأساسية المبينة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (٥)، وحيث تكون الدولة المعنية طرفاً، في العهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية(٣٣). والعهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، وبروتوكوله الاختياري (٣٣)، وغير ذلك من الحقوق المبينة في عهود أخرى للأمم المتحدة.

٦- يحق لكل السجناء أن يشاركوا في الأنشطة الثقافية، والتربوية الرامية إلى النمو الكامل للشخصية البشرية.

٧- يضطلع بجهود لإلغاء عقوبة الحبس الانفرادي، أو للحد من استخدامها، وتشجيع تلك الجهود.

٨- ينبغي تهيئة الظروف التي تمكن السجناء من الاضطلاع بعمل مفيد مأجور ييسر إعادة انخراطهم في سوق العمل في بلدهم، ويتيح لهم أن يساهموا في التكفل بأسرهم وبأنفسهم مالياً.

٩- ينبغي أن توفر للسجناء سبل الحصول على الخدمات الصحية المتوفرة في البلد دون تمييز على أساس وضعهم القانوني.

١٠- ينبغي العمل، بمشاركة ومعاونة المجتمع المحلي والمؤسسات الاجتماعية ومع إيلاء الاعتبار الواجب لصالح الضحايا، على تهيئة الظروف المواتية لإعادة إدماج السجناء المطلق سراحهم في المجتمع في ظل أحسن الظروف الممكنة.

١١- تطبيق المبادئ المذكورة أعلاه بكل تجرد.

* * * * *

(٤)

"قواعد الأمم المتحدة بشأن حماية الأحداث المجردين من حريتهم"

أوصى باعتمادها مؤتمر الأمم المتحدة الثامن لمنع الجريمة ومعاملة المجرمين المعقود في هافانا من ٢٧ آب/أغسطس إلى ٧ أيلول/سبتمبر ١٩٩٠
كما اعتمدت ونشرت على الملأ بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ١١٣/٤٥ المؤرخ في ١٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٠

أولا : منظورات أساسية :

١- ينبغي أن يساند نظام قضاء الأحداث حقوق الأحداث وسلامتهم، ويعزز خيرهم المادي واستقرارهم العقلي. وينبغي عدم اللجوء إلى السجن إلا كملاذ أخير .

٢- وينبغي عدم تجريد الأحداث من حريتهم إلا وفقا للمبادئ والإجراءات الواردة في هذه القواعد، وفى قواعد الأمم المتحدة الدنيا النموذجية لإدارة شئون قضاء الأحداث (قواعد بكين). وينبغي ألا يجرد الحدث من حريته إلا كملاذ أخير، ولأقصر فترة لازمة، ويجب أن يقتصر ذلك على الحالات الاستثنائية. وينبغي للسلطة القضائية أن تقرر طول فترة العقوبة دون استبعاد إمكانية التبكير بإطلاق سراح الحدث .

٣- والهدف من القواعد هو إرساء معايير دنيا مقبولة من الأمم المتحدة لحماية الأحداث المجردين من حريتهم، بأي شكل من الأشكال، وفقا لحقوق الإنسان والحريات الأساسية، توخيا لمجابهة الآثار الضارة لكل أنواع الاحتجاز، ولتعزيز الاندماج في المجتمع .

٤- ويتعين تطبيق القواعد بنزاهة على جميع الأحداث، دون أي تمييز من حيث العنصر، أو اللون، أو الجنس، أو العمر، أو اللغة، أو الدين، أو الجنسية، أو الرأي السياسي، أو غير السياسي، أو المعتقدات، أو الممارسات الثقافية، أو الممتلكات، أو المولد، أو الوضع العائلي، أو الأصل العرقي أو

الاجتماعي، أو العجز. ويتعين احترام المعتقدات والممارسات الدينية والثقافية للحدث ومفاهيمه الأخلاقية .

٥- وقد نظمت القواعد بحيث تكون معايير مرجعية سهلة التناول، وتقدم التشجيع والإرشاد للمهنيين العاملين في مجال تدبير شؤون نظام قضاء الأحداث .

٦- ويتعين جعل هذه القواعد ميسورة المنال للعاملين في مجال قضاء الأحداث بلغاتهم الوطنية. ويحق للأحداث غير المتمكنين من اللغة التي يتكلم بها موظفو مرفق الاحتجاز، أن يحصلوا على خدمات مترجم شفوي، حيثما يلزم ذلك، دون مقابل، وخصوصا أثناء الفحوص الطبية والإجراءات التأديبية .

٧- وعلى الدول، عند الاقتضاء، أن تدرج هذه القواعد في تشريعاتها، أو أن تعدل تشريعاتها وفقا لها، وأن تهيئ سبل انتصاف فعالة في حالة خرقها، بما في ذلك دفع التعويضات عندما يلحق الأذى بالأحداث. وعلى الدول أيضا أن تراقب تطبيق هذه القواعد .

٨- وعلى السلطات المختصة أن تسعى دائما إلى زيادة وعى الجمهور بأن رعاية الأحداث المحتجزين وتهيئتهم للعودة إلى المجتمع، يشكلان خدمة اجتماعية بالغة الأهمية، وتحقيقا لهذا الغرض ينبغي اتخاذ خطوات فعالة لإيجاد اتصالات مفتوحة بين الأحداث والمجتمع المحلي .

٩- ولا يجوز تأويل أي من هذه القواعد على أنه يستبعد تطبيق صكوك ومعايير الأمم المتحدة والصكوك والمعايير الخاصة بحقوق الإنسان التي يعترف بها المجتمع الدولي، والتي تكون أكثر إفضاء إلى كفالة حقوق الأحداث والأطفال وجميع الشباب، وإلى كفالة رعايتهم وحمايتهم .

١٠- وفى حالة تعارض التطبيق العملي لبنود معينة من القواعد الواردة في الفروع الثاني إلى الخامس مع القواعد الواردة في هذا الفرع يعتبر الامتثال للقواعد الأخيرة هو الشرط الغالب .

ثانيا: نطاق القواعد وتطبيقها :

١١- لأغراض هذه القواعد تنطبق التعاريف التالية :

أ) الحدث هو كل شخص دون الثامنة عشرة من العمر. ويحدد القانون السن التي ينبغي دونها عدم السماح بتجريد الطفل من حريته أو الطفلة من حريتها.

ب) يعني التجريد من الحرية أي شكل من أشكال الاحتجاز أو السجن، أو وضع الشخص في إطار احتجازي عام أو خاص لا يسمح له بمغادرته وفق إرادته، وذلك بناء على أمر تصدره أي سلطة قضائية أو إدارية، أو سلطة عامة أخرى .

١٢- يجرى التجريد من الحرية في أوضاع، وظروف تكفل احترامَ مَا للأحداث من حقوق الإنسان. ويؤمِّن للأحداث المحتجزين الانتفاع في مرافق الاحتجاز بأنشطة وبرامج مفيدة غايتها تعزيز وصون صحتهم واحترامهم لذاتهم، وتقوية حسهم بالمسئولية، وتشجيع المواقف والمهارات التي تساعدهم على تنمية قدراتهم الكامنة بوصفهم أعضاء في المجتمع .

١٣- لا يحرم الأحداث المجردون من حريتهم، لأي سبب يتعلق بوضعهم هذا، من الحقوق المدنية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية التي يخولهم إياها القانون الوطني، أو الدولي، والتي لا تتعارض مع التجريد من الحرية .

١٤- تؤمن السلطة المختصة حماية الحقوق الفردية للأحداث، مع إيلاء اعتبار خاص لقانونية تنفيذ تدابير الاحتجاز، على أن تؤمن أهداف الإدماج الاجتماعي - بعمليات تفتيش منتظمة، ووسائل مراقبة أخرى تضطلع بها، وفقا للمعايير الدولية والقوانين والأنظمة الوطنية - هيئة مشكلة وفقا للأصول، ومأذون لها بزيارة الأحداث وغير تابعة لمرفق الاحتجاز .

١٥- تنطبق هذه القواعد على كل أنواع وأشكال مرافق الاحتجاز التي يجرد فيها الأحداث من حريتهم، وتنطبق الفروع: الأول والثاني والرابع والخامس من القواعد على كل مرافق الاحتجاز والأطر المؤسسية التي

يحتجز الأحداث فيها، بينما يطبق الفرع الثالث على وجه التحديد على الأحداث المقبوض عليهم، أو الذين ينتظرون المحاكمة .

١٦- تنفذ هذه القواعد في سياق الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية السائدة في كل من الدول الأعضاء .

ثالثا : الأحداث المقبوض عليهم، أو الذين ينتظرون المحاكمة :

١٧- يفترض أن الأحداث المقبوض عليهم، أو الذين ينتظرون المحاكمة (الذين لم يحاكموا بعد) أبرياء، ويحاكمون على هذا الأساس، ويجتنب، ما أمكن، احتجازهم قبل المحاكمة، ويقصر ذلك على الظروف الاستثنائية. ولذلك يبذل قصارى الجهد لتطبيق تدابير بديلة. ولكن إذا استخدم الاحتجاز الوقائي، تعطى محاكم الأحداث، وهيئات التحقيق أولوية عليا للتعجيل إلى أقصى حد بالبت في هذه القضايا لضمان أقصر فترة ممكنة للاحتجاز. ويفصل بين الأحداث المحتجزين الذين لم يحاكموا، والذين أدينوا .

١٨- ينبغي أن تكون الشروط التي يحتجز بموجبها الحدث الذي لم يحاكم بعد متفقة مع القواعد المبينة أدناه، مع ما يلزم ويناسب من أحكام إضافية محددة تراعى فيها متطلبات افتراض البراءة، ومدة الاحتجاز، والأوضاع والظروف القانونية للحدث .

ويمكن لهذه الأحكام أن تشمل ما يلي، ولكن ليس على سبيل الحصر :

أ) يكون للأحداث الحق في الحصول على المشورة القانونية، وفي التقدم بطلب عون قانوني مجاني، حيثما يتوفر هذا العون، والاتصال بانتظام بالمستشار القانوني، ويضمن لهذا الاتصال الخصوصية والسرية،

ب) تتاح للأحداث حيثما أمكن، فرص التماس العمل لقاء أجر، ومتابعة التعليم أو التدريب، ولكن لا يجوز إلزامهم بذلك. وينبغي ألا يتسبب العمل أو التعليم أو التدريب، بأي حال في استمرار الاحتجاز،

ج) يتلقى الأحداث المواد اللازمة لقضاء وقت الفراغ أو الترفيه ويحتفظون بها، حسبما يتفق وصالح إقامة العدل .

رابعا : إدارة مرافق الأحداث :

(ألف) السجلات :

١٩- توضع كل التقارير بما في ذلك السجلات القانونية، والسجلات الطبية، وسجلات الإجراءات التأديبية، وكل الوثائق الأخرى المتصلة بشكل العلاج ومحتواه وتفاصيله، في ملف إفرادي سري يجرى استيفاؤه بما يستجد، ولا يتاح الاطلاع عليه إلا للأشخاص المأذونين، ويصنف بطريقة تجعله سهل الفهم. ويكون لكل حدث حق الاعتراض، حيثما أمكن، على أي واقعة أو رأى وارد في ملفه، بحيث يتاح تصويب البيانات غير الدقيقة، أو التي لا سند لها، أو المجحفة بحقه. ومن أجل ممارسته لهذا الحق، يتعين وجود إجراءات تسمح لطرف ثالث مناسب بالاطلاع على الملف عند الطلب. وتختم ملفات الأحداث عندما يطلق سراحهم، ثم تعدم في الوقت المناسب .

٢٠- لا يستقبل أي حدث في مؤسسة احتجازية، دون أمر احتجاز صحيح صادر من سلطة قضائية أو إدارية، أو أي سلطة عامة أخرى. وتدون تفاصيل هذا الأمر في السجل فورا. ولا يحتجز حدث في أي مؤسسة، أو مرفق ليس فيه مثل هذا السجل .

(باء) الإدخال إلى المؤسسة، والتسجيل والحركة والنقل :

٢١- يحتفظ في كل مكان يحتجز فيه الأحداث بسجل كامل، ومأمون يتضمن المعلومات التالية عن كل حدث يستقبل فيه :

أ) المعلومات المتعلقة بهوية الحدث.

ب) واقعة الاحتجاز وسببه والسند الذي يخوله.

ج) يوم وساعة الإدخال، والنقل والإفراج.

د) تفاصيل الإشعارات المرسلة إلى الوالدين، أو أولياء الأمر بشأن كل حالة إدخال، أو نقل أو إفراج يتصل بالحدث الذي كان في رعايتهم وقت الاحتجاز.

هـ) تفاصيل المشاكل المعروفة المتصلة بالصحة البدنية والعقلية، بما في ذلك إساءة استعمال المخدرات والكحول .

٢٢- تقدم المعلومات المتصلة بالإدخال والمكان والنقل والإفراج، دون إبطاء إلي والدي الحدث المعني، أو أولياء أمره، أو أقرب قريب له .

٢٣- توضع في أقرب فرصة تلي الاستقبال تقارير كاملة، ومعلومات ملائمة فيما يتصل بأحوال كل حدث، وظروفه الشخصية، وتقدم إلى الإدارة .

٢٤- يعطى كل الأحداث عند إدخالهم إلى المؤسسة، وبلغة يفهمونها، نسخا من نظام المؤسسة وبيانا خطيا بحقوقهم وواجباقم، إلى جانب عناوين السلطات المختصة بتلقي شكاواهم، وعناوين الهيئات العامة أو الخاصة، أو الأفراد الذين يقدمون المساعدة القانونية. وإذا كان الأحداث أميين أو يتعذر عليهم فهم اللغة المكتوبة، ينبغي أن تقدم لهم المعلومات بطريقة تمكنهم من فهمها تماما .

٢٥- تقدم المساعدة إلى كل الأحداث لفهم اللوائح التي تسرى على التنظيم الداخلي للمؤسسة، وأهدف الرعاية المقدمة ومنهجيتها، والمقتضيات والإجراءات التأديبية، وسائر ما هو مرخص به من طرائق التماس المعلومات، وتقديم الشكاوى، وكل ما هنالك من المسائل الأخرى اللازمة لتمكينهم من الفهم التام لحقوقهم، وواجباقم أثناء الاحتجاز .

٢٦- ينقل الأحداث علي حساب الإدارة، في وسائط نقل ذات قموية وإضاءة ملائمتين، وفي أوضاع لا يتعرضون فيها، بأي حال، للعناء أو المهانة. ولا يجوز نقل الأحداث من مؤسسة إلي أخري تعسفا .

(جيم) التصنيف والإلحاق :

٢٧- تجرى مقابلة مع الحدث في أقرب فرصة تلي إدخاله إلى المؤسسة، ويعد تقرير نفسي واجتماعي تحدد فيه أي عوامل ذات صلة بنوع ومستوى الرعاية، والبرامج التي يحتاج الحدث إليها، ويرسل هذا التقرير إلى المدير مشفوعا بالتقرير الذي يعده الموظف الطبي الذي فحص الحدث عند إدخاله، بغية تحديد المكان الأنسب للحدث داخل المؤسسة، ونوع

ومستوى الرعاية والبرامج اللازم اتباعها. وعندما تدعو الحاجة إلى معالجة بإعادة التأهيل، ويسمح بذلك طول فترة البقاء في المؤسسة، ينبغي لموظفي المؤسسة المدربين إعداد خطة مكتوبة للمعالجة تتسم بطابع فردي، وتحدد أهداف المعالجة، وإطارها الزمني، والوسائل، والمراحل، وفترات التأخير التي ينبغي السعي بها إلى تحقيق هذه الأهداف .

٢٨- لا يحتجز الأحداث إلا في ظروف تراعى تماما احتياجاتهم الخصوصية وأوضاعهم، والمتطلبات الخاصة المتصلة بهم وفقا للعمر والشخصية والجنس، ونوع الجرم، وكذلك الصحة العقلية والبدنية، وتكفل لهم الحماية، ما أمكن، من التأثيرات الضارة، وحالات الخطر. وينبغي أن يكون المعيار الأساسي للفصل بين مختلف فئات الأحداث المجردين من حريتهم هو تقديم نوع الرعاية الأنسب لاحتياجات الأفراد المعنيين، وحماية سلامتهم البدنية والعقلية والمعنوية وخيرهم .

٢٩- يفصل، في كل المرافق، بين النزلاء الأحداث، والنزلاء البالغين ما لم يكونوا أفرادًا من ذات الأسرة. ويجوز، في ظروف خاضعة للمراقبة، الجمع بين أحداث وبالغين مختارين بعناية، ضمن برنامج خاص تبين أنه مفيد للأحداث المعنيين .

٣٠- تنشأ للأحداث مؤسسات احتجاز مفتوحة، وهي مرافق تنعدم التدابير الأمنية فيها، أو تقل. وينبغي أن يكون عدد النزلاء في هذه المؤسسات أدنى ما يمكن.وينبغي أن يكون عدد الأحداث في المؤسسات المغلقة صغيرا إلى حد يمكن من الاضطلاع بالعلاج على أساس فردى. وينبغي أن تكون مؤسسات الأحداث ذات طابع غير مركزي، وذات حجم يسهل الاتصال بينهم وبين أسرهم. وينبغي إنشاء مؤسسات صغيرة تندمج في البيئة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمجتمع المحلى .

(دال) البيئة المادية والإيواء :

٣١- للأحداث المجردين من الحرية الحق في مرافق، وخدمات تستوفى كل متطلبات الصحة والكرامة الإنسانية .

٣٢- يتعين أن يكون تصميم مؤسسات الأحداث وبيئتها المادية متوافقا مع غرض إعادة تأهيل الأحداث عن طريق علاجهم أثناء إقامتهم في المؤسسات، مع إيلاء الاعتبار الواجب لحاجة الحدث للخصوصية، وتنمية مداركه الحسية، وإتاحة فرص التواصل مع الأقران، واشتراكه في الألعاب الرياضية والتمارين البدنية، وأنشطة أوقات الفراغ. ويتعين أن تكون مرافق الأحداث مصممة ومبنية بطريقة تقلل إلى الحد الأدنى من خطر الحريق، وتضمن إخلاء المباني بأمان. ويجب أن تكون مزودة بنظام فعال للإنذار في حالة نشوب حريق، مع اتخاذ إجراءات نظامية ومجربة عمليا لضمان سلامة الأحداث. وينبغي عدم اختيار مواقع المرافق في مناطق معروفة بتعرضها لأخطار صحية أو غير صحية .

٣٣- ينبغي أن تتألف أماكن النوم عادة من مهاجع جماعية صغيرة، أو غرف نوم فردية تراعى فيها المعايير المحلية. ويتعين خلال ساعات النوم فرض رقابة منتظمة دون تطفل على كل أماكن النوم، بما في ذلك الغرف الفردية، والمهاجع الجماعية، ضمانا لحماية كل حدث. ويزود كل حدث وفقا للمعايير المحلية أو الوطنية، بأغطية أسرة منفصلة وكافية، وتسلم إليه نظيفة وتحفظ في حالة جيدة، ويعاد تغييرها بما يكفى لضمان نظافتها .

٣٤- تحدد مواقع دورات المياه، وتستوفى فيها المعايير بما يكفى لتمكين كل حدث من قضاء حاجته الطبيعية، كلما احتاج إلى ذلك، في خلوة ونظافة واحتشام .

٣٥- تشكل حيازة المتعلقات الشخصية عنصرا أساسيا من عناصر الحق في الخصوصية، وعاملا جوهريا لضمان صحة الحدث النفسية. وينبغي أن يحظى حق كل حدث في حيازة متعلقات شخصية، والتمتع بمرافق ملائمة لحفظ هذه المتعلقات بالاعتراف والاحترام. وتودع متعلقات الحدث الشخصية التي يرغب في عدم الاحتفاظ بها أو التي تصادر منه، في حيازة مأمونة، وتعد بها قائمة يوقع عليها الحدث، وتتخذ الإجراءات اللازمة لحفظها في حالة جيدة. وتعاد كل هذه المواد والنقود إلى الحدث عند

الإفراج عنه، ناقصا منها النقود التي يكون قد أذن له بصرفها والممتلكات التي يكون قد أذن له بإرسالها خارج المؤسسة. وإذا تلقى الحدث أو وجدت في حيازته أي أدوية، يترك للموظف الطبي أن يقرر وجه استخدامها .

٣٦- يكون للأحداث - قدر الإمكان - حق استخدام ملابسهم الخاصة. وعلى المؤسسات الاحتجازية أن تضمن أن يكون لكل حدث ملابس شخصية ملائمة للمناخ وكافية لإبقائه في صحة جيدة، ولا يكون فيها إطلاقا حط من شأنه، أو إذلال له. ويؤذن للأحداث الذين ينقلون من المؤسسة، أو يغادرونها لأي غرض بارتداء ملابسهم الخاصة .

٣٧- تؤمن كل مؤسسة احتجازية لكل حدث غذاء، يعد ويقدم على النحو الملائم في أوقات الوجبات العادية بكمية ونوعية تستوفيان معايير التغذية السليمة والنظافة والاعتبارات الصحية، وتراعى فيه، إلى الحد الممكن، المتطلبات الدينية والثقافية. وينبغي أن يتاح لكل حدث، في أي وقت، مياه شرب نظيفة .

(هاء) التعليم والتدريب المهني والعمل :

٣٨- لكل حدث في سن التعليم الإلزامي الحق في تلقى التعليم الملائم لاحتياجاته وقدراته والمصمم لتهيئته للعودة إلى المجتمع. ويقدم هذا التعليم خارج المؤسسة الاحتجازية في مداس المجتمع المحلى كلما أمكن ذلك، وفى كل الأحوال، بواسطة معلمين أكْفاء يتبعون برامج متكاملة مع نظام التعليم في البلد، بحيث يتمكن الأحداث، بعد الإفراج عنهم، من مواصلة تعلمهم دون صعوبة. وينبغي أن تولى إدارات تلك المؤسسات اهتماما خاصا لتعليم الأحداث الذين يكونون من منشأ أجنبي، أو تكون لديهم احتياجات ثقافية أو عرفية خاصة. وللأحداث الأميين، أو الذين يعانون من صعوبات في الإدراك، أو التعلم الحق في تلقى تعليم خاص .

٣٩- ينبغي أن يؤذن للأحداث الذين تجاوزوا سن التعليم الإلزامي، ويودون متابعة دراستهم بأن يفعلوا ذلك، وأن يشجعوا عليه، وينبغي بذل قصارى الجهد لتمكينهم من الالتحاق بالبرامج التعليمية الملائمة .

٤٠- لا يجوز أن تتضمن الدبلومات أو الشهادات الدراسية التي تمنح للأحداث أثناء احتجازهم أية إشارة إلى أن الحدث كان مودعا في مؤسسة احتجازية .

٤١- توفر في كل مؤسسة احتجازية مكتبة مزودة بما يكفى من الكتب، والنشرات الدورية التعليمية والترفيهية الملائمة للأحداث، وينبغي تشجعيهم وتمكينهم من استخدام هذه المكتبة استخداما كاملا .

٤٢- لكل حدث الحق في تلقى تدريب مهني على الحِرَف التي يحتمل أن تؤهله للعمل في المستقبل .

٤٣- تتاح للأحداث، مع إيلاء الاعتبار الواجب للاختيار المهني الملائم، ولمتطلبات إدارة المؤسسات، إمكانية اختيار نوع العمل الذى يرغبون في أدائه .

٤٤- تطبق على الأحداث المحرومين من حريتهم كل معايير الحماية الوطنية والدولية المطبقة على تشغيل الأطفال والنشء .

٤٥- تتاح للأحداث، كلما أمكن، فرصة مزاولة عمل مأجور في المجتمع المحلى إن أمكن، كتكملة للتدريب المهني الذي يتلقونه، لتعزيز فرص عثورهم على أعمال ملائمة عند عودهم إلى مجتمعاتهم. ويتعين أن يكون هذا العمل من نوع يشكل تدريبا مناسبا يعود بالفائدة على الحدث بعد الإفراج عنه. ويتعين أن يكون تنظيم العمل المتاح في المؤسسة الاحتجازية وأسلوبه شبيهين ما أمكن بتنظيم وأسلوب العمل المماثل في المجتمع، بحيث يهيئ الأحداث لظروف الحياة المهنية الطبيعية .

٤٦- لكل حدث يؤدى عملا الحق في أجر عادل. ولا يجوز إخضاع مصالح الأحداث ومصالح تدريبهم المهني لغرض تحقيق ربح للمؤسسة الاحتجازية أو للغير. وينبغي، عادة، أن يقتطع جزء من إيرادات الحدث كمدخرات

تسلم إليه عند إطلاق سراحه. وللحدث الحق في استعمال باقي الأجر في شراء أشياء لاستعماله الخاص، أو في تعويض الضحية التي نالها الأذى من جريمته، أو لإرساله إلى أسرته، أو إلى أشخاص آخرين خارج المؤسسة الاحتجازية .

(واو) الترويح :

٤٧- لكل حدث الحق في فترة زمنية مناسبة يمارس فيها التمارين الرياضية الحرة يوميا، في الهواء الطلق إذا سمح الطقس بذلك، ويقدم له خلالها عادة التدريب الترويحي والبدني المناسب. وتوفر لهذه الأنشطة الأماكن والتجهيزات والمعدات الكافية. ولكل حدث الحق في فترة زمنية إضافية يومية لممارسة أنشطة وقت الفراغ يوميا، يخصص جزء منها- إذا طلب الحدث ذلك- لمساعدته على تنمية مهاراته الفنية والحرفية. وتتأكد المؤسسة الاحتجازية من تمتع كل حدث بالقدرة البدنية على الاشتراك في برامج التربية البدنية المتاحة له. وتقدم التربية البدنية العلاجية والمداواة، تحت إشراف طبي، للأحداث الذين يحتاجون إليهما .

(زاي) الدين :

٤٨- يسمح لكل حدث باستيفاء احتياجاته الدينية والروحية، وبصفة خاصة بحضور الشعائر، أو المناسبات الدينية التي تنظم في المؤسسة الاحتجازية أو بأداء شعائره بنفسه. ويسمح له بحيازة ما يلزم من الكتب، أو مواد الشعائر والتعاليم الدينية التي تتبعها طائفته. وإذا كانت المؤسسة تضم عددا كافيا من الأحداث الذين يعتنقون دينا مّا، يعين لهم واحد أو أكثر من ممثلي هذا الدين المؤهلين ، أو يوافق على من يسمى لهذا الغرض، ويُسمح له بإقامة مراسم دينية منتظمة وبالقيام بزيارات رعوية خاصة للأحداث بناء على طلبهم. ولكل حدث الحق في أن يزوره ممثل مؤهل للديانة التي يحددها، كما أن له حق الامتناع عن الاشتراك في المراسم الدينية وحرية رفض التربية الدينية، أو الإرشاد أو التعليم في هذا الخصوص .

(حاء) الرعاية الطبية :

٤٩- لكل حدث الحق في الحصول على رعاية طبية وقائية وعلاجية كافية، بما في ذلك رعاية في طب الأسنان، وطب العيون، والطب النفسي، وفى الحصول على المستحضرات الصيدلية، والوجبات الغذائية الخاصة التي يشير بها الطبيب. وينبغي - حيثما أمكن - أن تقدم كل هذه الرعاية الطبية إلى الأحداث المحتجزين بالمؤسسة عن طريق المرافق والخدمات الصحية المختصة في المجتمع المحلى الذي تقع فيه المؤسسة الاحتجازية، منعا لوصم الأحداث وتعزيزا لاحترام الذات وللاندماج في المجتمع .

٥٠- لكل حدث الحق في أن يفحصه طبيب فور إيداعه في مؤسسة احتجازية، من أجل تسجيل أية أدلة على سوء معاملة سابقة، والوقوف على أي حالة بدنية أو عقلية تتطلب عناية طبية .

٥١- ينبغي أن يكون هدف الخدمات الطبية التي تقدم إلى الأحداث اكتشاف ومعالجة أي مرض جسدي أو عقلي، وأي حالة لتعاطى مواد الإدمان، أو غير ذلك من الحالات التي قد تعوق اندماج الحدث في المجتمع. وتتاح لكل مؤسسة احتجازية للأحداث إمكانية الانتفاع المباشر بمرافق ومعدات طبية كافية تناسب عدد نزلائها ومتطلباتهم، وموظفين مدربين على الرعاية الطبية الوقائية وعلى معالجة الحالات الطبية الطارئة، ولكل حدث يمرض، أو يشكو من المرض، أو تظهر عليه أعراض متاعب بدنية، أو عقلية أن يعرض على طبيب ليتولى فحصه على الفور .

٥٢- يقوم أي موظف طبي يتوفر لديه سبب للاعتقاد بأن الصحة البدنية أو العقلية لحدث ما قد تضررت، أو ستتضرر من جراء الاحتجاز المستمر، أو من الإضراب عن الطعام، أو أي ظرف من ظروف الاحتجاز بإبلاغ ذلك فورا إلى مدير المؤسسة الاحتجازية المعنية، وإلى السلطة المستقلة المسئولة عن حماية سلامة الحدث .

٥٣- ينبغي أن يعالج الحدث الذي يعانى من مرض عقلي في مؤسسة متخصصة تحت إدارة طبية مستقلة. وينبغي أن تتخذ، بالاتفاق مع الأجهزة

المختصة، إجراءات تكفل استمرار أي علاج نفسي يلـزم بعـد إخـلاء السبيل .

٥٤- تعتمد المؤسسات الاحتجازية للأحداث برامج متخصصة يضطلع بها موظفون أكْفاء للوقاية من إساءة استعمال المخدرات، ولإعادة التأهيـل. وينبغي تكييف هذه البرامج حسب أعمار الأحداث المعنـيين وجنسـهم وسائر متطلباتهم، وأن توفر للأحداث الـذين يتعـاطون المخـدرات، أو الكحول مرافق وخدمات للتطهير من السموم، تكون مجهـزة بمـوظفين مدربين .

٥٥ - لا تصرف الأدوية إلا من أجل العلاج اللازم من الوجهة الطبية، وبعد الحصول - عند الإمكان - على موافقة الحدث المعنى بعد إطلاعـه علـي حالته. ويجب، بصفة خاصة، ألا يكون إعطاء الأدوية بهدف اسـتخلاص معلومات أو اعترافات، أو أن يكون على سبيل العقاب، أو كوسيلة لكبح جماح الحدث. ولا يجوز مطلقا استخدام الأحداث في التجارب التي تجرى على العقاقير أو العلاج. وينبغي - على الدوام - أن يكـون صـرف أي عَقّار مخدر بإذن وإشراف موظفين طبيين مؤهلين .

(طاء) الإخطار بالمرض والإصابة والوفاة :

٥٦- لأسرة الحدث أو ولى أمره، أو أي شخص آخر يحدده الحدث، الحق في الاطلاع على حالة الحدث الطبية، عند الطلب، وفى حـال حـدوث أي تغييرات هامة في صحة الحدث. ويخطر مدير المؤسسة الاحتجازيـة علـى الفور أسرة الحدث المعنى، أو ولى أمره، أو أي شخص معـين، في حالـة الوفاة، أو حالة المرض التي تتطلب نقل الحدث إلى مرفـق طـبي خـارج المؤسسة، أو التي تتطلب علاجا طبيا في المؤسسة لأكثر مـن ٤٨ سـاعة. كذلك ينبغي إخطار السلطات القنصلية للدولة التي يكون الحدث الأجنبي من مواطنيها .

٥٧- عند وفاة الحدث خلال فترة حرمانه من الحرية، يكون لأقرب أقربائـه الحق في الاطلاع على شهادة الوفاة، ورؤية الجثة، وتحديد طريقة التصرف

فيها. وفي حالة وفاة الحدث أثناء الاحتجاز، ينبغي إجراء تحقيق مستقل في أسباب الوفاة، ويتاح لأقرب الأقرباء أن يطلع على التقرير المعد بهذا الشأن. ويجرى هذا التحقيق أيضا إذا حدثت الوفاة في غضون ستة أشهر من تاريخ الإفراج عنه من المؤسسة وإذا كان هناك سبب يدعو للاعتقاد بأن الوفاة مرتبطة بفترة الاحتجاز .

٥٨- يخطر الحدث في أقرب وقت ممكن بوفاة أي فرد من أفراد أسرته المباشرة أو بإصابته بمرض، أو ضرر خطير. وينبغي أن تتاح له فرصة الاشتراك في تشبيع جنازة المتوفى، أو زيارة قريبه المريض مرضا خطيرا .

(ياء) الاتصال بالمحيط الاجتماعي الأوسع :

٥٩- ينبغي توفير كل السبل التي تكفل للأحداث أن يكونوا على اتصال كاف بالعالم الخارجي، لأن ذلك يشكل جزءا لا يتجزأ من حق الأحداث في أنً يلقوا معاملة عادلة وإنسانية، وهو جوهري لتهيئتهم للعودة إلى المجتمع. وينبغي السماح للأحداث بالاتصال بأسرهم وأصدقائهم وبالأشخاص الآخرين الذين ينتمون إلى منظمات خارجية حسنة السمعة، أو بممثلي هذه المنظمات، وبمغادرة مؤسسات الاحتجاز لزيارة بيوهم وأسرهم، وبالحصول على إذن خاص بالخروج من مؤسسات الاحتجاز لأسباب تتعلق بتلقي التعليم، أو التدريب المهني، أو لأسباب هامة أخرى. وإذا كان الحدث يقضى مدة محكوما بها عليه، يحسب الوقت الذي يقضيه خارج مؤسسة الاحتجاز ضمن الفترة المحكوم بها .

٦٠- لكل حدث الحق في تلقى زيارات منتظمة ومتكررة، بمعدل زيادة واحدة كل أسبوع، أو زيارة واحدة كل شهر على الأقل، من حيث المبدأ، على أن تتم الزيارة في ظروف تراعى فيها حاجة الحدث إلى أن تكون له خصوصياته وصلاته، وتكفل له الاتصال بلا قيود، بأسرته وبمحاميه .

٦١- لكل حدث الحق في الاتصال، كتابة أو بالهاتف، مرتين في الأسبوع على الأقل، بأي شخص يختاره، ما لم تكن اتصالاته مقيدة بموجب

القانون. وينبغي أن تقدم له المساعدة اللازمة لتمكينه من التمتع الفعلي بهذا الحق. ولكل حدث الحق في تلقى الرسائل .

٦٢- تتاح للأحداث فرصة الاطلاع على الأخبار بانتظام بقراءة الصحف والدوريات وغيرها من المنشورات، وعن طريق تمكينه من سماع البرامج الإذاعية، ومشاهدة برامج التلفزيون والأفلام، وعن طريق زيارات ممثلي أي ناد أو تنظيم قانوني يهتم به الحدث .

(كاف) حدود القيود الجسدية واستعمال القوة :

٦٣- ينبغي أن يحظر اللجوء إلى أدوات التقييد، أو إلى استعمال القوة، لأي غرض إلا على النحو المنصوص عليه في المادة ٦٤ أدناه .

٦٤- يحظر استخدام أدوات التقييد أو اللجوء إلى القوة إلا في الحالات الاستثنائية، بعد أن تكون كل طرائق السيطرة الأخرى قد استنفدت وفشلت، وعلى النحو الذي تسمح به، وتحدده القوانين والأنظمة صراحة فقط. ولا يجوز أن تسبب تلك الأدوات إذلالا أو مهانة، وينبغي أن يكون استخدامها في أضيق الحدود، ولأقصر فترة ممكنة. ويمكن اللجوء إلى هذه الأدوات بأمر من مدير المؤسسة لمنع الحدث من إلحاق الأذى بنفسه، أو بالآخرين، أو من إلحاق أضرار كبيرة بالممتلكات. وفى هذه الحالات، يتشاور المدير فورا مع الموظف الطبي وغيره من الموظفين المختصين، ويقدم تقريرا إلى السلطة الإدارية الأعلى .

٦٥- يحظر على الموظفين حمل الأسلحة واستعمالها في أية مؤسسة لاحتجاز الأحداث .

(لام) الإجراءات التأديبية :

٦٦- ينبغي أن تخدم جميع التدابير والإجراءات التأديبية أغراض السلامة والحياة الاجتماعية المنظمة، وأن تصون كرامة الحدث المتأصلة والهدف الأساسي للرعاية المؤسسية، وهو إشاعة الإحساس بالعدل، واحترام الذات، واحترام الحقوق الأساسية لكل شخص .

٦٧- تحظر جميع التدابير التأديبية التي تنطوي على معاملة قاسية، أو لاإنسانية، أو مهينة، بما في ذلك العقاب البدني والإيداع في زنزانة مظلمة، والحبس في زنزانة ضيقة أو انفراديا، وأي عقوبة أخرى يمكن أن تكون ضارة بالصحة البدنية أو العقلية للحدث المعني. ويحظر تخفيض كمية الطعام وتقييد الاتصال بأفراد الأسرة أو الحرمان منه، لأي سبب من الأسباب. وينظر إلى تشغيل الحدث دائما على أنه أداة تربوية ووسيلة لتعزيز احترامه لذاته لتأهيله للعودة إلى المجتمع، ولا يفرض كجزاء تأديبي. ولا يعاقب الحدث أكثر من مرة واحدة على نفس المخالفة التي تستوجب التأديب. وتحظر الجزاءات الجماعية .

٦٨- تحدد التشريعات أو اللوائح التي تعتمدها السلطة الإدارية المختصة القواعد المتعلقة بما يلي، مع المراعاة الكاملة للخصائص والاحتياجات والحقوق الأساسية للحدث :

أ) السلوك الذي يشكل مخالفة تستوجب التأديب،

ب) أنواع ومدة الجزاءات التأديبية التي يجوز توقيعها،

ج) السلطة المختصة بفرض هذه الجزاءات،

د) السلطة المختصة بالنظر في التماسات التظلم من الجزاءات .

٦٩- يقدم تقرير عن سوء السلوك فورا إلى السلطة المختصة، التي ينبغي لها أن تبت فيه دون أي تأخير لا لزوم له. وعلى السلطة المختصة أن تدرس الحالة دراسة دقيقة .

٧٠- لا يفرض جزاء تأديبي على أي حدث إلا بما يتفق – بدقة – مع أحكام القانون واللوائح السارية. ولا يفرض جزاء على أي حدث ما لم يكن قد أخطر بالمخالفة المدعى بها بطريقة يفهمها تماما، ومنح فرصة ملائمة لتقديم دفاعه، بما في ذلك كفالة حقه في الاستئناف أمام سلطة محايدة مختصة. وتحفظ سجلات كاملة بجميع الإجراءات التأديبية .

٧١- لا تسند لأي حدث مهام تنظيمية إلا في إطار الإشراف على أنشطة اجتماعية، أو تربوية أو رياضية محددة، أو في إطار برامج الإدارة الذاتية .

(ميم) التفتيش والشكاوى :

٧٢- ينبغي تفويض مفتشين مؤهلين، أو هيئة مكافئة منشأة حسب الأصول غير تابعة لإدارة المؤسسة، للقيام بالتفتيش على أساس منتظم، والمبادرة بإجراء عمليات تفتيش مفاجئة، على أن يتمتع هؤلاء المفتشون بضمانات كاملة لاستقلالهم في ممارسة هذه المهمة. وتتاح للمفتشين إمكانات الوصول، دون أي قيود، إلى جميع الموظفين أو العاملين في أية مؤسسة يجرد فيها الأحداث من حريتهم، أو يجوز أن يجردوا فيها من حريتهم، وإلى جميع الأحداث، وكذلك إلى جميع سجلات هذه المؤسسات .

٧٣- يشترك في عمليات التفتيش مسئولون طبيون مؤهلون ملحقون بهيئة التفتيش، أو من دائرة الصحة العامة، ويُقَيِّمُون مدى الالتزام بالقواعد المتعلقة بالبيئة المادية، والصحة، والسكن، والأغذية، والتمارين الرياضية والخدمات الطبية، وكذلك أي جانب آخر من جوانب الحياة، أو ظروفها في المؤسسة يؤثر على الصحة البدنية والعقلية للأحداث. وينبغي أن يكفل لكل حدث الحق في أن يُسِرَّ إلى أي مفتش بما في دخيلته .

٧٤- بعد إكمال التفتيش، يطلب من المفتش أن يقدم تقريرا عن النتائج التي خلص إليها. وينبغي أن يتضمن التقرير تقييما لمدى التزام مؤسسة الاحتجاز بهذه القواعد، وبأحكام القانون الوطني ذات الصلة، وبالتوصيات المتعلقة بأي خطوات تعتبر ضرورية لضمان الالتزام بها. وتبلغ السلطات المختصة بأية وقائع يكتشفها أي مفتش، ويعتقد أنها تشير إلى وقوع انتهاك للأحكام القانونية المتعلقة بحقوق الأحداث أو بعمل مؤسسة الاحتجاز للقيام بالتحقيق والمقاضاة .

٧٥- تتاح الفرصة لكل حدث لتقديم طلبات أو شكاوى إلى مدير مؤسسة الاحتجاز، أو إلى ممثله المفوض .

٧٦- ينبغي أن يكون لكل حدث الحق في تقديم طلب أو شكوى، دون رقابة على المضمون، إلى الإدارة المركزية أو السلطة القضائية، أو غيرها من

السلطات المختصة عن طريق القنوات المعتمدة، وأن يخطر بما تم بشأنها دون إبطاء .

٧٧- تبذل الجهود لإنشاء مكتب مستقل (ديوان مظالم) لتلقي وبحث الشكاوى التي يقدمها الأحداث المجردون من حريتهم، والمعاونة في التوصل إلى تسويات عادلة لها .

٧٨- ينبغي أن يكون لكل حدث الحق في طلب المساعدة، من أفراد أسرته، أو المستشارين القانونيين، أو جماعات العمل الخيري، أو جماعات أخرى، حيثما أمكن، من أجل تقديم شكوى. وتقدم المساعدة إلى الأحداث الأميين إذا احتاجوا إلى خدمات الهيئات والمنظمات العامة، أو الخاصة التي تقدم المشورة القانونية أو المختصة بتلقي الشكاوى .

(نون) العودة إلى المجتمع :

٧٩- ينبغي أن يستفيد جميع الأحداث من الترتيبات التي تستهدف مساعدتهم على العودة إلى المجتمع، أو الحياة الأسرية أو التعليم، أو الوظيفة بعد إخلاء سبيلهم وينبغي وضع إجراءات، تشمل الإفراج المبكر، وتنظيم دورات دراسية خاصة، تحقيقا لهذه الغاية .

٨٠- على السلطات المختصة أن تقدم أو تضمن تقديم خدمات لمساعدة الأحداث على الاندماج من جديد في المجتمع، وللحد من التحيز ضدهم. وينبغي أن تكفل هذه الخدمات بالقدر الممكن، تزويد الحدث بما يلائمه من مسكن وعمل، وملبس، وبما يكفى من أسباب العيش بعد إخلاء سبيله من أجل تسهيل اندماجه من جديد في المجتمع بنجاح. وينبغي استشارة ممثلي الهيئات التي تقدم هذه الخدمات وإتاحة وصولهم إلى الأحداث المحتجزين لمساعدتهم في العودة إلى المجتمع .

خامسا : الموظفون :

٨١- ينبغي استخدام موظفين مؤهلين، وأن يكون بينهم عدد كاف من المتخصصين مثل المربين، والموجهين المهنيين، والمستشارين، والأخصائيين الاجتماعيين، وأطباء وأخصائي العلاج النفسي. وينبغي أن يعين هؤلاء

وغيرهم من المتخصصين، عادة، على أساس دائم. ولا يمنع هذا من الاستعانة بعاملين غير متفرغين، أو عاملين متطوعين إذا كان مستوى المساندة والتدريب اللذين يمكنهم توفيرهما ملائما ومفيدا. وينبغي أن تستفيد مؤسسات الاحتجاز من جميع الإمكانات العلاجية والتعليمية والمعنوية والروحية، وغيرها من الموارد، وأشكال المساعدة الملائمة والمتاحة في المجتمع، بما يتفق مع الاحتياجات الفردية للأحداث المحتجزين ومشكلاتهم .

٨٢- ينبغي أن تكفل الإدارة سلامة اختيار، وتعيين الموظفين على اختلاف رتبهم ووظائفهم، لأن سلامة إدارة مؤسسات الاحتجاز تتوقف على نزاهتهم، وإنسانيتهم، ومقدرتهم، وأهليتهم المهنية للتعامل مع الأحداث وصلاحيتهم الشخصية للعمل .

٨٣- ومن أجل تحقيق الأهداف السالفة الذكر، ينبغي أن يعين الموظفون بصفتهم مسئولين مهنيين، وتكون أجورهم كافية لاجتذاب الرجال والنساء المناسبين والاحتفاظ بهم. وينبغي تشجيع موظفي احتجاز الأحداث، بصفة مستمرة، على أن يضطلعوا بواجباتهم، والتزاماتهم بطريقة إنسانية، وملتزمة، وفنية، ومنصفة وفعالة، وعلى أن يتصرفوا في جميع الأوقات بطريقة تجعلهم جديرين باحترام الأحداث، وقادرين على اكتسابه، وأن يقدموا لهم نموذجا للأداء الإيجابي والنظرة الإيجابية .

٨٤- وعلى الجهات المسئولة الأخذ بأشكال التنظيم والإدارة التي تسهل الاتصال بين مختلف فئات الموظفين في كل "مؤسسة احتجاز" من أجل تعزيز التعاون بين مختلف الدوائر العاملة في مجال رعاية الأحداث، وكذلك بين الموظفين والإدارة لضمان تمكن الموظفين الذين لهم اتصال مباشر بالأحداث من العمل في ظروف مواتية لأداء واجباتهم على نحو فعال .

٨٥- ويتلقى الموظفون من التدريب ما يمكنهم من الاضطلاع على نحو فعال بمسئولياتهم، وخاصة التدريب في علم نفس الأطفال، ورعاية الأطفال والمعايير، والقواعد الدولية لحقوق الإنسان، وحقوق الطفل، بما فيها هذه القواعد. ويعمل الموظفون على ترسيخ، وتحسين معرفتهم وقدراتهم الفنية

عن طريق حضور دورات للتدريب أثناء الخدمة تنظم على فترات مناسبة طوال حياقم الوظيفية .

٨٦- ينبغي أن يكون مدير المؤسسة مؤهلا بالقدر الكافي لمهمته من حيث القدرة الإدارية والتدريب والخبرة المناسبين، وأن يضطلع بواجباته على أساس التفرغ .

٨٧- يراعي موظفو مؤسسات الاحتجاز، في أدائهم لواجباقم، احترام وحماية الكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان الأساسية لجميع الأحداث، خاصة على النحو التالي :

أ) لا يجوز لأي من موظفي مؤسسات الاحتجاز، أو الإصلاحيات القيام بأي عمل من أعمال التعذيب، أو غيره من ضروب المعاملة أو العقوبة أو الإصلاح أو التأديب، المؤلمة أو القاسية أو اللاإنسانية أو المهنية، أو أن يحرض على القيام به أو أن يتسامح بشأنه، أيا كانت الذريعة، أو الظروف،

ب) على جميع موظفي المؤسسات التشدد في مقاومة ومكافحة أي فعل من أفعال فساد الذمة، وتبليغه دون إبطاء إلى السلطات المختصة.

ج) على جميع الموظفين احترام هذه القواعد. وعلى الموظفين الذين لديهم سبب للاعتقاد بأن انتهاكا خطيرا لهذه القواعد قد وقع أو بسبيله إلى الوقوع أن يبلغوا الأمر إلى سلطاقم العليا، أو للأجهزة المخولة صلاحية إعادة النظر والتصحيح.

د) يكفل جميع الموظفين حماية كاملة للصحة البدنية والعقلية للأحداث، بما في ذلك الحماية من الاعتداء، والاستغلال البدني والجنسي والعاطفي، ويتخذون التدابير الفورية لتأمين الرعاية الطبية لهم كلما لزمت.

هـ) يحترم جميع الموظفين حق الحدث في أن تكون له خصوصياته، ويحمون، على وجه الخصوص، جميع المسائل السرية المتعلقة بالأحداث، أو أسرهم والتي يطلعون عليها بحكم وظيفته.

و) يسعى جميع الموظفين إلى التقليل - قدر الإمكان - من أوجه الاختلاف بين الحياة داخل المؤسسة وخارجها، التي من شأنها أن تنتقص من الاحترام الواجب لكرامة الحدث باعتباره إنسانا .

الباب الثاني

زعماء وأئمة ومصلحون ..
فى غياهب الأسر والسجون

- سجن "المطبق" .. أيام المنصور !!
- توران شاه .. والملك الأسير !!
- ليلى .. الأسيرة العفيفة .
- سفانة بنت حاتم الطائى .
- الفارسة الملثمة تحطم قيودها .
- عمر المختار .. الأسد الأسير .
- أمير المؤمنين .. يحاصر في بيته .
- وهكذا فعلت الوشاية بإمام دار الهجرة !
- أبو حنيفة النعمان فى السجن !
- الإمام ابن حنبل .. والمحنة الكبرى !
- الفتنة التى كادت تقضى على الإمام الشافعى !
- مالى .. ولسعيد بن جبير .
- ابن تيمية .. الفقيه السجين .
- الشيخ أبو العيون .. الكاتب الجرىء الذى فضح الأنجليز .
- يزيد بن المهلب .. هارب من سجن الحجاج !
- مصطفى كامل .. الزعيم الشاب الذى استطاع اقتلاع عرش اللورد كرومر من مصر.
- محمد فريد .. من سجن إلى سجن !
- مع الأستاذ محمد عبده .. فى منفاه .

سجن " المطبق " .. أيام المنصور !!

" **سجن المطبق** " الذى بناه الخليفة أبو جعفر المنصور فى العاصمة الجديدة " بغداد " مقر الخلافة العباسية فى ١٤٦ هـ.. كان شيئا جديدا فى حياة المجتمع الإسلامى !

لقد أقامه الخليفة فيما أقامه من المنشآت و الدور و القصور التى استقدم لها المهندسين من كل مكان لتخطيط بغداد .

و لقد أقام قصر الذهب ، و أقام إلى جانبه مسجدا جميلا سمى " **مسجد المنصور** " أو "**مسجد الإسلام** " ، وكان من أبدع ما شيد المسلمون من المساجد حُسنا وزينة .

ورأى أبو جعفر أن تمام التخطيط للعاصمة الجديدة لا يكون إلا " **ببناء سجن** " كبير حديث بين السُّورَيْن سماه " **المطبق** " وأعده لخصومه السياسيين، والمغضوب عليهم من خاصته ، وكبار دولته ، فكان " **المطبق** " بذلك أول سجن حديث متحضر فى الإسلام !

والحق أن الحاجة إلى سجن جديد متين قوى الأركان و الجدران قامت فى ذهن الخليفة المنصور من تجربة شهدها بنفسه فى أوائل حكمه ، وقبل تشييد "**سجن المطبق** " .

فقد كان فى " **الهاشمية** " – التى بناها " **أبو العباس السفاح** " سجن استغلت جماعة "**الراوندية** " – أتباع أبى مسلم الخراسانى – ضعف بنائه ، فهاجموه ، وأخرجوا المسجونين منه ، واتجهوا جميعا نحو قصر أبى جعفر المنصور يريدون قتله !

ومن هنا وضع أبو جعفر فى تخطيطه لبغداد التى بناها عاصمة للدولة الجديدة أن يكون السجن العتيد الشديد أحد المعالم المهمة فى بنائها !

و لم تكَدْ جدران " **المطبق** " تقوم ، وقوائمه تشتد ، حتى عمره الخلفاء منذ

أيام المنصور بالنزلاء الوافدين عليه بين حبس قصير ، وسجن طويل !

فهذا الخليفة " **المهدى بن المنصور**" يسجن فيه القائد الكبير " **عبد الكبير**" من ولد زيد أخى عمر بن الخطاب لهزيمته أمام الروم ، فيظل صاحبنا فى "**المطبق**" حتى الموت، وهو مصير تأخر به عن إعدامه عقب الهزيمة والمحاكمة!

وهذا " **أبو جعفر المنصور**" نفسه – يُودِع فى سجن "**المطبق**" وزيرَه "**يعقوب بن داود**" بتهمة ميله إلى العلويين ، ويجيء " **المهدى بن منصور** " خليفة بعد والده ، فيُخرجه من "**المطبق**" ويستوزره ، ولكنه حين تأكد له انحرافه إلى العلويين زج به فى السجن ثانية !

وهكذا كان "**المطبق**" يعج دائما بروداه ونزلائه من كل لون من رجال الدولة، و الحاشية الذين يغضب الخليفة عليهم ، أما المجرمون العاديون من الشُّطار و اللصوص ، وقطاع الطرق ، فكان لهم سجون أخرى غير "المطبق" وكان نزلاء المطبق ما بين قواد ، وأمراء ، وعلماء ، وشعراء !

ومع مرور الزمن وتطور الحياة أصبح لكل دولة سجونها وسجانوها، تشرف عليها إدارة خاصة وتتولى شئونها ، وتختلف الحياة فيها باختلاف مترلة المسجونين ومكانتهم . وهناك هيئة دولية للدفاع عن حقوق الإنسان تشرف على السجون، وتلفت نظر الدولة إلى ما يحدث من تجاوزات فى معاملتهم !

توران شاه ... والملك الأسير !!

لما لقى الملك " **الصالح نجم الدين** " ربه كان ابنه " **توران شاه** " بالموصل[(١)] فعاد على عجل لما استفحل خطر الفرنج !

وافتتح السلطان العائد حياته بمحاربته ، وأبلى أحسن البلاء ، فهزمهم هزيمة نكراء فى معركة "**فارسكور**" و" **المنصورة**[(٢)] " وقَبض على " **لويس التاسع**" سنة ٦٤٧هـ واقتاده أسيرا ، وسجنه فى دار " **ابن لقمان**" بالمنصورة

(١) السلوك جـ١ ص ٣٤٢، ٣٤٣.
(٢) النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٤٦ ، والسلوك جـ١ ص ٣٤٣.

بعد أن كُبل بالأغلال ، ووكُل أمره إلى " **الطواشي جمال الدين صبيح المعظمى**" يحفظه مكرما غاية[1] الإكرام - افتدى " **لويس التاسع** " نفسه بالمال ، وبدا له أن يعود ليغسل عن نفسه عار الهزيمة النكراء التى لحقت به ، فسخر منه الشاعر " **المصرى جمال الدين بن مطروح**" ، ونظم قصيدة يقول فيها :

قُلْ للفرنسيس إذا جئته	**مقالَ نصح من قئول فصيح**
آجرك الله على ما جرى	**من قتل عُبّاد يَسوعَ المسيح**
أتيت مصرَ تبتغى ملكها	**تحسب أن الزَّمْرَ يا "طبلُ" ريح**
فساقك الحَيْنُ إلى عسكرٍ	**ضاق به عن ناظريك الفسيح**
وكلُّ أصحابك أودعتَهم	**بسوء تدبيرك بطنَ الضريحْ**
خمسون ألفا لا يُرى منهم	**إلا قتيلٌ أو أسيرٌ جريحْ**
فردّك اللهُ إلى مثلها	**لعلَّ عيسى منكم يستريح**
إن كان " بَابَاكم " بذا راضيا	**فرُبّ غسنٍ أتى من نصيحْ**
وقُل لهم إن أضمروا عودةً	**لأخذ ثأر أو لقصد صحيح**
دار ابن لقمان على	**والقيدُ باق والطواشى صبيحْ[٤]**

وأصبحت " **دار ابن لقمان** " مضرب الأمثال فى العالم !

ويروى أن " **لويس التاسع** " هاجم مع عدد من ملوك أوربا " تونس" ونزل بساحل " قرطاجنة " وبقى هناك ستة أشهر ، ويروى " **المقريزى** " أن شاعرا من أهل تونس يدعى " **أحمد بن إسماعيل الزيات** " سخر من ملك فرنسا ، وأنشده قائلا :

يا فرنسيس هذه أختُ مصرٍ	**فتأهب لما إليه تصير**
لك فيها دارُ ابنِ لقمانَ قبراً	**وطواشيك مُنكرٌ ونكيرُ !**

فكان هذا القول شؤما عليه ، ومات بعد ذلك .

(١) النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٦٦. (٢) ديوان ابن مطروح ص١٨١.

ليلى .. الأسيرة العفيفة

حدث التاريخ أن " **ليلى العفيفة** " وصل خبر جمالها إلى "**كسرى**" فى زمانها .. فأرسل إلى طلبها ولكنها رفضت! إنها عربية تعتز بعروبتها .. وهو فارسى ولو كان ملكا !إنه ليس عربيا مثلها .. وليس على دينها فكيف يتسنى لها موافقته ؟!

ولما باءت بالفشل كل محاولاته بعث من يأتيه بها على الرغم من أهلها !

وعنده أظهرت النفور والكراهية ، وتمنعت ، فلم يفقد الأمل ، وأبقاها عنده أسيرة لعلها تعود إلى عقلها فترضى به !

وسامها الذل والعذاب بسبب كراهيتها له ، وحنينها إلى أهلها ووطنها !

وكان ابن عمها " البَّراق " قد أحبها ، وبادلته حبا بحب ، فأرسلتها صرخة مدوّية مستغيثة بابن عمها البراق لكى يخلصها مما هى فيه من قيود قائلة :

ليت للبراق عينا فترى ... ما ألاقى من بلاء وعنا
عذبت أختكم يا ويلكم ... بعذاب النكر صبحا ومسا
يا بنى تغلب سيروا وانصروا ... وذروا الغفلة عنكم والكرى
احذروا العار على أعقابكم ... وعليكم ما بقيتم فى الدنى

وكانت هذه القصيدة الشرارة التى أشعلت النار فى نفوس قومها، فقامت حرب طاحنة بين الفرس والعرب الذين استطاعوا أن يفكوا أسر ليلى ، ورجعت إلى أهلها موفورة الكرامة مرفوعة الرأس لعفتها وطهارتها !

سفانة بنت حاتم الطائى (*)

وجه رسول الله ﷺ إلى طيء فريقا من جنده ، يقدمهم "**علىّ كرم الله وجهه**" إلى الشام ، ففزع "**عدىّ**(1) بن حاتم الطائى" – وكان من أشد الناس عداء لرسول الله ﷺ .

(*) الأغانى ص٩٣ج١٦ ، وإنسان العيون ص٢٨٥ج٢ ، وغرر الخصائص ص١٢

(١) عدى بن حاتم : صحابى من الأجواد العقلاء كان رئيس قومه فى الجاهلية والإسلام ، وكان إسلامه سنة ٩هـ ، وشهد فتح العراق ، والجمل ، وصفين ، والنهروان مع علىّ رضى الله عنه.

فصبحّ " **عليّ** " القوم ، واستاق خيلهم ونَعَمَهم ، ورجالَهم ونساءهم إلى رسول الله ﷺ .

فلما عرض عليه الأسرى نهضت من بين القوم " **سفانة بنت حاتم** " فقالت:

" **يا مُحمد ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فإن رأيت ان تخلّى عنى ، ولا تشمت بى أحياءَ العرب! ، فإن أبى كان سيد قومه يفك العانى**[1] ، **ويقتل الجانى ، ويحفظ الجار ، ويحمى الذّمار ، ويُفَرِّج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويُفْشى السلام ، ويحمل الكَلّ**[2] ، **ويُعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد فى حاجة فردّه خائبا ، أنا بنتُ حاتم الطائى** ".

فقال النبى ﷺ : **يا جاريةُ ، هذه صفاتُ المؤمنين حقا ، لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه!**

"**خلُّوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق** " ثم قال : " **ارحموا عزيزا ذَلّ ، وغنيا افتقر ، وعالما ضاع بين جهال**" وامتن عليها بقومها ، فأطلقهم تكريما لها !

فاستأذنته فى الدعاء له ، فأذن لها ، وقال لأصحابه : **اسمعوا وعُوا** ، فقالت:

" **أصاب اللهُ ببرِّك مواقعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا جعلك سببا فى ردها عليه** " فلما أطلقها رجعت إلى أخيها عدى ، وهو بدومة الجندل ، فقالت له: " **يا أخى الْزم هذا الرجل قبل أن تَعْلَقَك حبائله ، فإنى قد رأيت هديا ورأيا ، سيغلِب أهل الغلبة ، ورأيت خصالاً تعجبنى : رأيته يحب الفقير ، ويفك الأسير ، ويرحم الصغير، ويعرف قدر الكبير ، وما رأيت أجود ولا أكرم منه ، فإن يكن نبيا فللسابق فضله ، وإن يكن ملكا فلن تزال فى عز ملكه!** " فقدم عدى إلى رسول الله(ﷺ) فأسلم، وأسلمت سفانة!

---

(١) العانى : الأسير. **(٢) الكَل : العائل واليتيم.**

خولة بنت الأزور .. الفارسة الملثمة تحطم قيودها

إنها **خولة بنت الأزور** التى سجل التاريخ شجاعتها النادرة بأحرف من نور!

لقد شاركت أخاها فى تلك المعركة الفاصلة بالشام بين العرب والروم ، وأخذت تقاتل بضراوة وبسالة لفتت أنظار من حولها من الجنود ، وراح **القائد خالد بن الوليد** يسأل فى دهشة وعجب : **من هذا الفارس ؟ يا له من مقاتل شجاع !!**

وواصلت **خولة** هجومها على الأعداء لا تأبه لما أصابها ، معرضة نفسها للموت ، حتى تم النصر ، وخرجت من المعركة وهى تنزف دما ، وهنا صاح **خالد بن الوليد :**

أيها الفارس الملثم ، من أنت ؟ اكشف لنا عن شخصيتك!

فقالت : **أيها القائد العظيم .. لم يمنعنى من كلامك إلا حيائى منك! وتواضعى أمام بطولتك .. إننى خولة بنت الأزور!**

أسهمت بجهدى معكم نيابة عن النساء! فنظر إليها الجميع بإكبار واحترام!

ولقد سجل لها التاريخ موقفا عظيما حين وقعت هى ومجموعة من النساء فى " **أسر الروم**" فى إحدى المعارك .. وقبل أن يسعى جيش المسلمين فى تخليصهن من الأسر ، جمعت خولة النساء فى سجنهن ، وصاحت بهن : " **أيها النساء! أترضين لأنفسكن هذه المهانة ؟! أين شجاعتكن وبراعتكن التى تتحدث بها أحياء العرب ؟! إن القتل أهون مما نحن فيه !**"

فقالت **عفراء الحميرية : صدقت – والله – يا بنت الأزور! إن السيف يحسن فعله فى مثل هذا الوقت ، وليس معنا سلاح !!**

فأجابت خولة : **خذوا أعمدة الخيام والأوتاد ، واضربن بها هؤلاء اللئام لعل الله ينصُرنا .. فنحمى أنفسنا من معرة العرب !**

وقامت الأسيرات بما أشارت به عليهن ، وصحن صيحة واحدة .. **الله أكبر** .. ثم هجمن على الأعداء وتخلصن من الأسر !!

ولقيت ربها فى خلافة سيدنا " **عثمان بن عفان** " رضى الله عنه

عمر المختار .. الأسد الأسير

توالت المعارك الملتهبة بين قائد جيوش إيطاليا وعمر المختار الزعيم الليبى على أرض ليبيا والمختار ثابت كالجبل الأشم ، لا تزعزعه العواصف والأعاصير ، حتى حارت إيطاليا فى أمره بعد أن امتلأت الصحراء بجيف قطعان روما الضالة !

ويمتلك الغيظ القائد العام الإيطالى والسفاح جرزيانى .. ويتدفق سيل القرارات والتوبيخات من روما ليصب على رءوس جيش الرومان المتداعى فى صحراء قاحلة ، ويسأل القادة : كيف لا تقهرون هذا الرجل الرابض فى الصحراء ملتحفا بالسماء ، وأنتم تتحصنون بمجترراتكم القوية ، ومدرعاتكم الصلبة ؟

ويبدأ السفاح "جرزيانى" فى ارتكاب أبشع الجرائم فى حق النساء والأطفال والشيوخ .. وتتوالى المعارك الملتهبة فتنفَدُ ذخيرة الشيخ ويحاط به .. ويفقد منظاره الذى لا يرى بدونه!

ويقع أسيرا فى يد أعداء الله .. وأعداء الوطن !

وما كاد جريزيانى يعلم بنبأ أسره حتى استقل طائرته ، وأسرع إليه ، وهاله وهو يحاوره أن يرى شيخا فى السبعين طويل القامة ثابت الجنان .. وتعقد محكمة صورية شكلها جند الطليان .. وحكموا على الأسير بالإعدام شنقا وهو يردد " أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله !" .. وينفذ القتلة الحكم مرتين مخافة أن يعود الفارس من جديد !!

وإذا كان القاتل يقتل ولو بعد حين .. فقد ذاق جريزيانى القتل مـــرات ، فما من ظالم إلا سيبلى بأظلم .. لقد سلط الله عليه ويفل .. قائد الحلفـــاء .. فلا يفتأ يبوء بالفشل بعد الفشل ، ولا يُفبق من لطمة إلا ليتلقى أخرى !

ولا يجوز بفضيحة إلا ليستقبل فضيحة !

أرأيت عذابا أشد من هذا العذاب ، وعقابا على الظلم أوجع مـــن هـــذا العقاب !

وتمضى الأيام وتظل ذكرى عمر المختار ماثلة للجميع ، ويَسهم الشـــعراء والكتاب فى تخليد هذه الذكرى وتمجيدها وها هو ذا شـــيخنا عبـــد العزيـــز البشرى يضمن كتابه " قطوف " كتابين مفتوحين ..

أحدهما من عمر المختار إلى (الماريشال جرزيانى) ..

أما الثانى فهو من (جرزيانى إلى القائد السيد عمر المختار)

وأصبح الكتابان " أدبا " له رواده وقراؤه .

فتعال إلى هذين الكتابين المفتوحين بقلم شيخنا عبد العزيـــز البشـــرى صاحب " المختار" و " قطوف" و" فى المرآه".

كتاب مفتوح

من جرزيانى إلى القائد السيد عمر المختار

سيدى المختار :

السلام عليك ورحمة الله ، ولاشك أن هذا إخبار لا دعاء ، فأنت ، مـــن مثواك فى الجنه ؛ فى رحمة دونها كل رحمة ، وفى سلام ليس يعدله سلام.

وإنى أشكرك شكرآ جليلا على كتابك الذى فرضت لى فيه ضـــميراً ، إذ ظننت أننى أتمثلك فى مسائى وفى صباحى ، وفى غدوى وفى رواحـــى ، بمـــا أسلفت إليك ، وما أجرمت عليك . وإذ الواقع أنك لم ترد لى على خـــاطر ،

و لم تسنح لى قط فى بال ، اللهم إلا ساعه فضضت كتابك ، وأزلفت عينى إلى توقيعك. فى هذه اللحظه ذكرت ما كان منى إليك.

على أنى جدُّ مشغول عن مثل هذا الذى كان منى لك ولغيرك ممن تمكنا من نواصيهم وسلّطتنا القوه عليهم . مشغول عن هذا كله بالجزع على ما كان إلى الآن ، والهول و الذعر مما يكون بعد الآن.

ولقد تكشفت لنا - نحن قادة الفاشست - فى ميادين الحرب ، والسياسة جميعا ، تلك الحقائق القاسية الأليمة بعد طول احتجاب . ومن هذه الحقائق أننا لم نخلق لحرب ولا لقتال ، بل لقد عوضنا عن هذا بما طبعنا عليه من الفن الجميل ، وما رزقنا من نصيب فيه جليل ، فنحن أدق الناس إذا حفرنا أو صورنا ، ونحن أجود الخلق إذا غنينا أو عزفنا ، وأبرع العالمين إذا رقصنا أو قصفنا ، وأمهرهم إذا وعدنا فأخلفنا ، وما لنا وراء ذلك بالحرب ولا بغير الحرب يدان [1]!

على أن الشيطان زين لنا الفتح والاستعمار ، ويسر لأنفسنا الحرب فى سبيلهما. وقد وفى ، بادئ الرأى ، بعهده ، وبر بوعده ، فقادنا أولا إلى بلاد لا يزال أهلها يعيشون عيش الحيوان ، ولا يزال كثير منهم يسكن الغابات كما يسكنها الحيوان ، ولا يأكلون إلا مما يأكل هذا الحيوان .

أما اللباس إن كان لابد من لباس فشقة توارى السوءة ، وأما السلاح فسيوف أو حراب ، إن لم يستغن عنها بالمخالب والأنياب !

وقد صبحنا هؤلاء بما عندنا من كل فاتك قاصف ، ومدمدم عاصف وبكل ما يتطاير بالحمم ، ويرمى عزيفة بالصمم. فسرعان ما سلموا واستكانوا ، وسرعان ما خضعوا ودانوا. وبعد لأى أطبقا على طرابلس ، ثم ما يليها من صحراء لوبيا .. حيث القوم أهل بادية.. الشعير طعامهم.. والخيام مثواهم ومنامهم .. وأما مسعدهم من السلاح فظبى السيوف ، وأسنة الرماح .. فإذا كان فى أيدى بعضهم شيء من البنادق القديمة .. فمما لا غناء فيه ولا اضحت له قيمة !

(١) اليد : القوة : يقال : مالى بهذا الأمر يدان !

وأما مركبهم إذا اضطربوا فى صحاريهم ، فالإبل المهزولة تحمل معهم متاعهم وزادهم ، وعدهم وعتادهم .. لقد اطبقنا على هؤلاء ثم على هؤلاء.. وصببنا عليهم من النار مالا يثبت له الحديد المصفى (الفولاذ) فكيف بالإنسان!

ثم رمينا أهل هذه البلاد بكل متعطل فى بلادنا ، ومن لا يجد فيها إلى القوت سبيلا ، وكلما شام هؤلاء المرتزقون رقعة من الأرض تنطف ولو بالنزر من الماء ، وتخرج حتى الرقيق من النبات ، أجلوا أولئك المساكين عنها ودعوهم إلى بطن الصحراء !

ثم بعد سنين غير طوال ، أغرنا على مُعاهدتنا الحبشة وزميلتنا فى عصبة الأمم وسلطنا على أهلها كل ما أخرج العلِم من الفاتكات المدمرات ، ولم نَتأثم من أن ننضح على العدو الغاز السام ، وغاز الخردل ، إذ هم لايعلمون من أمر ذلك شيئاً ، ولا يدرون من أسباب الوقاية منه والعلاج من أذاه كثيراً، ولا قليلا !

وكذلك أصبحت لنا إمبراطورية ، ولكنها ليست امبراطورية الرومان !

وأخيراً فهذه جارة صغيرة ، نُشرف عليها عبر البلطيق . ولقد آمناها من كل غارة ، وكفلنا لها السلامة من بغى أية جارة . حتى إذا سكنت واطمأنت بهذا العهد ؛ جعلنا نتربص بها الغفلة ، ونرتصد للغرة ، حتى إذا أخذ عينها الكرى ، أخذناها بجيوشنا وأساطيلنا وطياراتنا بياتا ، فهبت مذعورة لاتدرى أين المفر ؛ ولا كيف السبيل إلى النجاة ! ولعمرى لم نرحم حتى النفساء [1]، ولم نشفق على وليدها الذى لم يفتح عينه على الدنيا إلامنذ ليلة واحدة ونهار!

إذا فنحن دولة عظيمة ؛ لاتقل عن أعظم دول الأرض فى البأس والسلطان.

فليت شعرى لماذا لانتنضى السيف ، ونمضى ، على اسم الأمبراطورية الرومانية ، غازين فاتحين ؛ ذات الشمال وذات اليمين ؟!

(١) يراد بالنفساء: ملكة البانيا التى فرت مع زوجها و وليدها وهى على هذه الحال !!

وترى ما الذى يعوزنا لنكون كذلك ؟ وهذه جيوشنا المدربة على خير الأساليب العسكرية ، تعد بالملايين . وقد زودت بأكفى الأسلحة وأمضاها فى الحروب الحديثة . وهذه طياراتنا إن شئنا حجبنا بها وجه الشمس عن العالم ، وهذه أساطيلنا تغطى ثَبْجُ البحار[1] ، غادية رائحة ؛ لاتخشى صولة ، ولاتهاب عادية حتى لقد أضحى البحر المتوسط ، بفضلها ، بحيرة إيطالية ، لايدافعنا عن سلطاننا فيها إنس ولاجان !

ثم هذه حُلَل ماريشالات وجنرالات وأميرالات وكولونيلات الخ ، قد "فصلها" خياطونا المهرة "تفصيلا" بديعاً . ومن العجيب أنها حين أفرغت على قادتنا فى البر والبحر والهواء ، بدوا فيها وكأنهم ليوث الغاب ، قد سلخوا الأعمار فى الصِّيال والضِّراب . وشقوا الصفوف ، وتحدوا فى الجُلَّى مواقعَ الحتوف . فاوقعوا بالعدو وهزموا أو رضوا بالموت وما سلموا !

وهذه فرنسا فلنضربها الضربة القاصمة ، ولو من الخلف ، ولو فى ساعة قدر عليها الانهيار ، فذلك فى تحقيق الحلم الرومانى لاميزان له ولاعيار !

إذاً فهلُمّ يا ماريشالات ، وهلم يا جنرالات ، وهلم يا أميرالات ، وهلم يا سائر الضباط ، وهلم يا رجال الفاشست ، هُبوا هَبا للقتال ، وامضوا للكفاح والنضال .

ثم إذا فرنسا تسقط سقوط البقلة الذابلة ، وما جرد أصحابنا سيفا ولا شرعوا رمحاً . وإذاً فلقد عقد لهم النصر على فرنسا العظيمة ، وحقت لهم المغانم التى لايبلغها حصر ، وكفلت لهم تونس والجزائر ، جزاء هذا النصر الباهر ! ولاتنس أن تونس والجزائر تقعان فى رقعة الحلم الرومانى العظيم !

وهذه اليونان على رَمْية حجر من مستعمرتنا الجديدة ألبانيا ، ولا شك أن اكتساحها بجيشنا الباسل ، وسلاحنا الفاتك القاتل ، وعُدتنا المجلجلة ، وآلات حربنا المزلزلة ، لايستهلك أكثر من أسبوع واحد من عمر الزمن .

ولكى نقطع عليها سبيل العذر ؛ فلننذرها فى السّحَر أنها إن لم تجبنا دهمناها عند الفجر !

(١) ثَبْجُ البحر : وسطه.

أما باقى الحلم الرومانى فقد عقد الأمل فى تحقيقه بسيف داعيكم "الماريشال جرزيانى" وعسكره الذى لم يتهيأ مثله عدة وعدداً للأسكندر الأكـبر ، ولا لهنيبال ، ولا لبونابرت .

إذاً فلنفتح مصر حالا ، وليسلك منها فورا إلى السودان . و الملتقـى مـع دوق داوست فى حدود الحبشة بمشيئة الدوتشى لابمشيئة الله !

ثم ماذا بعد هذا ؟

لقد أبت هذه اليونان الصغيرة الضعيفة لاتفتأ تولينا نكبة بعد نكبـة ، ولا تألونا كل يوم مائة ضربة وضربة . وكأنما لقنت الأرحام فى بلادنـا الأولاد لِيَستأسرُوا لجنودهم ، وكأنما قامت مصانعنا هذه السنين ذات العـدد علـى صب المدافع الثقيلة و الخفيفة ، وصنع الدبابات والسيارات، وسائر أسـباب الحرب ، لتكون مغانم لهم ، وهذه ألبانيا تسلم لهم أمنع ما فيها من حصـون ومعاقل ، كانت أقوى درع لمن وراءها من الكتائب و الجحافل !

أما أفريقيا ، وما أدراك ما أفريقيا ، واخيبتاه ، هى مناط الحلم العظيم !!

فأما شمالها ، فهذه "لوبيا" قد طارت ، وهذه بنى غازى قد طاحت ، وهذا طريق النصر الذى عبدناه لاجتياح مصر ، لقد أضحى لنـا طريـق الهزيمـة والفرار!

وربما سلمت "طرابلس" قبل أن يصل إليك هذا الكتاب . وكذلك يخـرج عن أيدينا آخر معقل على شط بحر الروم ، أو بحر الانجليز ؛ لا بحر الطليـان على كل حال !

وأما ملكنا الكبير فى الأريتريا والحبشة والصومال ، فهذا ويفل ؛ الجنـرال بالكفاية ؛ لابالبذلة العسكرية .هل جاء نبأ النمر الجائع؛ وقد تمكن من فريسة يحمل لها الشر ويضمر الاضطعان ؟

ها هو ذا يبقر بطنها بمخلبه؛وينهش رأسها بأنيابه . وتارة يضـغم كتفهـا حتى تلتقى أسنانه ؛ ويلعق عظمها حتى يدمى لسانه .وكذلك يمـزق ويفـل ملكنا كل هذا التمزيق ؛ أو شرا من هذا التمزيق !

أرأيت ، يا سيدى المختار ، أن الحلم الرومانى كان حقا ؟ على أننا نهب اليوم من نومتنا تيك أهول هبوب !

تقول لى فى كتابك : إنك لو كنت ماريشالا فى رواية تمثيلية ، لكسرت على الأقل طبقا أو صدعت كرسيا ، أو قرضت بأسنانك ستارا !

ألا فاعلم يا سيدى أن الله قد عقد لسانى فى هذه الحرب ، ورمى يدى بالشلل. وهيهات الفعل أو القول لأَشَلّ اليد معقودِ اللسان !

وأخيرا ، فإذا كانت هذه الأهوال الكارثة قد علمتنا ، نحن معشر الفاشست شيئا فقد علمتنا شيئا ، هو أن الحرب ليست جيوشا تزم الأفق ، ولو زودت بجميع الفواتك المهلكات ، من مدافع وبنادق ودبابات . ولا هى أساطيل تزحم نواصى البحار . ولا هى طيارات تسد جو السماء . إنما الحرب أولا وآخراً هى ... رجال !

ولقد أذكرنى هذا ما روى عن ذلك الشجاع العربى — يعنى " عمرو بن معد يكرب "- وقد تهادن ابن الخطاب سيفه ، يعنى الصمصامة ، وقد طارت لها شهرة عظيمة . فقال له يا أمير المؤمنين : لقد رأيت الصمصامة ولكنك لم تر اليد التى تضرب بها !

سيدى المختار :

لى إليك حاجة ليس قضاؤها عليك بالأمر العسير. تلك بأنكم أهل دار سُؤْلهم مقضىّ. ودعاؤهم مستجاب. فادع ربك أن يقبضنى ولكن على فراشى، فإننى لا أرى من العدل أن أموت كما يموت الجندى فى ميدان القتال! وإذا تفضلت وكتبت إلىّ .

فعنوانى الجديد : وادى لظى — جهنم يحفظ بشباك البوستة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

١٧ من يناير سنة ١٩٤١

المخلص

جرزياني

من عمر المختار إلى الماريشال جرزيانى

عزيزى الماريشال ..

أكتب إليك هذا وأنا حَقٌّ واثقٍ من أنك لم تنسنى بل حق واثق من أننى – وخاصة فى هذه الأيام – أتمثل لكٍ سواد الليل وبياض النهار. ومهما يكن من أمر ، فان آخر لقائنا لم يمض عليه من الزمان ما ينسى الصديق عهد الصديق !

أتذكر ، يا عزيزى ، ذلك اليوم الذى جاءوك بى وأنا مقرن فى الأصفاد ، فتقدمت إلى أحراسك أن يلقونى فى الطيارة التى أمرْت بإعدادها لمهمة لم تقم بها طيارة من قبل! وسرعان ما حلقت بى ، تشق أجواز الجو طبقة بعد طبقة حتى كادت تصك وجه الشمس. ثم قذف بى من ذلك الحالق قذف النواة ، لا رحمة ولا اشفاق!

وإن أعجب لشىء ، وان افرح بشىء ، فبطيارتكم التى بلغت هذه السرعة الهائلة ، بحيث تحمل المرء من هذه الدنيا فتبلغه جنة عدن فيما دون عشر دقائق!

ولئن عاب أهل الدنيا طياريكم معشر الطليان بأنهم لا يحسنون إصابة الأهداف ، فلقد اضطرب هذا الحكم عليهم بين الجهل والتجنى ، فطياروكم أحسن الطيارين تسديداً إلى المرامى وإصابة للأهداف ، ما دامت القذيفة شيخاً فى حدود المائة ، والهدف ظهر الصحراء !

عزيزى الماريشال :

لقد انعقد إجماع أهل العلم على أن الشجاعة تلازمها الرقة للضعيف ورحمة من ليس له بالكفاح[1] يدان . وكذلك كان شأنكم ، يا معشر قادة الجنود ، فإنكم لا تؤذون الأسرى ، وتسرعون إلى مداواة الجرحى من عدوكم ، كما تداوون جرحاكم سواء بسواء ، وتلْقون الجميع بالبشاشة ، وتعاملونهم بالإكرام . فما بالك قد صنعت بى أنا الشيخ الفانى ، ذلك الذى لم يسمع به

(١) اليد : القوة والقدر ، وليس له بالكفاح يدان ، لا قدرة له عليه ولا قوة.

أحد فى طول الزمان . هذا الذى لا ترضى بفعله الحجارة ، لو كانت الحجارة تشعر وتريد ؟!

لقد التمست لك وجه العذر ، يا عزيزى الماريشال ، ولا تعجب لأن ألتمس أنا العذر لك أنت ، فإننى فى دار لا نحس فيها حقداً ، ولا يجد الضِّغن إلى قلوبنا سبيلا. ألم يقل الله تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ** ﴾ [الحجر : ٤٧]

وجه العذر فيما أرى أنكم معشر الطليان ، أو معشر الفاشست ، على الأصح ، وقد جمعتم العزم على فتح أفريقيا ، لتستنقذوها من الجهالة وتخرجوها إلى نور الحضارة رأيتم سلفاً أن تُشهدوا العالم على مبلغ ما أحرزتم أنتم من حضارة وعطف على الإنسان. وليس من شك بعد هذا فى أن فعلتك تيك إنما كانت أصدق نموذج (عينة) لحكمكم إذا ملكتم نواحى الأرض ، وبلغتم مُنيتكم فى استعادة ملك الرومان !

ولعلك أيها الماريشال الشجاع جداً ، ساعة تقدمت بإعدامى على تلك الصورة ، قدرت أننى لن أتعذب أكثر من دقيقة واحدة ، فإننى كنت أجهل مصيرى ، حتى إذا قذفوا بى فى الجو خفق قلبى خفقة أو اثنتين ثم استشعرت صدمة هل علمت خطرة البرق ؟ ثم لم أدر شيئا ، ولم أحس شيئا ، حتى رأيتنى فى الجنة ، بين الصدِّيقين والشهداء .. وحسن أولئك رفيقاً !

ولعل هذا مما كان داخلا فى تقديرك أيضاً ، فأبت همتك إلا أن تسدى إلىّ الجميل جزاك الله عنى أحسن الجزاء !

هناك يا صديقى سؤال يضطرب فى صدرى ولا يجد له متنفساً من الجواب: لقد كنت أعلم وأنا من أهل الدنيا وازددت يقينا حين صرت إلى الآخرة أن السيد المسيح – عليه السلام – كان أكبر مظاهر رسالته الرفق والرحمة ، والمحبة والسلام ، والعفو عمن جنى ، والصفح عمن أساء .. ولقد كان – عليه السلام – أول رسول لم يؤيد بمعجزة من عصف أو خسف ، وإغراق أو دمدمة ، أو ريح عاصفة ، أو رجفة قاصفة ، وإنما كان يبرئ

الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله . وليس وراء هذه الرحمة رحمة ، وليس أبلغ من هذا فى باب العطف على الإنسان . فهل من الفضائل المسيحية التى تتشادق بها أنت ومعشرك والتى تزعمون أنكم ما شهرتم هذه الحرب على خصومكم إلا لتسودوها على العالمين — هل من الفضائل أن تمثلوا بشيخ مثلى هذا التمثيل ، وتقتلوه بصورة لم تعهد فى تاريخ التذبيح والتقتيل ؟

لا والله لقد برئ منكم المسيح الرحيم النبيل ، وبرئت منكم التوراة والإنجيل !

وبعد فاعلم يا هذا الرجل ولعلك الآن أنشأت تعلم ، اعلم أن الله تعالى يمهل ولا يهمل ، وهو للظالمين بالمرصاد ، وأنه ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته.

ولقد أملى لك وأمهلك. وما أمهلك ولا أملى لك ، إلا ليزيد لك فى العقاب ، ويضاعف لك العذاب ، ففسح لك فى الأمل ، وأدنى منك كرائم المنى ، وقطع فى نفسك جميع علائق الشك فى أن ستكون الغازى الفاتح الذى يردّ لقومه ملك الرومان القديم ، فى غير مشقة ولا جليل عناء ، حتى خلْت نفسَك كذلك ، وتسلقت الزهو به ، وتقبلت الهناء عليه.

نعم لقد أذنت وأذن معشرك ، لا فى بلادكم وحدها ، بل فى جميع رقاع العالم ، بأن مصر والقناة التى تسلكها بين البحرين، وأن السودان من قسمكم، كما أضحت الحبشة والصومال والأريتريا من حُرّ ملككم ، لا ينازعكم على ذلك منازع ، ولا يستطيع أن يدافعكم عن شىء منه مدافع .. ولقد سكنتم إلى هذا واطمأننتم إليه ؛ وخلتم أنكم قد فرغتم من الشغل به .. وما لكم تشغلون البال بما حصل فى أيديكم ومكنت لكم القوة الساطية منه تمكينا ؟

أمهلك الله وقومك وأمْلى لكم ، حتى بلغتم من حسن الظن بالأيام هذا المدى. أليس أعداؤكم الأنجليز قد خشوا بأسكم فسبقوا إخلاء وجه الصومال لكم كما خلوا بينكم وبين السلوم وسيدى برانى فاحتللتموهما فى غير جهد ولا قتال ؟

إذاً لقد تم الأمر لكم وسوف تحققون مناكم فى يسير من الزمان ، حتى لقد واعد كثير من جنودكم خطيباتهم قضاء شهر العسل ، بعد أسابيع أو بعد أيام، على ضفة النيل ، والنعيم فى واديه الجميل !

ثم ما فعل الله يا ماريشال بامبراطورية الرومان ؟

هذا قرينك " ويفل " يضربك فى كل نهار ضربة ، ولا يقنع بأن يسترجع منك سيدى برانى والسلوم ، بل إنه ليغير على ملككم فى لوبيا ، ففتح بلادها مدينة بعد مدينة ، وليتولى على حصونها واحداً بعد آخر ، ويأسر حامياتها التى حشدت فيلقا بعد فيلق ، ويغنم من المدافع والدبابات والذخائر وسائر آلات الحرب وعتادها لو كنتم تعاقدتم من قبل مع انجلترا على أن توردها مصانعكم إليها بالثمن العاجل ، لعجزت فى هذه الفترة عنه و لم تستطع على شدة حاجتها إلى المال ، الوصول إليه !

ولقد بلغ من خذلان الله لكم أن تظل طائراتكم وهى تعد بالآلاف جاثمة فى أفاحيصها (مطاراتها) التى تعد بالمئات فى انتظار الطائرات البريطانية التى تصبحها وتمسيها كل يوم ؛ حتى إذا أصْلتها ضربا أو تمزيقاً ، وأوسعتها تدميراً وتحريقاً ، عادت إلى حظائرها وكأنها لم تعانِ غزواً ، و لم تلاقِ عدوّاً !

أفتراك يا ماريشال قد تعهدت للأنجليز بأن تعينهَم على تمرين طياريهم فى إصابة الأهداف وتسديد المرامى فنثرت لهم الطيارات فى كل مطار ليتعلموا فيها الرماية فى كل ليل وفى كل نهار ؟

ألا خبرنى بعيشك ؟ لماذا حشدت كل هذه الجيوش ؟ وهى لا تضطلع من أعباء الحرب بأكثر من التسليم ! ولماذا أقمت كل تلك الحصون ؟ وهى لم تقم بأكثر من تفتيح الأبواب للغازى المغير !ولم أرصدت كل هاتيك الموبقات الفواتك من آلات الحروب ؟ إذ هى لم تصنع أكثر من

أن تعد نفسها غنيمة للعدو باردة برود الثلج !

ثم ماذا كنت تصنع أنت يا ماريشال ؟

لم يسمع أحد قط بأنك قمت بهجمة ، أوتحركت لاتقاء صدمة أو أمددت فيلقا رق حبله ، أو أنجدت جيشاً انهد حيله!

أتراك قد جئت إلى أفريقيا لتتفرج فى هذه الحرب لا شأن لك بوضع خطة أو تدبير مكيدة أو سن منهج أو إصدار أمر أو المشورة ولو ساعة الضـــيق ، برأى ؟

صدقنى يا ماريشال فنحن أهل الجنة لا نكذب أبداً صدقنى إذا قلت لـــك إنك لو كنت ماريشالا فى رواية مسرحية وجرى فى أحداثها بعض هذا الذى يجرى فى لوبيا لكان لك من الأثر فى عالم الحقيقة أكثر مما رأى العالم منك فى هذه الحرب إذ لم يكن أقل من أن يصدع الماريشال الممثل كرسيا ، أو يكسر طبقا ، أو يمزق ولو بأسنانه ستارا !

صدقنى يا ماريشال أنك لو كان فى موضعك هِرٌّ لصارع ، أو حمام لدافع وقارع ، أو طفل لنضح ، أو جدى لنطح !

على أنك لم تصنع شيئا من ذلك قط يا حضرة الماريشال الغازى الفـــاتح العظيم !!

جرزيانى لقد قتلتنى مرة واحدة وها أنت ذا تذوق أمرّ ألوان القتل كل يوم عشرين مرة !

ها أنت ذا يا سند إيطاليا ومعقل آمالها فى ملك روما القديمة لا تفتأ تبـــوء بالفشل بعد الفشل ولا تفيق من لطمة إلا لتستقبل فضيحة أرأيت عذاباً أشد من هذا العذاب وعقابا على الظلم أوجع من هذا العقاب ؟

اللهم إننى لم أكتب إليك هذا شفاء لحقد أو بذلا لضغن ؛ فقد علمت أننا معشر أهل الجنة لا نحقد ولا نطغن ولكن بسطا للعظة ، وضربا للعـــبرة ، وفى الختام أرجو يا حضرة الماريشال أن تنوب عنى فى إزجاء أخلص التهنئات إلى صديقك (موسولينى) قيصر الرومان العظيم !

جنة عدن فى ٢ من محرم عام ١٣٦٠ هـ

أمير المؤمنين يحاصر فى بيته!
نموذج من الأدب الرفيع يوم الفتنة الكبرى!

يوم الدار و"**حصار**" أمير المؤمنين **عثمان رضى الله عنه!**

روى ابن كثير فى " **البداية*والنهاية** " **قال** : أطل عثمان - رضى الله عنه - على من حوله **قائلاً** :

أنشدكم[1] بالله الذى لا اله إلا هو ، تعلمون أن رسول الله ﷺ قال :

"من يبتاع[2] مِربَدَ بنى فلان – غفرالله له– " فابتعته، فأتيت رسول الله ﷺ **فقلت**: إنى قد ابتعته، **فقال** : "اجعله فى مسجدنا وأجره لك" ؟!

قالوا : نعم.

قال :أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو، تعلمون أن رسول الله ﷺ .

قال : "من يبتاع بئر رومة ؟" فابتعتها بكذا وكذا ، فأتيت رسول الله ﷺ .

فقلت : إنى قد ابتعتُها – يعنى بئر رومة.

قال : "أجعلها سِقايه للمسلمين ولك أجرها" ؟!

قالوا : نعم.

قال: أنشُدكم بالله الذى لا إله إلا هو ، تعلمون أن رسول الله(ص) نظــر فى وجوه القوم " يوم جيش العسرة[3] " **فقال** : " من يجهز هؤلاء غفر الله له " فجهزهم حتى ما يفقدون خِطاما ولا عقالا ؟!

قالوا : اللهّم نعم .

قال : اللهم اشهد ، اللهم اشهد .. اللهمَّ اشهد .

(*) عن الإمام أحمد:

(١) أنشدك بالله : أسألك به مقسماً عليه .

(٢) يبتاع : يشترى .و المِربد – بكسر الميم – موقف الإبل و محبسها ، وما يجفف فيه التمر أيضاً مربد ، (جرين) . (٣) يوم غزوة تبوك وكانت فى الحر الشديد والناس فى إنتظار الحصاد. والخطام : بكسر الخاء ، ما يوضع على خطم الجمل ليقاد به وهو الزمام أيضاً. أما العِقال : فحبل أيضاً يعقل به البعير ليبقى باركا.

وفى رواية لعبد الله بن أحمد أنه دعا اثنين ممن ألّبا[1] المحاصرين عليه **فقال** : أنشدكما الله ، أتعلمان أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة ضاق المسجد بأهلـه، **فقال** : "من يشترى هذه البقعة من خالص ماله فيكون فيها كالمسلمين ، وله خير منها فى الجنة" ؟

فاشتريتها من خالص مالى فجعلتها بين المسلمين ، وأنتم تمنعونى أن أصلى فيه ركعتين !

ثم قال : أنشدكم بالله أتعلمون أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة لم يكن فيها بئر يستعذب منه إلا بئر رومة ؟

فقال رسول الله ﷺ : "من يشتريها من خالص ماله فيكون دلـوه فيهـا كدلاء المسلمين وله خير منها فى الجنة ؟"

فاشتريتها من خالص مالى ، وأنتم تمنعونى أن أشرب منها ؟

ثم قال : هل تعلمون أنى صاحب جيش العسرة ؟

قالوا : اللهم نعم !

وهكذا فعلت الوشاية بإمام دار الهجرة !

الإمام مالك " **إمام دار الهجرة** " ، و شيخ المدينة ، و عالم أهل الحجـاز الذى كرم حديثَ رسول الله صلى الله عليه و سلم و منحه ذوْبَ نفسـه ، وخلاصة عمره ، و كرّمه الحديث ، و ألقى إليه مقاليده حتى أصـبح "**إمـام الحديث** "و زعيم مدرسته بين علماء الإسلام ، و المحدّثين من رجالـه — لم يحاول أن يُسْهِمَ فى السياسة و الحكم إلا فى نطاق الشريعة ، وفى هدْى مـن روح الإسلام مما عرّضه للأذى شأنه فى ذلك شأن أبى حنيفة النعمانى !

وإن كان أبو حنيفه قد تعرض للأذى مرتين ، أما " الإمام مالـك "فقـد تعرض للأذى مرة واحدة .. جُرّد فيها من ثيابه ، و ضرب بالسياط ، ومُدّت يده حتى خُلِعَتْ كَتِفُه !

---

(١) ألّبا : حرضا.

وإذا عرف السبب ازداد العجب !!

ذات يوم كان الإمام مالك يحدث بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" ليس على مُسْتكْرَهٍ يمين "

فقال الوُشاةُ لجعفر بن سليمان عم الخليفة أبي جعفر المنصور :

" إن مالكا لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء "

و معنىهذا أن مالك يُفتي بأن ما أبرمتموه من بيعة الناس ، واستخلفتموهم- استكراه ، ينقضه مالك بفتواه !

فغضب جعفر ، و كان ما كان من الأذى الذى لحق بمالك رضى الله عنه!

وأصر مالك على فتواه ، و صحة حديث رسول الله ، وأهاج الأذى الذى لحق به خواطر الناس ، و بلغ بهم الغضب مبلغا أقلق المنصور نفسه ، واضطره إلى عزل " **جعفر** " من ولاية المدينة ، وأرسل للإمام يستقدمه ، و لكنه اعتذر عن ترك المدينة !!

وتأجل اللقاء إلى موسم الحج ، فكان فى استرضاء الخليفة " **أبى جعفر المنصور** " لمالك من التكريم ما جعل مالك يغفر هذه الزلة للحكم العباسى ، و يثنى على المنصور و علمه و فضله !

أبو حنيفة النعمان فى السجن !

إنه الذى يقول فيه الإمام مالك حين سئل عنه :

"**لم أر مثله فى إقامة الحجة ، ولقد وُفق له الفقه حتى ما عليه فيه كثير مؤنة** " و فى هذا شهادة بعلمه وفضله .

ويقول فيه الإمام الشافعى - أيضاً " **الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة**"

وفيه يقول ابن المبارك: " **ما رأيت أفقه من أبى حنيفة** " .

ويقول الرشيد : "**إن أبا حنيفة كان ينظر بعين عقله ما لايراه سواه بعين رأسه** " !

ولا عجب فقد كان أبو حنيفة مثلا رائعا رفيعا فى تعبُّده وتقواه ، وورعـــه وأمانته وعفة لسانه !

ومن أمثلة ورعه وزهده إباؤه أن يتولى منصب القضاة أوبيت المال خشـــية التأثم فى ظلم أحد من الناس .

وقد احتمل فى سبيل امتناعه عن تولى مثل هذه المناصب الرفيعة كثيرا مـــن عنت الحكام ، فضرب ضربا مُبَرِّحا ، وجلد بالسياط وحبس !

فما لانت له قناة ، ولاتخلى عن ورعه وتقواه !

وظل - على رغم معاناته لهذه الأهوال و المتاعب — مصمماعلى رأيـــه فى رفضه توليها !

و كان يقول كلمته الخالدة :

" الضرب بالسياط فى الدنيا أهون من مقامع[1] الحديد فى الآخرة !

ومما رواه المؤرخون فى ذلك ! أن يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العـــراقَيْن : (البصرة والكوفة) فى زمن "مروان بن محمد" طلبه لتولى " **قضاء الكوفة** " أو "**رياسة بيت المال**"، فأبى ، فضربه مائة سوط كل يوم عشرة أسواط ، وهـــو مصر على الامتناع ، فلما رأى إصراره خلّى سبيله !

وكذلك استدعاه "**الخليفة المنصور**" إلى بغداد ليوليه قضاءها فأبى فحلـــف عليه ليفعلن ، فحلف ألايفعل !

فحلف عليه المنصور ليفعلن ، فحلف أبو حنيفة ألايفعل ! وقال لن أصلح للقضاء !

فقال الربيع بن يونس وزير المنصور وحاجبه :ألاترى أمير المؤمنين يحلف؟!

فقال أبوحنيفة : أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر مني على كفـــارة أيماني ، وأَبَى أن يَليَ هذا العمل فسيق إلى السجن ، وقد توفى فى محبسه !!

(١) المقامع: جمع مقمعة وهي خشبة ، أو حديدة معوجة الرأس يضرب بها رأس الفيل ونحوه ليذل ويها ، وفى التنزيل العزيز : ﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ [الحج : ٢١] .

وتقول بعض الروايات : إن الخليفة استدعاه من سجنه يوما ، وأعاد عليه طلب تولى القضاء ، **فقال** : أصلح الله الأمير..إني لا أصلح للقضاء ! **فقال له الخليفة** : كذبت ! وأعاد له طلب ذلك مرة ثانية !

فقال أبو حنيفة : قد حكمت عليّ يا أمير المؤمنين أني لا أصلح للقضاء،لأنك تنسبني إلى الكذب!

فإن كنت كاذبا فذلك دليل على أني لا أصلح للقضاء ! وإن كنت صادقا فيما أخبرت به أمير المؤمنين ، فذلك يقطع بأني لا أصلح لهذا الأمر !

فرده الخليفة إلى الحبس !

وأراك تقول : ما سر هذا الرفض ؟ لعله ما كان يراه من إقدام أحد المتقاضين على اليمين الباطلة ، و أكل أموال الناس بالباطل وهو التقي الورع الطاهر !

الإمام ابن حنبل .. والمحنة الكبرى !!

إنه الإمام **أحمد بن حنبل** الذى يقول فيه ابن العماد الحنبلى :"**كان إماما فى الحديث وضروبه.. إماما فى الفقه ودقائقه.. إماما فى السنة ودقائقها .. إماما فى الورع وغوامضه ..إماما فى الزهد وحقائقه** "!!

وعاصر الفتنة التى نجمت على عهد "**المأمون**" وامتدت إلى أيام "**المتوكل**"!

وهى فتنة "**القول بخَلْق القرآن** " تلك التى دعا إليها "**المأمون**" مدفوعا بآراء المعتزلة !

وشاء الله أن يُمتحَن فيها كثير من العلماء ،فمنهم من استجاب للخليفة ،فكان مقربا موصولا .

ومنهم من التجأ إلى "التّقّية"[1] فعاش فى أمن وعافية !

ومنهم من أصرّ على أن القرآن غير مخلوق ، باعتباره كلام الله ، فوقع عليه العذاب والتنكيل !

---

(١) التقية عند بعض الفرق الإسلامية : إخفاء الحق ، ومصانعة الناس فى غير دولتهم تحرزا من التلف .

وكان من أصرحهم قولا ، وأجهرهم رأيا، وأعظمهم ثباتا : **الإمام أحمد ابن حنبل !**

فقد كان جزاؤه أن أوذى فى ذلك أعظم الإيذاء ، وسُجن وعُذب سنوات.. سيق إلى المأمون" مكبلا بالأغلال للمثول بين يديه "**بطرسوس**" ولكنه وهو فى طريقه إليه أتاه نعيه !

فأعيد إلى السجن و التعذيب ،واستمر يعانى هذا البلاء طوال عهد المعتصم والواثق !

و لم يرتفع عنه سوط العذاب إلافى عصر "**المتوكل**" حينما أخذ بمذهب أهل السنة ، فأمر بإخراج أحمد بن حنبل من السجن ، وكرمه وأدناه ، وقدر فيه العلم والتقى والورع الشديد ! فيالها من محنة! وأراك فى لهف على معرفة ما أحاط بتلك المحنة فتعال إلى ابن كثير ليصورها لنا بشىء من التفصيل .

يحكى ابن كثير فى " **البداية والنهاية** " ما جاء فى محنة أبى عبد الله أحمد بن حنبل تلك التجربة المرة فيقول :

وذلك فى أيام "**المأمون**" ، ثم "**المعتصم**" ، ثم " **الواثق**" بسبب القرآن ، وما أصابه من الحبس الطويل ، والضرب الشديد ، والتهديد بالقتل بسوء العذاب، وأليم العقاب ، وقلة مبالاته بما كان منهم فى ذلك إليه ، وصبره عليه وتمسكه بما كان عليه من التّدين القويم ، والصراط المستقيم .

وكان "**أحمد**" عالما بما ورد بمثل حاله من الآيات المتلوة، والأخبار المأثورة .

وبلغه ما أُوصى به فى المنام واليقظة ، فرضى وسلم إيمانا واحتسابا، وفاز بخير الدنيا ونعيم الآخرة !

وهيأه الله بما آتاه من ذلك لبلوغ أعلى منازل أهل البلاء فى الله من أوليائه، وألحق به مُحبيه فيما نال من كرامة الله تعالى إن شاء الله من غير بلية ، وبالله التوفيق و العصمة .

قال تعالى : **بسم الله الرحمن الرحيم**

﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾

[الآيات من ١ : ٣ من سورة العنكبوت] .

وقال الله تعالى:

﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الأية: ١٧سورة لقمان]

وسواها كثير فى معنى ما كتبنا؛ وقد روى الإمام أحمد المُمْتَحَن فى مُسْنَده قائلا : بسنده عن سعد قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أىُّ الناسِ أشدُ بلاء ؟ فقال :

"الأنبياءُ ثم الأمثلُ فالأمثلُ ، يبتَلى اللهُ الرجلَ على حسَب دينه ، فإن كان رقيق الدينِ ابْتُلِىَ على حسَب ذلك ، وان كان صَلْبَ الدين ابتلى على حسَب ذلك . وما يزالُ البلاءُ بالرجل حتى يمشىَ على الأرضِ وما عليه خطيئةٌ " .

وقد روى مسلم فى صحيحه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **" ثلاثةٌ من كُنّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان ! مَن كانَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما . وأن يُحبَّ المرءَ لا يحبه إلا لله .وأن يُقذفَ فى النار أحبّ إليه من أن يرجعَ إلى الكفرِ بعد أن أنقذه الله منه "**

[أخرجاه فى الصحيحين] .

وقال أبو القاسم البغوى : حدثنا أحمد بن حنبل .. عن عاصم بن حميد قال : سمعت معاذ بن جبل يقول : " إنكم لم تَرَوْا إلا بلاءً وفتنةً ، ولن يزداد الأمرُ إلا شدةً ، ولا الأنفسُ إلا شُحًّا "وبه قال معاذ لن تروا من الأئمة إلا غِلْظة ، ولن تروا أمراً يهولكم ويشتد عليكم إلا حضر بعده ما هو أشدُّ منه".

قال البغوى : سمعت أحمد يقول : " اللهمَّ رَضِّنا " .

وروى البيهقى عن الربيع قال : بعثنى الشافعى بكتاب من مصر إلى أحمد ابن حنبل ، فأتيته وقد انفتل[1] من صلاة الفجر ، فدفعت إليه الكتاب ، فقال : أقرأته ؟ فقلت : لا. فأخذه فقرأه فدمعت عيناه ! فقلت : يا أبا عبدالله ، ما فيه ؟

قال : يذكر أنه رأى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى المنام فقال :

" أكتب إلى أبى عبد الله : أحمد بن حنبل ، واقرأ عليه منى السلام ؛ وقل له : "إنك ستمتحن، وتدعى إلى القول بخلق القرآن ، فلا تجبهم ، يرفع الله لك عَلماً إلى يوم القيامة "

قال الربيع : فقلت : حلاوة البشارة !

فخلع قميصه الذى يلى جسده فأعطانيه ، فلما رجعت إلى الشافعى أخبرته، فقال :

إنى لست أفجعك فيه ، ولكن بلّه بالماء ، وأعطنيه ، حتى أتبرك به .

ويذكر ابن كثير ملخص الفتنة والمحنة مجموعا من كلام أئمة السنة — أثابهم الله الجنة — فيقول:

قد ذكرنا فيما تقدم أن المأمون قد استحوذ عليه جماعة من المعتزلة فأزاغوه عن طريق الحق إلى الباطل وزينوا له القول " بخلق القرآن " ، ونفى الصفات عن الله عز وجل .

قال البيهقى : ولم يكن فى الخلفاء قبله من بنى أميّة وبنى العباس خليفة إلا على مذهب السلف ومنهاجهم .

فلما ولى هو الخلافة اجتمع به هؤلاء فحملوه على ذلك . وزينوا له .

واتفق خروجه إلى " طرسوس " لغزو الروم ، فكتب إلى نائبه ببغداد يأمره أن يدعو الناس إلى القول بخلق القرآن !

(١) انفتل : انصرف .

واتفق له ذلك آخر عمره قبل موته بشهور من سنة ثمانى عشر ومائتين .

فلما وصل الكتاب استدعى جماعة من أئمة الحديث فدعاهم إلى ذلك ، فامتنعوا ، فتهددهم بالضرب ، وقطع الأرزاق ، فأجاب أكثرهم مكرهين !

واستمر على الامتناع من ذلك الإمام أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح الجُند يسابورى ، فحُملا على بعير، وسُيرا إلى الخليفة عن أمره بذلك،وهما مقيدان متعادلان[1] فى محمل على بعير واحد.

فلما كانا ببلاد الرحبة جاءهما رجل من الأعراب من عُبّادهم يقال له : جابر بن عامر ، فسلم على الإمام أحمد وقال له : " ياهذا ! إنك وافد الناس ، فلا تكن شؤما عليهم ، وإنك رأس الناس اليوم ، فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه فيجيبوا ، فتحملَ أوزارَهم يوم القيامة ! وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه ، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تُقتل ، و إنك إن لم تقتل تمت ، وإن عشت عشت حميدا "

قال أحمد : وكان كلامُه مما قوى عزمى على ما أنا فيه من الامتناع من ذلك الذى يدعوننى إليه .

فلما اقتربا من جيش الخليفة ، ونزلوا دونه بمرحلة [2] جاء خادم وهو يمسح دموعه بطرف ثوبه ويقول :

يعز علىّ يا أبا عبد الله أن المأمون قد سلّ سيفا لم يسلّه قبل ذلك ، وإنه يقسم بقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك السيف !

قال : فجثا أحمد على ركبتيه ، ورمق بطرفه إلى السماء وقال :

" سيدى أغَرّ حِلمُك هذا الفاجر حتى تجرأ على أوليائك بالضربِ و القتلِ !

(١) كل واحد منهما على أحد جنبى البعير فى العِدْل ، وهو نصف الحمل .

(٢) المرحلة : المسافة تقطع على نحو يوم .

اللهمّ فإن يكن القرآنُ كلامَك غيرَ مخلوق فاكفنا مؤنته "

قال : فجاءهم الصريخ بموت المأمون فى الثلث الأخير من الليل !

قال أحمد : ففرحنا ، ثم جاء الخبر بأن " المعتصمَ " قد وُلّى الخلافة ، وقد انضم إليه " أحمد بن أبى دؤاد[1] " وأن الأمر شديد جدا .

فردونا إلى بغداد فى سفينة مع بعض الأسارى ، ونالنى منهم أذى كثيراً .

وكان فى رجليه القيود ، ومات صاحبه " محمد بن نوح " فى الطريق وصلى عليه أحمد .

فلما رجع أحمد إلى بَغداد دخلها فى رمضانَ فأُودع فى السجن نحوا من ثمانية وعشرين شهرا . وقيل نيّفاً وثلاثين شهرا ، ثم أخرج إلى الضرب بين يدى المعتصم!!

وقد كان أحمد وهو فى السجن هو الذي يصلى فى أهل السجن و القيود فى رجليه .

وفى سجن المعتصم تعرض لكثير من الضرب بالسياط و الأذى حتى أغمى عليه مرارا وهو صائم فلم تَلن له قناة .

ويروى أنه لما أقيم ليضرب انقطعت تكة سراويله فخشى أن يسقط سراويله فتكشف عورته ، فحرك شفتيه فدعا الله قائلا : **ياغياث المستغيثين ، يا إلهَ العالَمين ، إن كنت تعلم أنى قائم لك بحق فلا تهتك لى عَورة !**

فعاد سراويلُه كما كان ! وأخيرا حُمِلَ من دار الخلافة إلى دار إسحاق بن إبراهيم ، وهو صائم فأتم صومه ، ورفض تناول أى شىء ، فأعيد إلى منزله .

وندم المعتصم على ما كان منه لأحمد ، فلما عوفى فرح المعتصم و المسلمون بذلك ، وجعل كلٌّ من أذاه فى حِل إلا أهل البدعة ، وكان يتلو قول الله :

﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾ [سورة النور: ٢٢]

وماذا عن الإمام الشافعى .. تعالَ لنرى ما حدث له !

(١) معتزلى كان يتولى قضاء المظالم فهو قاضى القضاة .

الفتنة التى كادت تقضى على الإمام الشافعى!

تردد الشافعى بين مكة والمدينة يأخذ عن الشيوخ ، ولم يلبث أن ترامت أخباره إلى علماء الإسلام فى عصره !

ولما توفى "**مالك بن أنس**" وكان يتعهده علميا وماديا أزمع الشافعى الرحلة إلى اليمن ، وفى ذلك يقول : لما مات مالك كنت فقيرا ، فاتفق أنَّ "**والى اليمن**" قدم المدينة ، فكلّمه بعض القريشيين أن أصحبه ، فذهبت معه ، واستعملنى فى أعمال كثيرة ، وحُمدت فيها ، والناس أثنوا علىّ!

وفى اليمن أخذ الشافعى العلم عن جماعة منهم **مطرق بن مازن الصنعانى وعمرو بن أبى سلمة** لكن فتنة حدثت ايام الرشيد فحُمل الشافعى إلى بغداد مطلوبا من الرشيد متهما بالتشيع[1]

كان ذلك سنة ١٨٤هـ حيث يدخل العراق لأول مرة !

وأدخل على الرشيد فى تسعة من العلوية كان عاشرَهم !

وأمر الرشيد بضرب أعناق من كان معه !

قال الشافعى : " ثم قُدِّمت ومحمد بن الحسن (قاضى الرشيد) جالس ، **فقلت** : يا أمير المؤمنين؛ لستُ بطاَلبِىّ ، ولا عَلَوِىّ ، وإنما أُدخلت فى القوم بغيا علىَّ.

وإنما أنا رجل من بنى المطلب بن عبد مناف بن قُصَى ، ولى مع ذلك حظ من العلم والفقه ، والقاضى[2] يعرف ذلك !

وأنا محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد ابن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف ، فقال لى : أنت محمد بن إدريس ؟!

فقلت : نعم يا أمير المؤمنين !

---

(١) التشيع: انتحال مذهب الشيعة ، وأصحابه يجتمعون على حب على وآله وأحقيتهم بالإمامة.. مخالفين فى ذلك مذهب أهل السنة.

(٢) يقصد: محمد بن الحسن حيث كان يلازمه فى درس مالك.

قال : ما ذكرك لى محمد بن الحسن !

ثم عطف على محمد بن الحسن ، فقال : ما يقول هذا هو كما يقوله !!

قال : بَلَى ، وله من العلم محلّ كبير ! ، وليس الذى رُفع عليه من شأنه[1]!

قال : فخذه إليك حتى أنظرَ فى أمره !"

ويقول الشافعى : " فأخذنى محمد وكان سبب خلاصى لَمَّا أراد الله عز وجل !"

وظعن[2] الشافعى من بغداد ليعود إليها فى سنة ١٩٥هـ بعد أن سار ذكره فى الآفاق ، وأذعن بفضله الموافقون والمخالفون !

بعد أن نجاه الله من الفتنة التى كادت تطيح به وتحرم الدنيا من علمه!

ما لى ولسعيد بن جبير؟!

كان الحجاج فى مدة مرضه إذا نام رأى **"سعيد بن جُبير"** آخذا بمجامع ثوبه ، وهو يقول : **يا عدوّ الله ! فيم قتلتنى ؟!**

فيستيقظ مذعورا ويقول : **مالى ولسعيد بن جبير ؟!**

فماذا كان بينهما ؟

لقد كان سعيد بن جبير وارث علم عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر، وأحد أعلام التابعين.

ولكنه كان مع **"عبد الرحمن بن الأشعث "** حين خرج على الخليفة **"عبد الملك بن مروان"** لعَسْفه وإسرافه فى القتل!

فلما انهزم **" ابن الأشعث"** فى واقعة **"دير الجماجم"** وقُتِلَ ، لحق **"سعيد"** بمكة ، فقبَض عليه واليها حين ذاك **"خالد بن عبد الله القسرى"** وبعث به إلى **الحجاج بن يوسف الثقفى** ، فقال له :

ما اسمك ؟

---

(١) ليس من شأنه ما رفع عليه: هو غير متهم فيما نسب إليه من التشيع.

(٢) رحل وسافر.

قال : سعيد بن جُبير.

فقال الحجاج : بل أنت شقى بن كُسَيْر!

قال : بل كانت أمى أعلمَ باسمى منك !

قال : شَقِيَتْ أمك ، وشَقِيتَ أنت !

قال : الغيب يعلمه الله !

قال : لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظّى !

قال : لو علمتُ ذلك لاتخذتك إلها.

قال : فما قولك فى محمد ؟

قال : نبى الرحمة وإمام الهدى.

قال : فما قولك فى على ؟ أهو فى الجنة أم هو فى النار ؟

قال : لو دخلتها وعرفت من فيها عرفت أهلها !

قال : فما قولك فى الخلفاء ؟

قال : لستُ عليهم بوكيل.

قال : فأيهم أحبّ إليك ؟

قال : أرضاهم لخالقى.

قال : فأيهم أرضى للخالق ؟

قال : علم ذلك عند الذى يعلم سرهم ونجواهم.

قال : أُحِبُّ أن تصدُقنى.

قال : إن لم أحبك لم أكذب عليك.

قال : فما بالك لم تضحك ؟!

قال : وكيف يضحك مخلوق من طين ، والطين تأكله النار ؟!

قال : فما بالنا نضحك ؟

قال : لم تستوِ القلوب.

قال الحجاج : **ويلك يا سعيدُ !**

قال : **لا ويلَ لمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة !**

قال الحجاج : **اختر يا سعيد أيَّ قتْلة أقتلك.**

قال : **اختر لنفسك يا حجاج ، فوالله لا تقتلنى قتلة إلا قتلك الله مثلها فى الآخرة !**

قال : **أفتريد أن أعفوَ عنك ؟**

قال : **إن كان العفو فمن الله ، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر!**

قال الحجاج : **اذهبوا به فاقتلوه ! فلما خرج ضحك !**

فأُخبر الحجاج بذلك ، فرده وقال : **ما أضحكك ؟!**

قال : **عجبت من جَرَاءتك على الله ، وحِلمِ الله عليك !**

فأمر الحجاج بالنِّطْع(١) فبسط ، وقال : **اقتلوه !**

فقال سعيد : **﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [الأنعـــام : ٧٩]

قال : **وجهوا به لغير القبلة.**

قال سعيد : **﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾** [البقـــرة : ١١٥]

قال : كُبّوه على وجهه.

قال سعيد: **﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾** [طـــه : ٥٥]

قال الحجاج : **اذبحوه !**

قال سعيد : **أما إنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله. خذها منى حتى تلقانى بها يوم القيامة !**

ثم دعا سعيد فقال : **اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدى !**

---

(١) جلد يوضع تحت المحكوم بقتله.

ولما حضرت الحجاج الوفاة كان يغيب ، ثم يُفيق ، ويقول : **مالى ولسعيد ابن جبير ؟!!**

وكان فى مدة مرضه إذا نام رأى سعيدا آخذا بمجامع ثوبه ، ويقول له : **يا عدوَّ الله ؛ فيم قتلتنى**، فيستيقظ مذعورا ويقول : **مالى ولسعيد بن جبير !!**

يرحم الله "سعيدَ بن جبير" كان من أحفظ الناس للقرآن الكريم .. كما كان أعلمهم بالحديث والحلال والحرام !!

ابن تيمية .. الفقيه السجين

ملأ الدنيا بعلمه وفقهه ، ولفت الأنظار إليه ... أنظار المعجبين بعلمه وفتاواه ، وأنظار الحاقدين الغيورين.. فأخذ خصومه يبحثون كل ما كتبه ... فتحداهم ساخرا منهم، فقرروا الخلاص منه!

لقد حاول الشيخ الاجتهاد مستنبطا أحكاما مستقلة ليرفع عن الناس الظلم والحرج من فتاوى "الفقهاء الجامدين المقلدين" عسى أن تنضبط أمور الدين بقواعد الشريعة السمحة.

واستعدى عليه مخالفوه السلطان ... وأصدر السلطان مرسوما بمنع ابن تيمية من الإفتاء ، وعزله من التدريس ، وسجنه فى " **قلعة دمشق** " عقابا له على عصيان أوامر السلطان !

و لم يكن الشيخ حديث عهد بالسجن بل سبق له أن سجن ! ولبث فى السجن نحو خمسة أشهر ، وتشفع فيه عدد من أصدقائه ، ومازالوا بالسلطان حتى أفرج عنه ، وأعاده إلى مَنصبه !

فاستمر يُفتى متحديا خصومه ، مزريا بهم ، ساخرا منهم ، فقرروا الخلاص منه ثانية ، وأثارت إحدى فتاواه العامةَ والخاصةَ على السواء !

فأخليت للشيخ قاعة فسيحة ، فى قلعة دمشق ، وأجرى إليها الماء ، وأقام معه أخوه يخدمه بإذن السلطان ، وأجرى عليه ما يقوم بكفايته ، وقد أبـــدى الشيخ فرحه بالسجن فقال :

" **أنا كنت منتظرا ذلك ، وهذا فيه خير كثير ، ومصلحة كبيرة** " وزاره والى دمشق ، لما بلغه أنه مريض ، وأخذ يعتذر للشيخ ، فقال الشيخ " **إنى قد أحللتك وجميع من عادانى ، وهو لا يعلم أنى على الحق ، وأحللت السلطان المعظم الملك الناصر من حبسه إياى لكونه فعل ذلك مقلدا معـــذورا ، ولم يفعله لحظ نفسه ، وقد أحللت كل أحد مما بينى وبينه إلا من كان عدوا لله ورسوله** ".

وحُمل للشيخ جميع ما طلب من كتب وأوراق وأقلام ، فعكف على كتبه ينقّحها ، ويُحْكِمها ، ويعيد قراءة القرآن ، ويتأمل فيه ، ويقوم ليله متعبـــدا قائلا :

" **لا تُنالُ الإمامة فى الدين إلا بالفقر والصبر !** "

وبدأ يفسر القرآن الكريم ، ويفنّد فى عنف آراء مخالفيه فى أمور الاعتقاد ، ويرسل كتاباته إلى أتباعه وأصدقائه خارج السجن ، فيقرءونها على النـــاس ، وينظرون فيها !

وضاق خصومه بهذا ، فما جدوى سجن الشيخ إن كانت آراؤه وكتاباته مازالت تصل إلى أيدى الناس ... ويُقبلون عليها !!

وأنكر القاضى المالكى لدى السلطان فتاواه ، والسماح للشيخ بالكتابـــة ، وتداول أفكاره ، وما سجن إلا لحماية العباد من شر هذه الأفكـــار ، فـــأمر السلطان بإخراج ما كان لدى الشيخ من الكتب والأوراق والمحابر والأقلام !

وعلم فقهاء العراق بما جرى للشيخ ، فأرســـلوا إلى الســـلطان خطابـــا يلتمسون فيه العفو عن ابن تيمية ، ووقعه فقهاء المذاهب الأربعة جميعاً قـــالوا فيه ... " **إن اعتقال الشيخ عظم على المسلمين ، وشق على ذوى الدين ، وارتفعت رءوس الملحدين ، وطابت نفوس أهل الأهواء والمبتدعين ...** "

ولكن السلطان لم يجبهم !!

وحاول الشيخ أن يتعود الحياة بلا كتابة ، ولكنه لم يستطع ! وأصابه الهزال، وسئمت نفسُه ، وسلّم أمره إلى الله ، وأخذ يقضى وقته فى العبادة وتلاوة القرآن.

وذات يوم أراد أن يكتب بعض خواطره ، فسأل السجان ورقا وقلما ، فقدم إليه السجان قطعة من الفحم ، ورقعة صغيرة من الورق ، فكتب :

" نحن ولله الحمد – فى عظيم الجهاد فى سبيله ... وذلك من أعظم نعم الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ".

وظل الشيخ فى سجنه نحو عامين ممنوعا من القراءة والكتابة لايستطيع أن يكتب إلا بالفحم على رقع صغيرة من الورق تهرب إليه !

ولكنه لم يحتمل طويلا وطأة المنع من الكتابة والتفكير !

وفى ليلة الاثنين والعشرين من شهر ذى القعدة عام ٧٦٨ كان يتلو **﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ* فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾**

[القمر : ٥٤ – ٥٥]

ففاضت روحه فى سجنه عند هذه الآية الكريمة !

وخرجت دمشق كلها برجالها ونسائها وأطفالها تودعه ، وتبكيه وتشيعه إلى مثواه الأخير .

وهكذا يدفع العلماء والفقهاء ثمن اجتهادهم !!

وستظل شخصية ابن تيمية شخصية الباحث المحقق ، المعتد بكلمته ، المكافح دونها صاحب التصانيف التى بلغت الخمسمائة مجلدة ! ومع هذا مات فى سجنه لأنه لم يجامل السلطان فى فتواه ، ولم يقبل أن يترضاه على حساب الدين . ولم يخش إلا الله !

الشيخ أبو العيون ..
الكاتب الجرىء الذى فضح الإنجليز !

إنه الشيخ " **محمود أبو العيون** " ذلك الرائد الذى عرف بدعوة الإصلاح الاجتماعى فى ميادين متعددة كان أبرزها الدعوة إلى " **تحريم البغاء** ".

وقد أحدثت مقالاته " مذابح الأعراض " أثرها ، وانتهت إلى صدور قرار بحظر بقاء البغاء ، وضرورة إلغائه !

هذا هو الجانب الذى عرف عن الشيخ محمود أبو العيون ، غير أن هناك جانباً آخر أشد خطرا، وأبعد أثرا هو مقالاته التى هاجم بها الاستعمار فى يناير ١٩٢٢ ونشرها فى الأهرام القاهرية.

ولا عجب فقد كان الشيخ أبو العيون أحد خطباء ثورة ١٩ فى الأزهر الذى كان معقل الثورة مما أدى إلى اعتقاله فى سجن قصر النيل حتى عام ١٩٢١ ، ولم يتوقف عمله حتى خلال الاعتقال فى مواصلة حملته على الإنجليز، فلقد أرسل من معتقله إلى " اللورد ملنر " عند زيارته لمصر لبحث أسباب ثورة ١٩١٩ يقول :

" المصريون لا يقبلون مساومة بطريق المزايدة ، ولا بدلا مهما علت قيمته ، ولا يفزعهم ما تكرر على مرأى منك ومسمع من قتل الأطفال ، وذبح الشيوخ ، وسجن الأحرار ، وهتك حرمات المعابد "!

وما كاد يخرج من معتقله حتى واصل حملته ! وما كادت بريطانيا تعلن تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ حتى كتب يقول :

" إن إنجلترا تعلن استقلالنا وحريتنا ، ولسنا بالمستقلين ولا بالأحرار ... تعلن ذلك وسيوفها فى أعناقنا ، ورماحها فى صدورنا ، ومدافعها مصوبة على قلاعنا وبيوتنا ، يدفعوننا إلى التعجيل بالانتخاب لتوقيع صك استعبادنا بأيدينا ، وبدماء الشهداء ، ولتقرير موتنا بأنفسنا مرغمين ".

وقد وصف الإنجليز فى مقالاته بقوله : " **إنهم أول أمة عرفناها فى التاريخ أتقنت فن الدس والخداع ، واتخذت من ذلك سلاحا تصرع به خصومها ، وتنازل به أعداءها ، وما رأيناها صـريحة فى عمـل إلا انـتقض قولهـا ، واضطرب حبلها** "

وكان لهذه المقالات التى أطلق عليها " **الصـفحات السـوداء** " أثرهـا وصداها فى دوائر الاستعمار مما أدى إلى التحقيق مع الشيخ ونقله إلى خـارج القاهرة .ولكن الشيخ لم يتوقف حتى توفى فى ٣١ نوفمبر ١٩٥١م رحمـه الله رحمة واسعة بقدر ما واجه أعداء البلاد وفضح ألاعيبهم وحيلهم!

يزيد بن المهلب .. هارب من سجن الحجاج !

فى سنة تسعين من الهجرة هرب **يزيد بن المهلب** وأخواه : **المفضل وعبـد الملك** من سجن الحجاج، فلحقوا بسليمان بن عبد الملك فأمّنهم من الحجاج!

فكيف تم لهم ذلك ، والحجاج كان قد احتاط عليهم ، وعاقبهم عقوبـة عظيمة ، وأخذ منهم ستة آلاف ألف ؟!

يقول ابن كثير فى " **البداية والنهاية** " : كان يزيد بن المهلب أصبرهم على العقوبة .. كان لا يسمع له صوت ، ولو فعلوا به ما فعلوا نكاية لـذلك .. وكان ذلك يغيظ الحجاج !

قال قائل للحجاج : **إن فى ساقه أَثَرَ نُشّابة بقى نصلها فيه ، وأنـه مـتى أصابها شىء لا يملك نفسه أن يصرخ ، فأمر** الحجاج أن ينال ذلك الموضـع منه بعذاب! فصاح ، فلما سمعت أخته "**هند بنت المهلب**" — وكانت تحـت الحجاج — صوته بكت وناحت عليه ، فطلقها الحجاج ، ثم أودعهم السجن!

ثم خرج الحجاج إلى بعض المحالّ لينفذ جيشا إلى الأكراد ، واستصـحبهم معه.

فخندق حولهم ، ووكّل بهم الحرس ، فلما كان فى بعض الليالى أمر يزيـد ابن المهلب بطعام كثير، فصنع للحرس ، ثم تنكر فى هيئة الطباخين ، وجعـل

لحيته لحية بيضاء ، وخرج ، فرآه بعض الحرس ، فقال : **ما رأيت مِشية أشبه بمشية "يزيد بن المهلب" من هذا ؟!**

ثم تبعه يتحققه ، فلما رأى بياض لحيته انصرف عنه ، ثم لحقه أخواه ، فركبوا السفن ، وساروا نحو الشام !

فلما بلغ الحجاج هَرَبُهم انزعج لذلك ، وذَهب وهْمُه أنهم ساروا إلى خُراسان !

فكتب إلى " **قُتيبةَ بن مسلم**" يحذّره قدومهم ، ويأمره بالاستعداد لهم ، وأن يرصدهم فى كل مكان ، ويكتب إلى أمراء الثغور (المـوانئ) والكُـوَر (المدن والعواصم) بتحصيلهم !

وكتب إلى أمير المؤمنين يخبره بهربهم ، وأنه لا يراهم هربوا إلا إلى خراسان.

وخاف الحجاج من يزيد أن يصنع كما صنع **ابن الأشعث** من الخروج عليه ، وجمع الناس له.

وأما "**يزيد بن المهلب**" فإنه سلك على البطائح ، وجاءته خيول قد أعدها أخوه مروان بن المهلب لهذا اليوم .وجاء الخبر إلى الحجاج بعد يومين — أن يزيد قد سلك طريق الشام ، فكتب إلى " **الوليد**" يُعلمه بذلك.

وسار يزيد حتى نزل الأردُنّ على "**وهيب بن عبد الرحمن الأزدى**" — وكان كريما على "**سليمان بن عبد الملك**" ، فسار وهيب إلى سليمان بن عبد الملك فقال له :

إن يزيد بن المهلب وأخويه فى منزلى ، قد جاءوا مستعيذين بذلك من الحجاج !

قال : **فاذهب فَأْتنى بهم فهم آمنون ما دمتُ حيا** ، فجاءهم فذهب بهم حتى أدخلهم على سليمان بن عبد الملك ، فأمنهم سليمان وكتب إلى أخيه الوليد : **إن " آل المهلب" قد أمنتهم ، وإنما بقى للحجاج عندهم ثلاثة آلاف ألف وهى عندى.**

فكتب إليه الوليد : **والله لا أؤمنه حتى تبعث به إلىّ !**

فكتب إليه : **لا والله لا أبعثه حتى أجيءَ معه !**

فأنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تفضحنى أو تخفرنى فى جوارى ، فكتب إليه : **لا والله لا تجيء معه ، وابعث إلىّ به فى وَثاق !**

فقال يزيد : **ابعث بى إليه فما أحب أن أوقع بينك وبينه عداوة وحربا ، فابعثنى إليه ، وابعث معى ابنك ، واكتب إليه بألطف عبارة تقدر عليها** ، فبعثه ، وبعث ابنه أيوب ، وقال لابنه :

إذا دخلت فى الدهليز فادخل مع يزيد فى السلسلة ، وادْخُلا عليه كذلك.

فلما رأى الوليد ابن أخيه فى السلسلة قال : **والله لقد بلغنا من سليمان!**

ودفع أيوب كتاب أبيه إلى عمه ، وقال :

يا أميرَ المؤمنين ، نفسى فداؤك ، لا تخفر ذمةَ أبى ، وأنت أحق من منعها[1] !

ولا تقطع منا رجاءَ مَن رَجا السلامةَ فى جِوارنا لمكاننا منك !

ولا تُذلّ من رجا العزّ فى الانقطاع إلينا لعزنا بك !

ثم قرأ الوليد كتاب أخيه سليمان بن عبد الملك ، فإذا فيه :

" **أما بعد يا أمير المؤمنين ، فوالله إن كنتُ لأظنُّ لو استجار بى عدو قد نابذك وجاهدك فأنزلتُه وأجَرْتُه أنك لا تُذل جوارى ولا تُخفره ، بل لم أُجره إلا سميعا مطيعا حسن البلاء والأثر فى الإسلام هو وأبوه وأهل بيته !**

وقد بعثت به إليك ، وأنا أُعيذك بالله من احتراد[2] قطيعتى ، وانتهاك حُرمتى ، وترك بِرى ، وإجابتى إلى ما سألتك ، وصلتى !

فوالله يا أمير المؤمنين ما تدرى ما بقائى وبقاؤك ، ولا متى يفرق الموت بينى وبينك !

---

(١) حفظها ورعاها ، وحماها.

(٢) الاحتراد: من الحرد ، وهو القصد.. قال تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ (القلم : ٢٥) وروى من اختيار.

فإن استطاع أمير المؤمنين – أدام الله سروره – ألا يأتى أجـــل الوفـــاةِ علينا، وإلا وهو لى واصل ، ولحقّى مُؤدّ ، وعن مَساءتى نازع – فليفعل. ووالله يا أمير المؤمنين ما أصبحت بشيء من أمر الدنيا – بعد تقوى الله – بأسَرّ منى برضاك وسرورك ، وإن رضاك وسرورك – أحبّ إلى من رضائى وسرورى، ومما ألتمس به رضوانَ الله – عزّ وجلّ – لَصِلَتى ما بينى وبينك، وإن كنت يا أمير المؤمنين – يوما من الدهر – تريد صـــلتى ، وكــرامتى ، وإعظام حقى ، فتجاوز لى عن يزيد ، وكل ما طالبته به فهو علىّ "

فلما قرأ الوليد كتابه قال : **لقد أشفقنا على سليمان** ، ثم دعا ابن أخيه ، فأدناه منه، وتكلم يزيد بن المهلب فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسولهﷺ ثم قال :

"يا أمير المؤمنين ، إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء ، فمن يـــنسَ ذلـــك فلسنا ننساه ، ومن يكفره فلسنا بكافريه ، وقد كان من بلائنا أهل البيت فى طاعتكم ، والطعن فى أعين أعدائكم فى المـــواطن العظـــام فى المشـــارق والمغارب، وإن المنة فيه علينا عظيمة "

فقال له : **اجلس** ، فجلس وأمَّنه ، وكف عنه ورده إلى سليمان و لم يـــزل يزيد بن المهلب عند سليمان بن عبد الملك حتى هلك الحجاج فى سنة خمـــس وتسعين ، ثم ولى يزيد بلاد العراق بعد الحجاج !

وهكذا أفلت من سجن الحجاج ، ووجد من ينصفه ، ويرد له اعتباره !

فمـــا أجمـــل العفـــو عنـــد المقـــدرة !

مصطفى كامل .. الزعيم الشاب
الذى استطاع اقتلاع عرش اللورد كرومر من مصر

لقد دوى صوته فى الآفاق مع صرخة "**زهران**" الفلاح شهيد "**دنشواى**" !

يقول الرافعي : تدل البيانات والدلائل على أن نشأة "**مصطفى كامل**" الوطنية قد ظهرت أول ما ظهرت سنة ١٨٩٠ حين كان لايزال طالبا بالمدرسة الثانوية ، إذ بدأ يشعر بهاتف بين جنبيه يناديه : بأن عليه واجبا نحو مصر يجب أن يؤديه ، ويدعوه إلى الجهاد لتحرير الوطن من الاحتلال الأجنبى!

وفى ١٣ من يونيه ١٩٠٦ وقعت "**حادثة دنشواى**" وهى من حوادث مصر التاريخية التى لا تُنسى على مر السنين ، لما كان لها من الأثر فى تطور الحركة الوطنية ، وفى مركز الاحتلال الانجليزى !

لقد كانت " **نهاية عهد**" كان الاحتلال يتمتع فيه بالاستقرار والطمأنينة ، "**وبداية مرحلة جديدة** " من مراحل الجهاد القومى ، عم فيها الشعور الوطنى بعد أن كان الظن أن سواد الأمة راضٍ عن الاحتلال!

لقد خرج بعض الضباط من جيش الاحتلال الانجليزى بمصر لصيد الحمام، وكانوا كتيبة من ١٥٠ جنديا واتجهوا نحو "**دنشواى**" وهى بلدة بمركز شبين الكوم مشهورة بكثرة حمامها ، وجاس بعضهم خلال أجران القمح فى دنشواى ليصطادوا ما بها من حمام فاشتعلت النار فى الأجران ، وأصاب الرصاص زوجة "**مؤذن القرية** " صاحب الجرن فسقطت تتخبط فى دمها ، فأخذ صاحب الجرن يصيح ويستغيث ، وأقبل الرجال والنساء والأطفال هائجين ، وأحاطوا بالضابط ، وجاء بقية الضباط الانجليز لإنقاذ زميلهم ، فتكاثرت جموع الأهالى ، ووصل شيخ الخفراء لفض الاشتباك ، وتفريق الجموع ، وإنقاذ الضابط ، فتوهم هؤلاء أنهم جاءوا يريدون بهم شرا ، فأطلقوا عليهم الأعيرة النارية ، فأصاب واحد منهم شيخ الخفراء فى فخذه فسقط على الأرض ، وأصاب عيار آخر اثنين من الخفراء ، وحمل الأهالى على الضابط بالطوب والعصى الغليظة ، وأثخنوا من لحقوا بهم من الضباط الإنجليز

ضربا ، فأصيب أحدهم بكسر فى ذراعه، وجرح اثنان جروحا خفيفة !

وسقط أحد الضباط من الإعياء بعد أن قطع نحو ثمانية كيلومترات فى شدة القيظ ، ومات متأثرا من ضربة الشمس.

وثارت ثائرة الاحتلال وجرى التحقيق بمنتهى السرعة !

وصدرت الأوامر بإعداد المشانق ، وإرسالها إلى مكان الواقعة قبل الحكم فيها. وكانت المحكمة مهزلة صورية لا ظل فيها للعدل ، ولا حرمة للقانون !

وحكم بالإعدام شنقا على أربعة من الأهالى ، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين ، وبها لمدة خمس عشرة سنة على واحد ، وبالسجن سبع سنوات على ستة ، وبالحبس مع التشغيل مدة سنة مع الجلد خمسين جلدة على ثلاثة ، وبالجلد خمسين جلدة على خمسة ، وأن يكون الجلد بقرية دنشواى ، وأن يقوم مدير المنوفية بتنفيذ الحكم فورا .. مع أنه لم يقع عدوان من الأهالى بل كان العدوان من الضباط الانجليز ، فلم يقع عدوان من الأهلين إلا بعد أن أصيبت إحدى نسائهم، وحرق جرن لهم ، ولم يمت من الضباط الانجليز سوى ضابط واحد ثبت من تقرير الطبيب الشرعى الإنجليزى أن السبب المباشر فى وفاته هو "**ضربة الشمس**" التى أصابته من شدة الحر!!

لقد نفذ الحكم بطريقة وحشية زادت فظاعة المحاكمة ، وفاقت كل ما يتصوره العقل من وسائل الانتقام والتعذيب!

وكان "**مصطفى كامل**" فى أوربا حين صدور حكم المحكمة المخصوصة فى قضية "**دنشواى**" وقد بلغه أنباء المحاكمة والتنفيذ وهو فى باريس!

وكان لابد من صوت عالٍ يهزّ قلبَ الإنسانية ، ويُشهد العالم على تلك الفظائع ، ويستثير الرأى العامَّ فى مصر وأوربا ضد الاحتلال عامة !

وكان ذلك الصوت هو صوت "**مصطفى كامل**" وأحدثت مقالاته دويا عظيما فى أوربا ، وتناقلتها الصحف فى مختلف البلدان ، وكان لها صدى بعيد فى الرأى العام الأوربى والإنجليزى ، وتزلزل من بعدها مركز اللورد كرومر فى مصر وانجلترا ، وهو الذى كان يعتبر نفسه فى مصر " **الملك غير المتوج** !"

وظلت دنشواى تثير الأحزان كلما مرت ذكراها الأليمة !

ولم ينس الشعراء والأدباء والكتاب سجناء دنشواى ولا شهداءها !

ويعبر أمير الشعراء أحمد شوقى عما تثيره الذكرى فى النفـــوس مـــن آلام وأحزان فيقول فى **ذكرى دنشواى** :

فبعد مرور عام على حادثة دنشواى يقول " شوقى أمير الشعراء" فى سبيل طلب العفو عن سجنائها :

يا دنشواى على رُباك ســـــلام ذهَبَت بأُنْس رُبُوعــك الأيــامُ
شهداءُ حكمك فى البَلاد تفرقوا هيهات للشملِ الشَــتيت نظــامُ
مّرت عليهم فى اللُّحــود أهلّــةٌ ومضى عليهم فى القيود العــامُ
كيف الأراملُ فيك بعــدَ رجَالها وبــأى حــال أصــبحَ الأيتــامُ
عشرون بيتــاً أقفرت وانتابهــا بعد البشلشة وَحْشــةٌ وظــلامُ
يا ليت شعرى فى البروج حمــائمٌ أم فى البروجِ مَنيَّــة وحمــامُ ؟!
(نيرون) لَو أدركتَ عهد (كرومرٍ) لعرفت كيفَ تُنَفّــد الأَحكــام!

نوحى حمائم دنشواىَ ورَوِّعــى شعبا بواد النيــل لــيس ينــامُ
إن نامت الأحياءُ حالــت بينــه سَحَراً وبــين فراشــه الأحــلامُ
مُتوجِّعٌ يتمثــل اليــومَ الــذى ضَجّت لشدة هولــه الأقــدامُ
السوطُ يَعْمَلُ والمشــانق أربــعٌ متوحــداتٌ ، والجنــود قيــامُ
والمستشارُ إلى الفظــائع نــاظرٌ تدمى جلــود حولــه وعظــامُ
فى كــل ناحيــة وكــل محلــة جَزعاً من الملأ الأســيف زَحــامُ
وعلى وجــوه الثَّــاكلينَ كآبــةٌ وعلى وجوه الثــاكلاتَ رَغَــامُ

ومصر ولادة .. يموت زعيم .. ويولد زعــيم .. فتعــال إلى خليفــة "مصطفى كامل"!

لقد سار على الدرب ، ومن سار على الدرب وصل ..

محمد فريد .. من سجن إلى سجن !

أحدثت وفاة الزعيم المصرى "**مصطفى كامل**" فراغا فى الصفوف كان يصعب سده ، إذ كان لابد أن يخلفه فى الزعامة من يجمع من الصفات والمواهب والمزايا ما يجعله أهلا لسد هذا الفراغ الكبير !

ومن حسن التوفيق للحركة الوطنية – كما يقول المؤرخ الكبير "**عبد الرحمن الرافعى**" – ((**أنْ خَلَف "مصطفى كامل" فى الزعامة زعيم لا يقل عنه بطولة وإخلاصا وشجاعة وكفاية ، وهو "محمد فريد" ، الذى برهن على أنه خير خلف لأعظم سلف**)) .

ولذلك سارت الحركة الوطنية فى عهد زعامته قُدُماً إلى الأمام ، حتى أوصلت الأمة إلى المستوى الرفيع من الحياة الوطنية التى مهدت للمرحلة التالية من الكفاح الشعبى وهو ثورة ١٩١٩م.

اصطدم مع الاحتلال البريطانى وهو وكيل للنيابة سنة ١٨٩٦ فى قضية هامة حين جهر بميوله الوطنية وعارض الاحتلال ، فنقل بإيعاز من الاحتلال إلى مغاغة فى نوفمبر سنة ١٨٩٦ بصعيد مصر تهديدا لوكلاء نيابة الاستئناف، فرأى فى ملابسات نقله اعتداء على استقلال القضاء ، فاستقال من منصبه ، واشتغل بالمحاماة !

ولبث مشتغلا بالمحاماة سبع سنوات ، ثم رأى أن المحاماة تصرفه عن التفرغ للجهاد ، فضحى بها واعتزلها فى أواخر سنة ١٩٠٤ كما ضحى بالمناصب من قبل !

ولما توفى "**مصطفى كامل**" فى فبراير ١٩٠٨ .. تولى "**محمد فريد**" الزعامة من بعده ، واضطلع بأعباء الزعامة فى ظروف أشد وأقسى من ظروف سلفه العظيم .

وأحس " **الاستعمار البريطانى**" بخطر الحركة الوطنية على وجوده ، فضاعف الجهود لاضطهادها وإخمادها ، واتبع سياسة جديدة هى "**سياسة الوفاق**" بينه وبين " **الخديو عباس حلمى**" .. وكان على الحركة الوطنية

محاربة السلطتين معا؛ وهما: السلطة الفعلية ممثلة فى عميد الاحتلال ، والسلطة الشرعية ممثلة فى الخديو والوزراء !

وسنت الحكومة عدة تشريعات بقصد اضطهاد الحركة الوطنية ورجالها فلم يعبأ بها ، واستمر يكشف الخيانة والغدر فى صحيفة " **الشعب** " وكان من بين تلك التشريعات إحالة الجنح الصحفية إلى محكمة الجنايات ، وشرعت الحكومة فعلا فى محاكمة " **فريد** " سنة ١٩١١ فى تهمة صحفية لا أساس لها من الحق ، وأرسل إليه " **الخديو** " من يبلغه أن الخديو على استعداد أن يحفظ القضية؛ على أن يقوم فريد بزيارته وتتبع خطه، ويسايره فى سياسة الوفاق ، فرفض، ولسان حاله يقول : "**ربِّ السجنُ أحبُّ إلىَّ ممَّا يدعوننى إليه**" وأقيمت عليه الدعوى العمومية أمام محكمة جنايات القاهرة ، وحكم عليه بالحبس ستة أشهر ، وآثر السجنَ على التساهلِ فى مبدئه.

ولقد عبر عن شعوره حين كان فى السجن ، وهو يغادره بمقال رائع عنوانه: "**من سجْنٍ إلى سجن**" قال فى مطلعه : **مضى على ستة أشهر فى غيابات السَجن ، ولم أشعر أبدا بالضيق إلا عند اقتراب أجل خروجى ، لعلمى أنى خارج إلى سجن آخر ، وهو "سجن الأمة المصرية " الذى تحده سلطة الفرد ويحرسه الاحتلال"** وجاءه يوما "**مدير مصلحة السجون الإنجليزى**" ، وخلا به ، وتلطف فى الحديث معه ، وعرض عليه العفو قائلا :

" **إنى أسعى للعفو عنك إذا وعدت بتغيير خطتك**"

فأجابه الفقيد " **إن ما تطلبه مستحيل** " فعدل مدير السجن عرضه وقال له: " **إنى لا أطلب منك تغيير مبادئك بل تخفيف لهجتك** " فرفض ؛ فقال له مدير السجن : " **أنت تريد إذن قضاء الشهور الستة فى السجن** " فقال الزعيم : " **نعم وأزيد عليها يوما إن أردتم** " فأدرك كولى باشا مدير مصلحة السجون أن لا سبيل إلى مساومته وانصرف !!

وهكذا تكون الزعامة .. ويكون الابتلاء والتضحية !

ويكون الثبات على المبدأ!

مع الأستاذ الإمام محمد عبده فى منفاه !

نال الشيخ "**محمد عبده**" شهادة العالمية من الأزهر فلم يكن كغيره – آنذاك – مثل ساقية "جحا" تملأ من البحر وتصب فى البحر ، بل علّم فى الأزهر ، ودار العلوم ، ومدرسة الألسن واتصل بالحياة العامة كما يقول الدكتور أحمد أمين فى كتابه "**زعماء الإصلاح فى العصر الحديث**" .

واتصل بالجرائد يكتب فيها مقالات فى الإصلاح الخلقى والاجتماعى ؛ فكان مصدرا كبيرا لشعور الناس بسوء الحال ، والحاجة إلى الإصلاح مهما اختلف هو وغيره فى طريقة العلاج.

وكان يعده أصحابه وأعداؤه من أقوى العقليات الموجودة إن لم يكن أقواها ؛ فمن يوم أن عين فى تحرير " **الوقائع** " وهو جم النشاط ، يحرر ويراقب ، ويتصل بالمصالح الحكومية ، ويغشى المجالس : مجلس رياض ، وعلىّ مبارك ، وسلطان ، وعرابى ، وطلبة ، والسراى ، وفى كل هذه المجالس يقول، ويجادل ، ويقنع ويقتنع ، ويثير الحماسة للعمل ، وكان للثورة العرابية؛ أسباب فكان هو سببا من أسبابها.

ولكنه سبب بعيد لا "**كعبد الله النديم**" سبب قريب ، ثم انقلب **الشيخ محمد عبده** سببا قريبا يوم حميت النار ، فلئن اتهم بأنه من زعماء الثورة ، وحوكم عليها ، لقد كان ذلك حقا !

وهذا هو **الشيخ محمد عبده** فى بيروت بعد أن قبض عليه لاشتراكه فى الثورة العرابية ، وأودع السجن ثلاثة أشهر للتحقيق ، لاقى الأمرين من اضطهاد ، وإهانة ، وشماتة أعداء ، وتنكر أصدقاء ، وتضييق بالأسئلة ، وإحراج فى الاستجواب ، ثم حكم عليه بالنفى ثلاث سنوات!

ولكنه مكث فى المنفى نحو ست سنين ، لأن الأمر لم يكن حكما بالنفى فقط بل كان أكثر من ذلك .. غضب **الخديو توفيق** عليه واتهامه بجهره بخلع الخديو!

وعندما كان الشيخ منفيا خارج بلاده ، وكان رجوعه إلى بلاده رهنا بأمر المحتلين — سئل فى المنفى باعتباره رجلا من رجال الدين عما ينبغى أن تعملـــه الدولة البريطانية لكسب مودة العالم الإسلامى ؟!

فكان جوابه كجواب أستاذه **جمال الدين الأفغانى** :

" اخرجــوا مـــن وادى النيـــل "

وما تزال هذه الإجابة على الألسنة لكل مستعمر طامع !!

* * * * *

الباب الثالث

مفكرون وأدباء وشعراء ..
وراء القضبان

- سقراط .. الفيلسوف الذى علم الناس الحكمة ، يحاكم ويساق من سجنه إلى المشنقة!
- كعب بن زُهير بن أبى سلمى .. الشاعر الذى تخلى عنه الجميع وعفا عنه النبى ﷺ!!
- الحطيئة .. الشاعر الذى سجنه عمر - رضى الله عنه - فأبكاه شعره!
- أبو محجن الثقفى .. الفارس السجين .
- أبو العتاهية .. وهارون الرشيد .
- الشاعر الماجن أبو نواس .. فى السجن .
- المتنبى .. شاعر العربية الاكبر .. "سجيناً"!
- الوزير ابن زيدون .. بين جدران السجون!
- المنفلوطى سجيناً!
- جبران خليل جبران .. المليك السجين!
- مع الأستاذ العقاد .. فى سجنه!
- يوسف الكوفى .. قاضى الأرض وقاضى السماء!
- الوزير الخطاط ابن مقلة .. أول من هندس الحروف تقطع يده!
- سجين عفيف!!
- شفاعة مقبولة!!
- أم جعفر البرمكى .. أبلغ دفاع عن أعز سجين .
- أحمد عرابى .. ومحمود سامى البارودى .. سجينًا الكرامة والوطنية .
- أمير الشعراء أحمد شوقى .. فى المنفى!!
- مع الصحافى الكبير .. مصطفى أمين .

سقراط .. الفيلسوف الذى علم الناس الحكمة يحاكم ويساق من سجنه إلى المشنقة !

أتدرى من هو ؟ **إنه سقراط !**

كان سقراط يؤمن أن المواطن الصالح هو الذى يطيع قوانين بلاده ، ولهذا آثر أن يموت بالسّم، وهو يتمسك بأفكاره على أن يلتمس تخفيف الحكم بإعدامه!

كان سقراط أول رائد للفكر العميق.. وكان يسير فى شوارع أثينا يعلم الناس المنطق.. وكان تأثير سقراط فى عقول الناس – دون أن يكتب كلمة واحدة – أقوى من تأثير آلاف الكتب!

وتعتبر آراء سقراط – بعد ألفى عام من عمره – المنبع الرئيس للفلسفة كما كان أفلاطون تلميذه.. وأرسطو تلميذ أفلاطون!

وقد وجهت إليه تهمتان رسميتان :

أولاهما أنه لا يؤمن بآلهة البلاد ، والثانية أنه "يفسد عقول الشباب"!!

وحوكم سقراط أمام ٥٠١ من المحلّفين فصدر الحكم بإعدامه بأغلبية ٦٠ صوتا فقط .

ومن المحتمل أن القليلين منهم كانوا يتوقعون أن ينفذ الحكم فيه! ذلك أنه كان من حقه قانونا أن يلتمس تخفيف الحكم ، وأن يطالب بإعادة التصويت على هذا الالتماس!

فإذا فعل ذلك فى تذلل وتوسل ، كالعادة ، فاز بأغلبية الأصوات لصالحه دون شك.. ولكنه تمسك بأن مسلكه سليم!

وقال لأحد تلاميذه بعد أن زاره فى السجن لإغرائه بالهرب :

"**من الأشياء التى أومن بها حكم القانون.. إن المواطن الصالح – كما قلت مراراً – هو الذى يطيع قوانين بلاده ، وقد حكمت قوانين أثينا بإعدامى ، والمنطق السليم يحتم على باعتبارى مواطنا صالحا أن أموت**"

وعندما اقتربت ساعة التنفيذ قال لسجانه : " **أنت تعلم – ولا شك – كل شيء عن إجراءات التنفيذ ، فأرجو أن تخبرنى عما يجب أن أفعل** "

ونفذ سقراط التعليمات بهدوء وثبات! وكانت آخر أفكاره تدور حول دَيْن شخصى صغير نسى سداده ، ولهذا أزاح الغطاء عن وجهه ، وقال لأحد تلاميذه :

" **إننى مدين بثمن ديك لاسكلابوس ، فتأكد من سداد هذا الدين له** "

ثم أغمض عينيه ، وأعاد الغطاء فوق وجهه وسلم روحه!

وقد سجل أفلاطون وصف هذا المشهد بعبارات خالدة قال فيها : "**كانت تلك هى نهاية صديقنا الذى كان أفضل ، وأحكم ، وأعدل رجل عرفناه!!**"

كعب بن أبى سلمى ..

الشاعر الذى تخلى عنه الجميع وعفا عنه النبى ﷺ !

حاول الطغاة فى مكة أن يحجبوا نور الهداية عن العيون ولكن الوثنية ما لبثت أن انهارت ، كما أن الطُغاة غُلبوا على أمرهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، فأخذوا يتساقطون صرعى ، أو يتوافدون على النبى مؤمنين !

ومن الذين نفضوا عن عيونهم غشاوة الجاهلية الأولى ، وأسرعوا إلى النبى مسلمين تائبين : "**كعب بن زُهير بن أبى سُلْمى**".

وقد كان لكعب أخ اسمه " **بُجَيْر** " سبق كعبًا إلى الإسلام ، وآمن بما جاء به النبى ﷺ ، فأرسل إلى أخيه كعب ذات يوم يقول له :

" **إن كان لك فى نفسك حاجة فصِرْ إلى النبى فإنه يقبل من أتاه تائبا ، ولا يطالبه بما كان منه قبل الإسلام** " !!

فلما علم كعب بذلك قال قصيدته التى يمدح بها النبى ﷺ ، ويذكر فيها خوفه ، وإرجاف الوشاة به ، ثم قدم المدينة ، وذهب إلى المسجد ، وجلس بين يدى النبى ﷺ ، ووضع يده فى يده ، وقال له : "يا رسول الله ! إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلما ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ " قال : نعم !!

قال كعب : أنا يا رسول الله كعب بن زهير. ثم أنشد قصيدته التى بدأها ثم ينتقل إلى " بالغزل كما كانت عادة الشعراء ، ثم ينتقل إلى الاعتذار والمديح".

إنه يصور ما كان يعتمل فى صدره - قبل مقدمه على النبى ﷺ ـ من المخاوف والأحاسيس.

والظاهر أنه كان ممعنا فى حرب الإسلام ، وفى التأليب عليه ، قبل أن يفد على النبى ﷺ مؤمنا تائبا.

لذلك **كان دمه قد أهدر ، فالتمس من يحميه ويُجيره** ، فلم يجد مَلجأ ولا مُجيرا ، ولم يجد من يستشفع له عند الرسول ﷺ لشناعة جُرْمه ، وأصبحت الدنيا سجنا كبيرًا بالنسبة له ، وتخلى عنه الجميع ، وطارده شبح الموت !! ويصور ذلك فى ثلاثة أبيات قائلا :

وقال كُلُّ خليلٍ كنــتُ آمُلُــه لا أُلْهِينّك ، إنى عنك مَشْــغُولُ

فقلت: خلّوا سبيلى لا أبا لكُمُ فكُلّ ما قدّرَ الــرحمنُ مَفْعُــولُ

كُلّ ابنِ انثى وإن طالت سلامتُه يوماً على آلةٍ حَدْباءَ محمــولُ(١)

ويعتذر إلى رسول الله ﷺ ، ويطلب منه العفو والصفح عما نقله الوشاة عنه.. كل ذلك فى رقة وعذوبة وخشوع وخضوع فيقول :

نُبئتُ أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمولُ

وقد أتيتُ رسولَ الله مُعتَذرًا والعُذرُ عند رسولِ الله مقبولُ

مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة الــ ــقرآنِ فيها مواعيظ وتفصيلُ

لا تأْخُذَنّى بأقوال الوُشاة ولم أُذنب ، ولو كثُرت فىّ الأقــاويل

(١) الآلة الحدباء:النعش.

ويذكر اللحظات الحرجة التي مر بها ، وهو يُقبل على النبى ﷺ ، ويقترب منه فيقول :

لقد أقوم مقاماً ، لو يقوم به   يرى ويسمع ما قد أسمعُ الفيلُ
لظلّ تُرعَدُ من وَجْد بــوادرُه   إن لم يكن من رسولِ الله تنويلُ
مازلتُ أقتطع البيدَاء مُدَّرِعا   جُنَحَ الظلامِ ، وثوبُ الليلِ مبولُ
حتى وضعت يمينى ما أنازعها   فى كفِّ ذى نَقِمَاتٍ قولُه القــيلُ

إنه يقول : إننى قمت مقاما هائلا ، ووقفت موقفا حرجا عظيما لو وقفه "فيل" لاضطرب وارتعد من الخوف والإشفاق إلا ان يكون له من النبى الكريم عفو وعهد بالأمان.

ثم يشير إلى أنه ظل يقطع طريقه فى الصحراء ليلا حتى مثل بين يدى النبى ﷺ الذى قوله الحق ، ووضع يده فى يده مصافحا له مؤمنا به .. ثم يمدح الرسول ﷺ وصحابته قائلا :

إن الرسول لنور يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول
فى عصبة من قريش قال قائلهم   ببطن مكة لما أسلموا : زُولـــــوا

*****

الحُطيئة ..

الشاعر الذى سجنه الخليفة عمر رضى الله عنه فأبكاه شعره !!

من منا لم يسمع "**بالحُطيئة** " الشاعر الذى لم يسلم من لسانه أحد حتى أقرب الناس إليه ؟!

إن له موقفا مع " **الزِّبرقان بن بدر**" تحدثت عنه كتب[*] الأدب ، وقد حبسه عمر- رضى الله عنه- جزاء له على تطاوله على الزبرقان بن بدر وهجائه له ، وطول لسانه عليه ، ولكن عمر- رضى الله عنه- عاد فأفرج عنه، رعاية لجانب إنسانى ، ورحمة بصغاره الذين لا كاسبَ لهم غيرُه !

لقد قدم الزبرقان على عمر فى سنة مجدبة ، ليؤدى صدقات قومه ؛ فلقيه الحطيئة بقَرْقَرى[1]، ومعه ابناه : أوس وسوادة ، وبناته ، وامرأته ، **فقال له** : " الزِّبرقان بن بدر[2] " وقد عرفه ، و لم يعرفه الحطيئة :

أين تريد ؟

قال : العراق ، فقد حطمتنا هذه السنة !

قال : وتصنع ماذا ؟

قال : ودِدْتُ أن أصادف بها رجلا يكفينى مئونة عيالى ، وأُصْفيه مدحى أبداً .

فقال له الزِّبرقان : قد أصبتَه، فهل لك فيه يوسعك لبنا وتمرا، ويجاورك أحسنَ جِوار وأكرمه ؟

فقال له الحطيئة : هذا – وأبيك – العيش وما كنت أرجو هذا كله.

(*) الأغانى ص١٨٠ج٢ ، نهاية الأدب ص٢٩٧ج٢ ، وذيل زهر الآداب ص٢٢٧ ، وابن أبى الحديد ص١٠٣ج٣ ، والكامل ص٣٤٨ ، ٣٥٤ج١ . (١) قرقرى: أرض باليمامة فيها قرى وزروع كثيرة ونخيل. (٢) الزِّبرقان: اسم من أسماء القمر حين يكون بدرا ، وسمى به الحصين بن بدر لحسنه ، وكان رسول الله ﷺ قد استعمل الزبرقان على صدقات قومه ، وأقره أبو بكر. توفى أيام معاوية سنة ٤٥هـ وكان شاعرا فصيحا.

قال : فقد أصبتَه !

قال : عند مَنْ ؟

قال : عندى ؛ **قال** : ومن أنت ؟

قال : الزِّبرقان بن بدر.

قال : وأين مَحلّك ؟

قال : اركب هذه الإبل ، واستقبل مَطْلِعَ الشمس وسَلْ عن القمر حتى تأتى منزلى.

ثم كتب إلى أمه ، وكان اسمها " **أم شَذْرة** " أن أحسنى إليه ، وأكثرى له من التمر واللبن.

وكان الحطيئة دميما سيئ الخَلْق ، لا تأخُذه[1] العين ، ومعه عيال كذلك عدا ابنته مُلَيكة ، فلما رأت أم شذرة حالَه هان عليها وقصّرت[2] به .. ونظر بغيض[3] ، وبنو أنف الناقة إلى ما تصنع به أم شذرة ، فأرسلوا إليه : أن ائتنا ؛ فأبى عليهم ، **وقال** :

إن من شأن النساء التقصير والغفلة ، ولست بالذى أحمل على صاحبها ذنبها ، فلما ألحّ عليه "**بنو أنف الناقة** " **قال لهم** : لست بحاملٍ على الرجل ذنب غيره ، فإن تُرِكتُ وجُفيتُ تحولْتُ إليكم ، فأطعموه ووعَدوه وعدا عظيما.

فلما لم يجبهم دسوا إلى زوجة الزبرقان : أن الزبرقان إنما يريد أن يتزوج ابنته مليكة — وكانت جميلة كاملة — فظهرت من المرأة للحطيئة جفوة ، وهى فى ذلك تداريه.

ثم أرادوا النُّجعة[4] ، فقالت له أم شذرة :

---

(١) تأنف من رؤيته ، ولا تستريح لمرآه. (٢) لم تكرمه ، ولم تبلغ ما يرضيه.

(٣) كان بغيض وأنف الناقة ينازعون الزبرقان الشرف ، وكانوا أشرف من الزبرقان إلا أنه قد كان استعلاهم بنفسه. (٤) النجعة: طلب الكلأ والمرعى فى موضعه.

قد حضرت النجعة ، فاركب أنت وأهلك هذا الظهر إلى مكــان كــذا وكذا، ثم اردده إلينا حتى نلحقك ؛ فإنه لا يسعنا جميعا ، فأرسل إليها :

بل تقدمى أنت ، فأنت أحق بذلك ففعلت.

وتثاقلت عن رده إليه ، وتركته يومين أو ثلاثة !

وألح " **بنو أنف الناقة** " عليه ، **وقالوا له** : قد تُركتْ بَمضْيعة ؛ فلما ألحوا عليه أجابهم ؛ **فقال** : أما الآن فنعم ! أنا صائر معكم ، وتحمّــل معهــم ، فضربوا له قبة ، وربطوا بكل طُنُب من أطنابها جُلة[1] هَجَرية ، وأراحــوا[2] عليه إبلهم ، وأكثروا له من التمر واللبن ، وأعطوه لِقاحا[3] وكُسْوة .

فلما قدم الزِّبرقان سأل عنه ، فأُخبر بقصته ، فركب فرسه ، وأخذ رمحه ، وسار حتى وقف على نادى القريعيين ، **فقال** : رُدُّوا علىّ جارى !

فقالوا : ما هو لك بجار ، وقد اطَّرَحتَه وضيّعتَه ، فألَمّ[4] أن يكون بــين الحيين حرب ، فحضرهم أهل الحِجَا من قومهم ، ولاموا بغيضـــا ورهطـــه . **وقالوا** : اردد على الرجل جاره .

فقال : لست مُخرجَهُ وقد آويتُه ، وهو رجل حر مالك لأمره ، فخيِّـــروه ؛ فإن اختارنى لم أُخرجه، وإن اختاره لم أُكرهه !

فخيروا الحُطَيْئة فاختار بغيضا ورهطه.

فجاء الزِّبرقان ، ووقف عليه **وقال** :

أبا مليكة ، أفارقت جوارى عن سُخط وذم ؟

قال : لا ؟ فانصرف وتركه .

وجعل الحطيئة يمدح القريعيين من غير أن يهجو الزبرقان ، وهم يحضونه على ذلك ويحرضونه فيأبى ويقول :

---

(١) الجُلة: وعاء يتخذ من الخوص يوضع فيه التمر يكنز فيه. (٢) إراحة الإبل: ردها فى العشىّ.

(٣) اللقاح: جمع لَقُوح ، وهى الناقة الحلوب. (٤) ألَمّ : قرب.

لاذنبَ للرجل عندى حتى أرْسَلَ الزِّبرقان إلى رجل من " النّمِر بن قاسط " فهجا بغيضا فقال :

أرى إبِلِى بجَوف الماءِ حَلّت وأعوزها بها الماءُ الرَّواءُ[1]
وقد وردت مياهَ بنى قُرَيعٍ فما وصلوا القرابة مُذْ أساءوا

وختمها بقوله :

سوى أن الحطيئة قال قولا فهذا من مقالته جزاء !!

وعندئذ قال الحطيئة يهجو الزبرقان ، ويناضل عن بغيض قصيدته التى قال فيها:

ما كان ذنب بغيض ، لا أبالكم في بائسٍ جاء يحدو آخر الناس ؟
ما كان ذنب بغيض أن رأى رجلا ذا فاقةٍ حَلّ فى مستوعرٍ شاسى[2] ؟
جاراً لقوم أطالوا هُونَ مَنزلهِ وغادروه مقيما بين أرماس[3]
مَلّوا قِراهُ ، وهرَّته[4] كلابُهمُ وجرّحوه بأنياب وأضراس
دعِ المكارمَ لاترحَلْ لبُغْيَتِها واقعد فإنك أنت الطاعم[5] الكاسى
من يفعَلِ الخير لا يعدم جوازِيَهُ لا يذهب العُرفُ بين اللهِ والناسِ

فاستعدى عليه الزبرقان عمر بن الخطاب ، فرفعه عمر إليه ، واستنشده ، فأنشده ، **فقال عمر :**

ما أسمع هجاء ، ولكنها معاتبة !!

فقال الزبرقان : أوما تبلغ مروءتى إلا أن آكل و ألبس ؟!

فقال عمر : عَلىَّ بحسّان ، فجىء به ، فسأله ، فقال : أتراه هجاه ؟!

(١) الرواء: الكثير المروى. (٢) المستوعر: المكان الوعر ، والشاسى: المكان الغليظ.

(٣) الأرماس: جمع رمس وهو القبر، والهون: المذلة ، أى تركوه كالميت.

(٤) هرته كلابهم: نبحته ، وهو كناية عن أنه كان غريبا مضطهدا بينهم.

(٥) الطاعم: المطعوم .. والكاسى: المكسوّ.

قال حسان : نعم وسَلَح[1] عليه !

فحبسه عمر –رضى الله عنه– **فقال فى الحبس :**

أعـــوذُ بجـــدِّك إنى امـــرؤٌ ... سقتنى الأعادى إليك السجالا[2]
فإنـــك خـــيرٌ مـــن الزِّبرقـــان ... أشدُّ نَكـــالا ، وأرجـــى نـــوالا
تَحَـــنَّنْ علـــيَّ هـــداك المليـــكَ ... فـــإن لكـــل مقـــامٍ مقـــالاَ
ولا تأخـــذَنِّى بقـــولِ الوُشـــاةِ ... فـــإن لكـــل زمـــانٍ رجـــالا
فإن كـــان مـــا زعمـــوا صـــادقًا ... فسيقت إليك نسائى رِجـــالا[3]
حواسرَ لا يَشْتكـــين الوَجـــا[4] ... يُخَفِّضْـــنَ آلاً ويرفعـــن آلاَ[5]

فلم يلتفت عمر –رضى الله عنه– إليه ، وظل بسجنه حتى قال :

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذى مَـــرَخٍ[6] ... زُغْبِ الحواصلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ؟
ألقيت كاسبَهم فى قعـــرِ مُظْلمـــةٍ ... فاغفرِ عليك سلامُ الله يا عُمَـــرُ
أنت الإمامُ الذى من بعد صـــاحبه ... ألقت إليك مقاليدَ النُّهى البشـــر
لم يُؤْثروك بهـــا إذ قـــدموك لهـــا ... لكن لأنفسهم كانت بك الأُثرُ[7]
فامننُ على صِبْية بالرملِ مَسْكَنُهم ... بين الأباطحِ تغشاهم بها القِرَرُ[8]
أهـــلى فِـــداؤكَ كم بينى وبينهُمُ ... من عرضِ دَاوِيَّةٍ[9] تعمىَ بها الخُبَرُ

فبكى عمر حين قال : "ماذا تقول لأفراخ بذى مَرَخ" ؟!

فقال عمرو بن العاص : ما أظلّتِ الخَضراء ، ولا أقلّتِ الغَبراءُ أعدلَ مـــن رجلٍ يبكى على تركه الحطيئة !

فقال عمر: علىّ بالكرسى ، فأتى به ، فجلس عليه ، **ثم قال :** أشيروا علىّ فى الشاعر، فإنه يقول الهُجْرَ، ويَنْسِبُ بالحُرَمِ، ويمدح الناسَ ويذمهم بغير ما فيهم.

---

(١) سلح عليه: راث.
(٢) السجال: جمع سَجْل وهو الدلو العظيمة مملوءة.
(٣) جمع رجلة ، أى راجلة..
(٤) الوجا: الحفا. وقيل شدته.
(٥) الآل: عُمُد الخيمة.
(٦) ذومرخ: وادٍ بالحجاز.
(٧) الأُثَر: واحدها أُثرة ، ومعناها: الاستئثار والمكرمة.
(٨) القِرر: جمع قرة ، وهى البرد.
(٩) الداوِيّة: الفلاة الواسعة.

ما أراني إلا قاطعا لسانَه ، ثم قال :

عَليّ بالطَّسْت ، فأتي بها ، ثم قال : عَلَيّ بالمِخْصَف[1] !

لا بل عليّ بالموسَى ، فإنه أوحى[2] !

فضجّ الحطيئة وقال : إني- والله – يا أمير المؤمنين قد هجوت أبي ، وأمي ، وامرأتي ، ونفسي !

فتبسم عمر بن الخطاب ، ثم **قال** : ما الذى قلتَ ؟ **قال** : قلت لأبي وأمي :

ولقد رأيتكِ في النساءِ فسُؤْتني وأبا بنيكِ فساءني في المجلسِ

وقلت لأبي خاصة :

فبئس الشيخُ أنت لدى تميمٍ وبئس الشيخُ أنت لدى المعالي!

وقلت لأمي خاصة :

تَنَحَّيْ واجلسي مـــــني بعـــيداً أراح الله منك العالـــمـــينـــا
أغِربالاً إذا استُودِعْتِ سِــــــرّا وكانوناً على المتحدثينـــا[3] ؟!
حياتك – ما علمت – حياةُ سُوءٍ وموتُك قد يَسُرُّ الصالــحينا

وقلت لامرأتي :

أُطـــوِّفُ ما أُطَوِّفُ ثمَّ آتـــي إلـــى بيـــت قعيدتهُ لَكاعِ

وقلت لنفسي :

أبت شفتاى اليوم إلا تكلُّماً بسوءٍ فما أدرى لمن أنا قائله ؟!
أرى لِيَ وجها شوّه الله خلقه فقُبِّحَ من وجهٍ وقُبِّح حاملُـــه

فقال الحاضرون :

لا يعود يا أميرَ المؤمنين ، وأشاروا إليه أن **قل** : لا أعود !

---

(١) المخصف: مخرز الإسكاف. (٢) أوحى: أسرع. (٣) الغربال: النمام.. والكانون: الثقيل الوخم من الناس.. وقيل: الكانون الذى يجلس حتى يتحصى الأخبار والأحاديث.

فقال : لا أعود يا أميرَ المؤمنين ، **فقال له** : النجاء !

ويروى أن عمر- رضى الله عنه- بعد أن أطلق سـراح الحطيئـة أراد أن يؤكد عليه الحجة ، فاشترى منه أعراض المسلمين جميعا بثلاثة آلاف درهم ، فقال الحطيئة فى ذلك :

وأخذتَ أطرافَ الكلامِ فلم تدع … شيئا يَضُرُّ ولا مديحاً ينفـعُ
ومنعتنى عِرضَ اللئيم فلم يخـف … ذَمِّى وأصبح آمنا لا يَفْزَعُ

رحـم اللـه عمر كـان للعـدل مثالا !!

فمَن لنا بمثل عمر؟!

أبو محجن الثقفى .. الفارس السجين

وهذا أبو مِحْجَن الثَّقَفى ذلك الشاعر الكريم الذى نشأ فى أزهى عصور الدنيا، وجاهد فى الله حق جهاده !

ولكن كان فى سلوكه هَنَةٌ[1] عرف بها ، فقد كان من المعـاقرين[2] للخمـر المحدودين فى شربها[3] .

ومع أن عمر – رضى الله عنه – أقام عليه الحد مرات إلا أنه كان يعـود إلى الخمر يشربها !

ونقم عليه عمر ، فنفاه بعيدا عن مكة والمدينة وبعث معه " ابن جهراء " فراغ منه، ولحق بسعد بن أبى وقاص ، وكان مع "سعد بن أبى وقاص " بالقادسية!

وكان سعد لا يزال يراه شاربا ، فقال له :

لتنتهينّ أو لأوجعنّك ضربا !

فقال : " لست تاركها لقولك أبدا "

وفى سجنه المطل على ميدان المعركة بقصر سعد سمعته امرأة سعد يئن ويقول :

(١) شر وفساد. (٢) عاقر الخمر : لازمها ، وداوم عليها. (٣) من الذين أقيم عليهم حد الشرب.

كفى حَزناً أن تُطْعَنَ الخيلُ بالقَــنا وأُصــبحَ مشدوداً عليّ وثاقــيا
إذا قمت عنّانى الحديدُ ، وأُغلقت مصارعُ من دونى تُصِمّ المناديــا
وقــد كنت ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ فأصبحتُ منهم واحداً لا أخا ليا
هَلُمّ سلاحى لا أبالكِ إنـــنى أرمى الحرب لا تزداد إلا تمــاديا
فإن مُتّ كانت حاجةً قضيتُهــا وخلفتُ سعدا وحدَه والأمــانيا

وسمعته امرأة سعد ، فأطلت عليه لتعلم ما به فقال لها : أطلقينى ولكِ علىّ عهدُ الله وميثاقُه لئن فتح الله على المسلمين وأنا حى لأرجعن إلى مَحْبِسى.

فأطلقته ، فركب فرسا بلقاء[1] لسعد ، وخرج فشق الصــفوف مقــبلا ومدبرا ، وأشرف سعد من القصر ، فنظر ، فقال : لولا أن " أبــا محجــن " مقيد لقلت : إن الفارس " أبو محجن " وهذه فرسى البلقاء .

فلما هُزم المشركون أقبل " أبو محجن " راجعا ، فرأته امرأة من المسلمين ، فظنت أنه منهزم ، فقالت :

مَن فارسٌ كرِه الطّعانَ يُعيرنى فرسا إذا نزلوا بمَرْجِ الصُّفرِ ؟!

فقال أبو محجن مجيبا لها :

إن الكرامَ على الجياد مَقيلهُم[2] فذرى الجيادَ لأهلها وتعطرى

فلما رجع أبو محجن إلى محبسه علم سعد بقصته فقال له : والله لا عاقبتك على الخمر أبداً !!

وهنا قال أبو محجن : وأنا والله لا أشربها أبدا !!

ثم قال :

سأتركــــها لله ثم أذمُّها وأهجرُها فى بيتها حيث تُشْرَب

ثم أقسم قائلا :

فلا والله أشربُها حــــياتى ولا أسقى بها أبدا نديــما[3]

---

(١) فيها سواد وبياض. (٢) المقيل : القيلوله ، وموضع القيلوله فظهر الفرس مكانه وقت القيلولة.
(٣) أشربها حياتى : أى لا أشربها ! والنديم المجالس على الشراب.

أبـو العتاهيـة .. وهـارون الرشيـد

أبو العتاهية " إسماعيل بن القاسم" شاعر الحكمة والموعظة الحسنة فى العصر العباسى.

كان يقول : لو شئت أن أجعل كلامى كله شعرا لفعلت !

وقد انصرف أبو العتاهية عن العبث والخلاعة إلى الزهد والتنسك فى آخـــر حياته بعد تجربة مريرة فى الحب !

وإنما الأعمال بخواتيمها ، فقد تاب وأناب وحمل لواء الحكمة ! وكانت " عُتبة " جارية الرشيد محبوبته ، فوعده بتزويجها ، وأنه سوف يسألها فى ذلـــك فإن أجابت جهزها وأعطاها مالا عظيما لكنها رفضت !

وراح أبو العتاهية يندب حظه ، ويبكى ما آل إليه أمره ، وكان مما قاله :

ألا إن ظبيا للخليفة صادنى　　　وما لى على ظبى الخليفة من عَدْوَى[(١)]

وحين بلغ الرشيد هذا البيت غضب وقال : أسخر منا فعبث ؟!

وأمر بحبسه ، فدفعه إلى " تنجاب " ذلك السجان المعروف بشدته وغلظته.

فقال أبو العتاهية :

تنْجابُ لا تعجَلْ علىّ　　　فليس ذا من رائه[(٢)]

ما خِلتُ هذا فى مخـــا　　　يل ضوء برق سمائه

وطال فى الحبس مكثه ولم يَرِقّ له تنجاب ، وشغل عنـــه الرشـــيد بمهـــام الدولة، فراح أبو العتاهية يمدحه ويذكره ، وكان مما قاله :

إنما أنت رحمة وســـلامةْ　　　زادك اللهُ غِبطةً وكرامَهْ

قد قيل لى :

قد رضيت عنى فمن لى　　　أن أرى على رضاك علامه ؟!

---

(١) ليس هناك من يعينى عليه.

(٢) رائه : رأيه.

فقال الرشيد : لله دَرُّه !

لو رأيته ما حبسته ، وإنما سَمحت نفسى بحبسه لأنه كان غائبا عنى ، وأمر بإطلاقه !!

وتكرر حبسه حين آثر التنسك ، ولبس الصوف ، فعندما أمره الرشيد أن يقول شعرا فى الغزل امتنع ، فأمر بضربه ستين عصا ، **وحلف ألا يخرج من حبسه حتى يقول شعرا فى الغزل** ،

فلما رفعت المقارع عنه قال أبو العتاهية : **كل مملوك له حر إن تكلم سَنَةً إلا بالقرآن ، أو بلا إله إلا الله محمد رسول الله** .

فكأن الرشيد تحزّن مما فعله ، فأمر أن يحبس فى دار ، ويُوسَّع عليه ، ولا يمنع من دخول من يريد إليه !

وسأله مُخارق حين انتهت السنة .. وكان أول من أفطر على كلامه — هل قلت شيئا للتخلص من هذا الموضع ؟

فقال : نعم ، قد قلت فى امرأتى شعرا .

قال مخارق : هاته ، فأنشده :

من لقلب مُتَيَّم مشتاق
شفّه شوقُه وطولُ الفراق؟!
طال شوقى إلى قعيدة بيتى
ليت شعرى فهل لنا من تلاق ؟!
هى حظى قد اقتصرتُ عليها
من ذوات العُقود والأطواق
جمع الله عاجلا بك شملى
عن قريب ، وفكّنى من وَثاقى

وحملها مخارق إلى إبراهيم الموصلى فصنع فيها لحنا، ودخل بها على الرشيد، وسأله الرشيد: لمن الشعر والغناء ؟

قال إبراهيم : أما الغناء فلى ، وأما الشعر فلأسيرك أبى العتاهية.

قال : أو قد فعل ؟!

قال : نعم .. قد كان ذلك .

فدعا به ، ثم قال لمسرور الخادم : كم ضربنا أبا العتاهية ؟

قال : ستين عصا.

فأمر له بستين ألف درهم ، وخلع عليه ، وأطلقه[1] .

الشاعر الماجن أبو نُواس .. فى السجن .

ومثل بشار ، والحطيئة وأبى نواس .. كان السجن تأديبا لهم وتهذيبا !

وذات يوم استقبل "سجن المطبق" الذى سبقت الإشارة إليه والذى بناه الخليفة المنصور - أودع هذا السجن أكثر من مرة ، ونزل عليه ضيفا فى غير واحدة من تلك المناسبات المتكررة التى كان يغضب عليه فيها الخليفة "هارون الرشيد " أو ابنه من بعده " محمد الأمين " ابن السيدة " زبيدة " بنت " أبى جعفر المنصور " .

ومن وراء القضبان كانت تنطلق الصرخات والصيحات ، وأصوات الاستعطاف والاعتذار التى ينشد بها أبو نواس الخلاص مما هو فيه!

وكثيرا ما كانت تذهب هذه الأصوات مع الريح ، وأحيانا تصيب مواطن الرحمة من قلوب من يهمهم الأمر فيفكرون فى تخليصه مما هو فيه !

ولقد سجل التاريخ نماذج من " **أدب السجون** " هتف بها أبو نُواس وهو فى سجنه ، وكان فيها خلاصه ! وفيها يقول للرشيد :

بعفوِك بل بجودِك عُزْتُ لا بَلْ — بفضلك يا أميرَ المؤمنينا
فلا يتعذرن علىّ عفو — وسِعْتَ به جميع العالمينا
فإنى لم أخُنْه بظهر غيب — ولا حدَّثْتُ نفسى أن أخونا
براك اللهُ للإسلامِ عِزّا — وحِصنا دون بَيْضَته حَصينا

(١) قطوف الأغانى - أبو العتاهية - مكتبة صادر ، بتصرف يسير.

فشفّـــع حُسنَ وجْهك فى أسير يَديـــن بِحُبـــك الرحمنَ دينـــا
إذا ما الهـــون حـــلّ بدار قوم فليس لجار مثلـــك أن يهـــونا

وتردد جدران " سجن المطبق " صرخة أخرى بظلمه ، وبطـــلان اتهامـــه بالتعطيل فى عهد الخليفة الأمين ، ويتمنى أن ينتصر المأمون منـــافس الأمـــين ليخلصه من سجنه فيقول :

يا رب إن الناسَ قد ظلمـــونى وبلا اقتـــراف معطل حبسونـــى
وإلى الجحود بما عليه طَوِيـــتى ربى إلـــيك بكذبهـــم نسبونـــى
أما الأمين فلست أرجو دفعه عنى فمن لى اليوم بالمأمـــون ؟!

ويا لها من صرخة يائس أطلقها أبو نواس من وراء القضبان !

ومن عجائب الأيام أن " المأمون " بلغته هذه الأبيات قال :

((والله لئن لحقته لأغنيته غِنًى لا يؤمله !!))

ومن سوء حظه أن يكون سجانه ثقيل الظل حتى ليبدو حديـــد الســـجن ريشا بالنسبه إلى ثقلة ، والشيطان الرجيم أحسن منه فيقول للخليفة شـــاكيا هذا السجان الثقيل :

وقيت بِىَ الردى زدنى قـــيـــودا وثـــنّ علىّ سوطا أو عمودا
ووكّـــل بى ، وبالأبواب دونـــى مـــن الرقباء شيطانا مريدا
وأعف مسامعى من صوتِ رجس ثقيل شخصه يدعى " سعيدا "
لقد ترك الحديـــد علـــىّ ريشـــا وأوقـــر بعضـــه قلبى حديدا

ومن أرق استعطافاته تلك الأبيات التى بعث بها إلى الحسين بن عيسى بـــن أبى جعفر المنصور ليتشفع له عند ابن عمه الأمين ليضمن له التوبـــة عنـــده، وينقذه من السجن قوله :

رُفِـــع الصـــوتُ فنـــادى يـــا أبـــا عيســـى الجـــوادا
كـــن عمـــاداً يـــا بـــنَ من كـــان غِياثـــا وعِمـــادا
وتـــدارك جســـداً قـــد مـــات أو قـــيـــل : كـــادا

قــل لــه إن قال : هل تا ب ؟ نــعــم تــاب وزادا
واضمــن التوبــة عمّــن كلــمــا أطــراك عــادا[1]

ويصور للفضل بن الربيع ما آل إليه حاله من نسك وتقوى ، فالمسبحة بين أصابعه ، والمصحف قريب من عينيه حتى أصبح خلقا آخر :

أنت يا بن الربيع ألزمتنى النســـ ـــك ، وعودتنيه ، والخير عاده
فارعوى باطلـــى ، وأقصر حبلى وتبدلـــت عفـــة وزهـــاده
لو ترانى ذكرتَ الحسنَ البصرىّ فى حُســـن سَمْتـــه أو قتاده[2]
المسابيح فـــى ذراعى والمصحف فـــى لَبّتـــى مكـــان القـــلاده

والحق أقول : إن أبا نواس كان يودع السجن ومعه دائما أسباب إيداعه ، ولم يكن ذلك لظلم الحكام وأولى الأمر ، وإنما كان ذلك لأمور نسبت إليه ، واستوجبت سجنه !

هذا ، ولم تكن الزندقة وحدها هى سبب إيداع الشاعر أبى نواس فى قعر مُظْلِمة وراء القضبان، فقد كانت معاقرته الخمر سببا فى سجنه غير مرة ! وذاتَ يوم انتهى علم ذلك إلى الخليفة محمد الأمين ، فأمر به فحبس ثلاثة أشهر ، ثم دعا به وحوله بنو هاشم وغيرهم ، ثم دعا بالنطع والسيف وأراد قتله فأنشأ يقول من قصيدة :

تذكر أمين الله، والعهد يذكـــر مقامى وإنشاديك والناس حُـــضّر
ونثرى عليك الدر يا در هاشم فيا من رأى دُرّا على الدر ينثر !!
أبوك الذى لم يملك الأرضَ مثلُه وعمك "موسى" الصفوة المتخيـــر
وجدك "مهدىّ" الهدى وشقيقه أبو أمك الأدنى " أبوالفضل جعفر"

إلى أن يقول :

أيا خير مأمول يرجّى أنا امرؤ أسير رهين فى سجونـــك مُقْبَـــر

(١) أطراك : مدحك.
(٢) الحسن البصرى كان إمام أهل البصرة ، وأحد العلماء النساك .. وقتادة صحابى جليل.

مضت لى شهور حبست ثلاثة كأنى قد أذنبت ما ليس يغفر
فإن كنت لم أذنب ففيم حبستنى ؟ وإن كنت ذا ذنب فعفوك أكبر

وذات يوم سأل عنه الأمين فقيل له "محبوس لم يزل فى "المطبق" فقال " ليس عليه بأس! "

وأسرع من يبلغ أبا نواس بما قاله الأمين فنظم شعرا رقيقا وهو رهين القيود يستعطف الأمين قائلا :

أرِقْت وطار عن عينى النعاس ونام السامرون ولم يُواسوا
أمينَ الله قد مُلّكْتَ مُلْكا عليك من التقى فيه لباس
تُساس من السماء بكل صنع وأنت به تسوس كما تساسُ
ووجهك يستهل ندىً فيحيا به فى كل ناحيةٍ أناس
كأن الخلق فى تمثال روح له جسد وأنت عليه راسُ
فديتك إن ليل السجن باس وقد أرسلت: "ليس عليه باس[٣]"

فلما وصلت الأبيات إلى الأمين .. قال : صدق ! .. علىّ به ، فجىء به فى الليل وطلق القيود إلى عالم حر!!

(١) باس : أصلها بأس مرادف شدة فخففت همزتها.

المتنبى .. شاعر العربية الأكبر .. "سجينا"

هل تعلم أن حامل لواء الزعامة الأدبية فى عصره ، وصاحب السيفيات فى مدح سيف الدولة يزج به فى السجن ، ويتعرض لتجربة قاسية فى بداية حياته ؟! لقد كان المتنبى نادرة فى الحفظ مولعا بتعلم اللغة العربية منذ صباه ، وأدرك أن استتمام علمه باللغة والشعر لا يتحقق إلا بمعايشة أهل البادية !

فخرج وهو فتى إلى "بادية بنى كلب"[1] ينشدهم من شعره ، ويأخذ عنهم اللغة ، فعظم شأنه فيهم ، والتفوا حوله!

وذات يوم حاصرهم أمير حمص وحاربهم وسجن أبا الطيب طويلا باعتباره مثيرا للفتنة وموقظا للوعى ضده!

وكانت تجربة السجن قاسية فى بدء حياته ذاق فيها الأمرين وإن كان لم يحفل بالسجن حيث قد أعد نفسه لتقبل البؤس حتى الموت كما قال :

كُنْ أيها السجنُ كيف شئتَ فقد وطَّنْتُ للموت نفسَ مُعترف
لو كان سكناىَ فيك مَنْقصةً لم يكنِ الدرُّ ساكن الصدف!

ولكن السجان " أبا دُلَف " يتوعده بطول إقامة ويعود فَيبَرّه!

وفى ذلك يقول المتنبى :

أهْون بطول الثَّوَاء والتَّلَفِ والسجنِ والقيدِ يا أبا دُلَف[2]
غيرَ اختيارٍ قبلتُ برَّك بى والجوُعُ يُرْضى الأسودَ بالجيَفِ[3]

ولكن إلى متى يظل فى السجن ؟!

لابد من عمل شىء .. إنه لم يخلق لهذا السجن ! .. ها هى ذى آماله تكاد تتحطم وراء القضبان، وتأبى كبرياؤه أن يطلب العطف والعفو !

---

(١) بالشام.
(٢) أهون : ما أهون. الثواء : الإقامة . يريد لقد وطنت نفسى على الإقامة فى السجن فهانت على حياته.
(٣) يقول : قبلت برك بى يا أبا دلف اضطرارا لا اختياراً ، فالأسد يرضى بأكل الجيف عندما لم يجد غيرها.

ولم يكن بد – وقد طال به السجن – من أن يطلقها صيحة استعطاف للأمير الذى قبض عليه وأودعه السجن فيقول :

أمـــالكَ رِقّى ومَن شأنُه | هباتُ اللُّجين[1] ، وعتقُ العبيد
دعوتُك عند انقطاعِ الرَّجا | والموتُ مِنّى كحبلِ[2] الـــوريد
دعوتُك لما بَرَانى[3] البلَـــى | وأوهنَ رجلىَّ ثِقْلُ الحـــديد
وقد كان مَشْيهُما فى النعالِ | فـــقد صار مشيهما فى القيود
وكنتُ من الناسِ فى مَحْفَلٍ | فها أنا فى مَحْفَلٍ من قُـــرود !!

ترى ماذا كان لهذه الكلمات من صدى فى نفس الأمير لؤلؤ ؟ لقد كـــان لهذه الكلمات أثرها فى نفس الأمير فاستتابه وأخرجه من السجن ليرحل عـــن الأرض التى قبض عليه فيها ، وليخرج بتجربة يعبر عنها بقوله :

عِشْ عزيزاً أو مُتْ وأنت كريم
بين طعن القنا وخَفْق البنود[4]

ويحمل الراية ابن زيدون فى الأندلس فتعال إليه ..

الوزير ابن زيدون بين جدران السجون!

كان " أبوالوليد أحمد بن عبد الله " الأندلسى القرطبى الشهير بابن زيدون أحد شعراء الأندلس وكتابها المشهورين ووزرائها المعروفين بفنـــون الكتابـــة والشعر!

وقد عاش " ابن زيدون " فى بيئة كلها اضطراب ودســـائس واشـــترك فى حوادث الفتنة التى كانت على إثر زوال دولة "بنى أمية " فكان من أشـــياع " ابن جهور" أحد ملوك الطوائف الذى ادعى لنفسه الملك فى قرطبة بعد انحلال الدولة الأموية سنة ٤٢٣هـــ .

(١) إن هذا الوالى الذى سجنه يملك أمره ، كما يملك السيد عبده ، ومن شأنه أن يهب الفضة ، ويحرر العبيد. والهمزة فى أول البيت للنداء أخت يا.
(٢) كحبل الوريد : كناية عن قرب الموت منه فى السجن.
(٣) براني : نال منى. وأوهن : أضعف. (٤) القنا : الرماح. والبنود : الأعلام.

وعلت منزلة ابن زيدون هناك ، فاتخذه ابن جهور وزيرا له ، فملك زمــام الأمور ، وكان أقرب الناس إلى سيده الذى استعان بــه كــثيرا فى المســائل السياسية ، وفى تأمين الصلة بينه وبين الأمراء الآخرين لذكائه ودهائه ، فكانوا يحسدون ابن جهور على الاختصاص به.

ورأى الجميع كيف كان ابن زيدون سفيرا موفقا محبوبــا مــن "ملــوك الطوائف" ذائع الشهرة فى عصره ، قوى النِّكاية والسخرية بخصومه ، فلم يكن لهم طريق يسلكونها للانتقام منه إلا الكيد له – على أسلوب ذلك العصــر – عند ابن جهور بأنه غير مخلص لعهده ، ولا أمين لأميره !

وشى به أعداؤه وحاسدوه إلى " ابن جهور " وبخاصة منافسوه فى حب " ولادة بنت الخليفة المستكفى "!

ولقد شفوا غليلهم بحمل " ابن جهور " على سجنه بعد أن أحلــه منزلــة الوزير يدبر ملكه ، وبعد أن ائتمنه ، وسلمه زمام الدولة ، وعرف لــه رأيــه السديد ، وبراعته فى إدارة الأمور!

وقد أثار هذا السجن فى نفس ابن زيدون عاصفة فنية ، أثارتها الآلام الــتى قاساها ، وألوان العذاب التى صبت عليه ، فأخذ يئن أنينا رائعا جميلا ، ويفتَنُّ فى وصف آلامه ومشاعره وأحاسيسه ، وفى التعبير عنها شعرا مرة ، ونثرا مرة أخرى.

ولابن زيدون فى سجنه كثير من القصائد والرسائل التى أنشأها فى مــدح "ابن جهور" واستعطافه عسى أن يرق له ، ويصفح عنه ، ويطلق ســراحه ، وفى مدح غيره من الوزراء والكبراء الذين استنجد بهم ليعينوه على الفوز برضا ابن جهور من جديد.

وكل قصائده ورسائله التى أرسلها ليستعطف بها ابن جهور هى أثر ذلــك الشقاء الذى لقيه فى سجنه ، وصورة من صور البؤس الذى حرك من شعوره، وفتق من لسانه ، وأثار فى نفسه عواطفه الشعرية المملوءة هما وغما !!

ولا تزال أشعاره ورسائله التى نظمها فى سجنه آيات فذة من البيان العالى ، والأدب الرفيع إلى جانب ما تصوره من ألوان الحزن الممضّ ، والأسى الأليم.

وقد ألهمه السجن الحكمة والأناة والصبر ، وعلمه مداراة الناس ومجـاراة الخصوم ، وأقنعه بأن معاداة الرجال غير مأمونة العواقب !

وكان كلامه فى ذلك عذب المذاق ، رقيق الحاشية ، جذابا خلابا تظهـر عليه سيما الابتكار ، والصدق فى التعبير!

هذا ولا تزال أشعاره ، ورسائله التى نظمها فى سجنه آيات فذة من البيان العالى الذى يصور أدب السجون خير تصوير ، ويجعله فنا رائعا بين الفنون !

وقد كتب ابن زيدون من السجن إلى صديقه الوزير الكاتب " أبى حفص بن بُرد " يشكو ويئن من بلواه قصيدة رائعة فى أسلوب رقيق ، مطرب بوزنه وقافيته ، ساحر بعذوبة لفظه ، ودقة معانيه يقول :

مـا عَلَـى ظَنِّـىَ بـاسُ ... يجـرحُ الـدهرُ ويَاسُـو[1]
ربمـا أشـرف بالمـر ... ء علـى الآمـالِ يـاسُ[2]
ولقـد يُنْجيـك إغفـا ... لٌ ، ويُرديـك احتـراس[3]
والمحـاذير سـهَامٌ ... والمقـاديرُ قيـاسُ[4]
ولكـم أجْـدَى قُعُـودٌ ... ولَكَـمْ أكْـدىَ التمـاسُ[5]
وكـذا الـدهر ، إذا مـا ... عـزَّ نـاسٌ ، ذَلّ نـاسُ
وبنـوا الأيـام أخيـا ... فٌ سَـراةٌ وخسَـاسُ[6]
نَلْـبَسُ الـدنيا ولكـن ... مُتْعَـةٌ ذاك اللبـاسُ

(١) ياسو ، يأسو : يداوى. (٢) أشرف على الآمال : أطلّ عليها ، واقترب منها.
(٣) يرديك : يهلكك. (٤) المحاذير : ما يحاذره الإنسان..جمع محذور ، قياس : أقواس..وأصله قواس..قلبت الواو ياء لمناسبة الكسرة. (٥) أجدى : نفع وأفاد.. أكدى : قل نفعه ، وتلاشت فائدته.
(٦) بنو الأيام : الناس.. أخياف : مختلفون.. سَراة : أغنياء جمع سرى.. خِساس : جمع خسيس ، وهو الوضيع

يا أبـا حَفـصٍ ، وماسـا واك فى فهـم إيـاسُ[1]
مِـن سَـنا رأيـك لى فى ظُلَـم الخَطْـب اقتبـاسُ[2]
وودادى لـك نـصٌّ لـم يُخالفْـه القيـاسُ[3]
أنـا حَيـرانُ وللأمْـرِ وُضـوحٌ والتبـاسُ
ما تـرى فى معشـر حـا لوا عـن العهـد وخاسـوا[4]
ورأونـى " سامِريّـا " يُتّقَـى منـه المَسَـاسُ[5]
أذْؤُبٌ هامـت بِلَحْمـى فانتهـاشٌ وانتهـاسُ[6]
كلُّهـم يسـأل عن حـا لى ، وللـذئب اعتسـاسُ[7]

(١) إياس : هو القاضى إياس بن معاوية بن إياس المزنى ، ولى القضاء فى زمن عمر بن عبد العزيز ، وكان يضرب به المثل فى الألمعية والذكاء ، وهو ما عناه الحريرى بقوله فى " المقامة السابعة " : " فإذا ألمعيق ألمعية ابن عباس ، وفراسق فراسة إياس".

(٢) السنا : الضوء والنور.

(٣) نص : صريح مقطوع بصحته ، وهو فى عرف الفقهاء : السند المقطوع بصحته فلا يخالفه قياس. فكأنه يقول : إن ودادى مسند إليك ، أو هو موقوف عليك ، أو متعين لك.. وقد استعمل الشاعر لفظى النص والقياس فى الشعر ، وهما من مصطلحات الفقهاء على عادته فى ذلك.

(٤) حالوا : تحولوا. خاسوا : خانوا.

(٥) السامرىّ : كبير من بنى إسرائيل. عبد العجل.. قال الكشاف : عوقب فى الدنيا عقابا لاشىء أطَمّ منه وأوحش ، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعا كليا ، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومواجهته ، وكل ما يعايش الناس به بعضهم ، وإذا مس أحدا – رجلا أو امرأة. حرم عليه ذلك ، فتحامى الناس وتحاموه ، وكان يصيح فى الناس " لا مساس" .. المساس : المسّ واللمس.

(٦) أذؤب : جمع ذئب. هامت بلحمى : تعشقته. والانتهاس : الأخذ بالأضراس ، أما الانتهاش بالشين فهو الأخذ بمقدم الأسنان.

(٧) الاعتساس : طلب الصيد بالليل.

إن قَسَا الدهرُ فللـــما ... ء من الصخرِ انبجاسُ[1]
ولئن أمسيتُ محـــبو ... ساً ، فللغيث احـــتباسُ
يلبدُ الوَرْدُ السَّبَـــنْتَى ... وله بعدُ افـــــتراسُ[2]
فتأمّل كيف يغـــشى ... مُقْلة المجْـد النُّعـاسُ[3]
ويُفَتُّ المِسكُ فى التُّرْ ... ب فيُوطـا ويُـــدَاسُ

*****

لا يَكُن عَهـــدُك وَرداً ... إن عَهــــدى لك آسُ[4]
وأدرْ ذكـــرى كأســاً ... ما امتطت كفّك كاسُ[5]
واغْـــتَنِم صَفو الليالى ... إنما العيشُ اخـــتلاسُ
فعَسَى أن يَسْمَحَ الدهرُ ... فقد طال الشِّـــمَاسُ[6]

ولابن زيدون فى سجنه كثير من المقطوعات .. والقصائد ، والرسائل التى أنشأها يستعطف بها سجانه " ابن جهور " ، ويتوسل إليه مستعينا بأصـــدقائه من الأمراء ، والوزراء ، ومصورا ما يعانيه فى محنته من ألوان العذاب والشقاء مبرئا نفسه من دسائس أعدائه وكيد منافسيه.

ومن رسائله فى ذلك رسالته " الجدية " التى كتبها وهو فى غيابة السجن ، وفيها يقول :

" يا مولاى وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، ومـــن أبقـــاه الله ماضىَ حَدّ العزم ، وارىَ زَند[7] الأمل ، ثابت عهد النعمة.

(١) انبجاسُ : تشقق ينبع منه الماء.
(٢) يلبد : يلصق بالأرض ملازما عرينه لا يبرحه.. الورد : الأسد.. السبنق : الجرىء.
(٣) المقلة : العين.
(٤) الآس : شجر دائم الخضرة لا يذبل زهره ، واحدته آسة.
(٥) امتطت كفك كأس : علت الكأس كفك.
(٦) الشماس : العصيان والتمرد .
(٧) الزند : الزناد ، وورى الزند هو اقتداحه ، وخروج النار منه.

إن سلبتني – أعزّك الله – لِباسَ إنعامك ، وعَطّلتني من حَلْـي إيناسـك ، وأظمأتني إلى برُود[1] إسعافك ، ونفضت بى كفَّ حياطتك ، وغضضْتَ عني طرف حمايتك[2] ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك ، وسمع الأصم ثنـائى عليك ، وأحس الجماد باستحمادى إليك ، فلا غَرْو[3] قد يغـصّ[4] بالمـاء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منيـة المتمنى فى أمنيته ، والحَيْن[5] قد يسبق جُهد[6] الحريص.

كلُّ المصائب قد تمرُّ على الفتى　　　وتهونُ غيرَ شماتة الحُسّاد

وإنى لأتجلّد ، وأرى الشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعضع ، فأقول : هـل أنا إلا يد أدماها سوارها[7] ، وجبين عضَّ به إكليله ، ومَشْـرَفِىّ[8] ألصـقه بالأرض صاقله ، وسَمْهرىّ[9] عرضه على النار مُثَقّفه.. وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول :

فقَسَـا ليَزْدَجِـروا ومَـن يَـكُ حازمـاً

فليقـسُ أحيانـا علـى مَـن يرحَـمُ

هذا العَتبُ محمودٌ عواقبه ، وهذه النبوة[10] غمرة[11] ثم تنجلى ، وهـذه النكبة سحابةُ صيف عن قليل تَقَشّعُ[12] !

ولن يَريبنى من سيدى أن أبطأ سَيْبُه[13] ، أو تأخر – غير ضنين غَنـاؤه ، فأبطأ الدلاء فيضا أملؤها ، وأثقل السحائب مشيا أحفلها ، وأنفع الحيا مـا صادف جدبا ، وألذ الشراب ما أصاب غليلا ، ومع اليوم غَدٌ ، ولكل أجـلٍ كتاب.

---

(١) البرود : الماء البارد ، أى إسعافك الذى هو كالماء البارد فى إروائه للغليل.

(٢) غضضت : خفضت.. الطرف : العين. (٣) لا غرو : لا عجب (٤) يغص : يشرق.

(٥) الحين : الهلاك. (٦) الجهد : الطاقة. (٧) السوار : نوع من الحلى يلبس فى الساعد.

(٨) المشرفى : السيف ينسب إلى مشارف الشام. (٩) السَّمْهَرى : الرمح ينسب إلى " سَمْهر" وهـو صانع ماهر للرماح.. وزوجته كانت تصنع معه السلاح واسمها "رُدينة " وإليها تنسب الرماح.

(١٠) النبوة : الجفوة. (١١) الغمرة : الشدة. (١٢) تقشع : تنقشع : تنكشف وتزول.

(١٣) السيب : الجود والعطاء.

وله الحمد على اهتياله ، ولا عَتْبَ عليه فى إغفاله.

فإن يكن الفعلُ الذى ساء واحدا

فأفعالُـــه اللاَّئى سَـــرَرْنَ ألـــوفُ

وأعود فأقول : ما هذا الذنب الذى لم يسعه عفوك ؟ والجهل الذى لم يأت من ورائه حلمك ؟ والتحاملُ الذى لم يفِ به أحتمالك ؟

ولا أخلو من أن أكون بريئا فأين العدل ؟ أو مسيئا فأين الفضل ؟

إلا يكن ذنب فعـــد لك واســـع

أو كان لى ذنب ففضلك أوســـع

وإذا كان هذا النص بعض رسالته الجدية التى بعث بها إلى " **ابن جهـــور** " فهناك رسالة "**هزلية**"

بعث بها إلى ولادة يذم فيها " **ابن عبدوس**" منافسه فى حبـــها .. ولـــولا الإطالة لأتحفنا القارىء الكريم بكل ما قاله ابن زيدون من وحى السجن! فإلى ديوانه!!

*****

المنفلوطى .. سجينا !!

أدْمَنَ المنفلوطى قراءة الأدب فى أمهات الكتب العربية كالأغانى ، والعقد الفريد ، والبيان والتَّبيين ، ودواوين المتنبى ، والبُحترى ، وأبى تمام وغيرهم ، فأخذ يقرض الشعر بين رفاقه وأحبابه ، وأول قصيدة اكتملت له ، وعرضها على من يهمهم الأمر كانت فى الغزل ، وقالها فى سن السادسة عشرة ، ولقى تشجيعا جعله يقول الشعر فى كل ما يحسه وينفعل به ، ويعايش قضية الوطن المحتل الذى يدنس أرضه الإنجليز! ويعيش تجربة فريدة !

وحمل المنفلوطى قلمه وهو على أبواب العشرين ، فإذا قصائده الوطنية الثائرة تفتح أمامه أبواب السجن على مصراعيه! وهو ما يزال طالبا بالأزهر .. وتجد قصائده النارية طريقها إلى الصحف والمجلات .

وفى سنة ١٨٩٧ كتب تحت عنوان " تحرير مصر" قصيدة وطنية بتوقيع : **"عدو الاحتلال"** ، وفيها يقول :

ألا رايـــةٌ للعدلِ فـــى مصرَ تَخفقُ
لعلّ مساعى دولـــةِ الظلـــم تُخفِـــقُ
ألا صَدمـــةٌ للجـــوْرِ تُوقِفُ سيرَه
فيُجْبَرَ ذاك الكسرُ ، والفتـــقُ يُرْتَـــقُ

*****

ذُهِلْنـــا فما ندرى أوَالـــى أمورنا
بلندنَ أم فى مصر كيـــف نُفَـــرّق
إليك خديوى مصر منك شكايـــةً
ومثلُـــك أدرى بالأمـــور وأحذق
كسَـــرْتَ قلوبا كنتَ قبلُ جَبرْتَها
فصرنا وكُلٌّ للمذلَّـــةِ مُـــطـــرِقُ

فوالله إن لـــم تُــدرك الأمــرَ واسعــا
لأُرْغمت عــن إدراكــه وهــو ضَيِّــق

وانتشرت القصيدة فى شوارع القطر ، وعرف الناس صاحبها ، وصار اسمه على كل لسان لا سيما فى أروقة الأزهر! .. حتى إذا ظهرت قصيدته الثانية بعنوان : " **قدوم**" عرف الشارع المصرى اسم قائلها وأنه "**عدو الاحتلال!**".

ومع أنه أفلت من العقاب ، فإن من حوله كانوا يدركون جيدا أن الحكومة تُرخى له العنان لتعرف مَن هم وراءه ، ومن يحركه ويحرّضه .. ومع علم المنفلوطى بثقل التبعة فقد استقبل الخديو من رحلة داخلية كان يقوم بها بقصيدة من خمسة وعشرين بيتا كانت تستقبل الخديو فى شوارع القاهرة وطرقاتها !

على ورقة حمراء محاطة بخطوط سوداء تحمل اسم " الصاعقة " لصاحبها ومحررها : أحمد فؤاد ومُصَدَّرَةٌ بقول الشاعر :

متى وعسى يَثْنـــِي الزمان عِفَانَه وتحدثُ من بعد الأمور أمورُ

وتحت هذا البيت الكلمات الآتية :

"تهنئة مرفوعة لسمو خديو مصر لمناسبة عودته من ثغر الاسكندرية إلى العاصمة "

وبعد ذلك قصيدة المنفلوطى الشهيرة التى يقول فيها :

قُدوم ، ولكن لا أقولُ سعـــيد ومُلْك – وإن طال المدى – سَيَبيدُ
بَعُدْت وثغرُ الناسِ بالبشر باسمٌ وعُدْتَ وحزنٌ فى الفؤاد شـــديد
تمرّ بنا لا طرفَ نحـــوكَ ناظرٌ ولا قلبَ من تلك القلوب وَدُودُ
علامَ التهانى ؟ هل هناك مآثرٌ فنرحَ ، أو سعى لديك حميـــدُ؟!
إذا لم يكن أمرٌ ففيم مواكبٌ ؟ وإن لم يكن نهىٌ ففيم جُنــودُ؟!
تُذَكِّرنا رؤيـــاك أيام أُنْزِلَـــتْ علينا خطوبٌ من جُدودِك سُودُ
رمتنا بكم (مقدونيا) فأصابنا مصوّبُ سَهْمٍ بالبَلاءِ سديـــدُ

فلما توليتم طغَيْـــتُم وهكـــذا إذا أصبح التُّركىّ وهو عميدُ

إلى أن يقول له :

فما قام منكم بالعدالة طـــارق ولا سار منكم بالسَّداد تليـــدُ
كأنى بقصر الملك أصبح بائدا من الظلم والظلمُ المبينُ مُبيـــدُ
ويندب فى أطلاله اليوم ناعبا له عند ترديد الرِّثـــاء نشيـــدُ
أعباسُ ترجو أن تكون خليفةً كما وَدّ آباء ورام جــــــدود
فياليـــت دنيانا تزول وليتنا نكون ببطن الأرض حين تسود
أعباسُ لا تحزن على الملك إنّهُ تقَضّى فهذا الحزنُ ليس يُفـــيد

وكانت القصيدة توزع بالَمجَّان فى الشوارع ، وفى دواوين الحكومة على مرأى ومسمع من كبار الموظفين ورؤساء الدواوين!

وتعاظم اهتمام الناس بها حتى أصبح ثمنها مثل ديوان المتنبى آنذاك.

وقد نشرتها جريدة ((**التيمس**)) مترجمة ، ولم يبق للناس حديث إلا حديث القصيدة التى هُجيتْ بها الحضرة الفخيمة الخديوية ، وانتظر الجميع نتيجة التحقيق فى هذه القضية.

لقد اعترف " المنفلوطى" بأنه ناظم القصيدة وأودع السجن!

وفى صباح السبت ١٨٩٧/١٢/٤ أى بعد مضى شهر على بداية الأحداث انعقدت جلسة المحاكمة ، وصدر الحكم على المنفلوطى بالحبس اثنى عشر شهرا ، وغرامة قدرها عشرون جنيها ، وكان استئناف للحكم، ودفاع عن القصيدة ، وصدر الحكم بالسجن ستة أشهر ، وبتأييد الحكم الابتدائى بالغرامة!

وذهب إلى "سجن الحوض المرصود بالسيدة " ! بشارع قدرى ويستخدم مبناه الآن "مستشفى للأمراض الجلدية " ، وقد وصفه صحفى نابه سُجن به ، وكان يكتب : "يوميات محرر بالسجن" فقال : "**عنابر أرضها من التراب**

العفن ، وإن صلح الحال فمن البازلت الأسود اللزج ، منعدمة التهوية تماما إلا من كُوّة يأبى النور أن يلج منها"!!

وأعداد متراكمة من البشر السُكارى واللصوص على اختلاف فئاتهم وانحطاط بيئاتهم ، وطعامهم رءوس الفجل التى تخشبت ، وأوراق الكرنب التى تدوسها المواشى والسابلة فى الطرقات والمزارع ، والخبز العفن الذى يشترى بعد أن يعافه فى السوق كل مشتر ، ويكون قد مضى عليه أسبوع على الأقل. كل هذا طعامهم. دع عنك توالد الرمم فى هذا المكان البغيض الذى اصطنع لينافس آبار العذاب فى غياهب الجحيم ".

إن هذا الوصف الدقيق ما هو إلا حديث مجرب هو: **سليم سركيس !**

فى هذا البلاء المطبق من كل جانب، والمطرد فى كل شىء والذى يضاعف آلامه خشونة السجان ، وبأس الجاويش — عاش " **المنفلوطى**" مع الهمل والدهماء فى هذا السجن المطبق عليه، وهو التقى الورع الطاهر!!

وتعمدت السلطات إغراقه فى النسيان ، وإهماله فى أعماق الجحيم!

وقبل أن يصبح " **المنفلوطى**" الكاتب الشهير فى دنيا " **المقالة الأدبية** " كان يغمز ويلمز وينال ثأره ! .. وحسبه — كما يقول الأستاذ العقاد — أنه سجّل **" أعنف قصيدة من قصائد الهجاء للخديو عباس ، ولجميع الأفراد فى أسرة محمد على من قبله ومن بعده".**

لقد عاش المنفلوطى مضطهدا من أواخر عام ١٨٩٧ إلى أوائل عام ١٩٠١ حيث سعى له كل من الإمام محمد عبده ، وإبراهيم المويلحى لاستصدار العفو عنه حتى يستطيع أن يشق طريقه ، وأن يمارس حياته!

على أن السنوات التى قضاها المنفلوطى فى الكفاح الوطنى والتكوين الأدبى حتى عام ١٩٠٧ كانت تشكل البداية لميلاد المنفلوطى الكاتب الوطنى الكبير ، والمصلح الاجتماعى الغيور ، معلم الأخلاق ، وداعية الفضيلة!

وأراك قد اشتقت إلى أن تعرف المزيد عن نشأته وعالمه الذى خلق لــه ، ورأيه فى الحرية والسجن ، وتصوره لما ينبغى أن يكون عليه قلب الشاعر :

وأعود فأقول : **قلب الشاعر لا ينبغى أن يسجن!**

نشأ بمنفلوط ، وتعلم بالأزهر ، وتوفر على إرسال المقالات الأدبية فى جريدة المؤيد.

ثم اتصل بالزعيم سعد زغلول فجعله محررا بالمعارف ، ثم الحقانية.

وكان كاتبا يجيد تصوير الشعور المتصل بالفواجع والأحزان وشعره قليل.

توفى سنة ١٣٤٣هـ. وترك تراثا أدبيا خالدا نقتطف منه ما كتبه عن عالم الشاعر الذى خلق له

يرى المنفلوطى أن الشاعر لم يخلق للسجن والقيد ، بل للهتاف والتغريد ؛ فيقول فى حديث له عن الشاعر مخاطبا له : " أنت كالطائر السجين فى قفصه، فمزق عن نفسك هذا السجن الذى يحيط بك ، وطِر بجناحيك فى أجواء هذا العالم المنبسط الفسيح ، وتنقل ما شئت فى جنباته وأكنافه.

واهتف[1] بأغاريدك[2] الجميلة فوق قمم[3] جباله ، ورءوس أشجاره ، وضفاف[4] أنهاره ، فأنت لم تخلق للسجن والقيد ، بل للهتاف والتغريد "

أمَا وقد تعرض المنفلوطى للسجن ، وزُج به فيه ، فإنه يهتف للحرية ، ويتغنى بها ، ويشفق على قلب الشاعر!!

إنه يكتب عن " **الحرية المجنى عليها** " فيقول ممهدا لآرائه وأفكاره فيها بذلك الأدب الرمزى :

" استيقظت فى فجر هذا اليوم على صوت "هرة" تموء بجانب الفراش ، وتتمسح بى ، وتلح فى ذلك إلحاحاً غريبا ، فرابنى أمرها ، وأهمنى همها ، وقلت : لعلها جائعة ، فنهضت وأحضرت لها طعاما فعافته ، وانصرفت عنه ، فقلت : لعلها عَطْشى ، فأرشدتها إلى الماء ، فلم تحتفل به ، وأنشأتْ تنظر إلىّ

(١) اهتف : مد صوتك.

(٢) الأغاريد : جمع أغرودة بضم الهمزة : غناء الطائر.

(٣) قمم الجبال : أعاليها ، واحدها قمة بكسر القاف.

(٤) الضفاف بكسر الضاد : جمع ضفة ، وضفتا النهر : جانباه.

نظرات تنطق بما تشتمل عليه نفسها من الآلام والأحزان ، فأثر فى نفسى منظرها هذا تأثيرا شديدا ، حتى تمنيت أن لو كنت "سليمان الحكيم" أفهم لغة الحيوان ، لأعرف حاجتها ، وأفرج كربتها ، وكان باب الغرفة مقفلا ، فرأيت أنها تطيل النظر إليه ، وتلصق بى إذا رأتنى أتجه إليه ، فأدركت غرضها، وعرفت أنها تريد أن أفتح لها الباب!فأسرعت بفتحه ، فما وقع نظرها على الفضاء ، ورأت وجه السماء ، حتى استحالت حالتها من حزن وهَمّ إلى غِبطة وسرور ، وانطلقت تعدو فى سبيلها ، فعدت إلى فراشى ، وأسندت رأسى إلى يدى وأنشأت أفكر فى أمر هذه الهرة ، وأعجب لشأنها وأقول :

ليت شعرى هل تفهم الهرة معنى الحرية!! وما كان حزنها وبكاؤها وإمساكها عن الطعام والشراب إلا من أجلها ، وما كان تضرعها ورجاؤها ، وتمسحها وإلحاحها إلا سعيا وراء بلوغها!

مشاعر أسرى الاستبداد :

وهنا ذكرت أن كثيرا من " **أسرى الاستبداد** " من بنى الإنسان لا يشعرون بما تشعر به الهرة المحبوسة فى الغرفة ، والوحش المعتقل فى القفص ، والطير المقصص الجناح من ألم الأسر وشقائه! بل ربما كان بينهم من لا يفكر فى وجه الخلاص ، أو **يلتمس السبيل إلى النجاة مما هو فيه!**

بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء فى هذا السجن ، ويأنس به ويتلذذ بآلامه وأسقامه!

من أصعب المسائل التى يحار العقل البشرى فى حلها أن يكون " الحيوان الأعجم" أوسع فى الحرية ميدانا من " **الحيوان الناطق!**" فهل كان نطقه شؤما عليه وعلى سعادته ؟!

وهل يجمل به أن يتمنى الخرس والبله ليكون سعيدا بحريته كما كان قبل أن يصبح ذكيا ناطقا؟

يحلق الطير فى الجو ، ويسبح السمك فى البحر ، ويهيم الوحش ما شاء فى الأودية والجبال ، ويعيش الإنسان رهين المحبسين : محبس نفسه ، ومحبس حكومته من المهد إلى اللحد !

صنع الإنسان القوى للإنسان الضعيف سلاسل وأغلالا ، وسماها تارة "**ناموسا** " وأخرى " **قانونا** " ليظلمه باسم العدل ، ويسلب منه جوهرة حريته باسم الناموس والنظام !

صنع له هذه الآلات المخيفة وتركه قلقا حذرا ، موزّع القلب ، مرتعد الفرائض ، يقيم من نفسه على نفسه حُرّاسا تراقب حركات يديه ، وخطوات رجليه ، وفلتات لسانه ، وخطرات وهمه وخياله لينجو من عقاب المستبد ، ويتخلص من تعذيبه ، فويل له ما أكثر جهله ! ، وويح له ما أشدّ حمقه!

وهل يوجد فى الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذى يعالجه ، أو سجن أضيق من السجن الذى هو فيه ؟!

الجناية الكبرى !!

ليست جناية المستبد على " أسيره " أنه سلبه حريته ، بل جنايته الكبرى عليه أنه أفسد عليه وجدانه ، فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية ، ولا يذرف دمعة واحدة عليها !!

لو عرف الإنسان قيمة حريته المسلوبة منه ، وأدرك حقيقة ما يحيط بجسمه وعقله من السلاسل والقيود لمات كمداً وحسرة كما يموت البلبل فى القفص ! ولسان حاله يقول :

لست أرضا قفصا وإن يكن من ذهبِ

وكان ذلك خيرا له من حياة لا يرى فيها شعاعا من أشعة الحرية ، ولا تخلص إليه نسمة من نسماتها !

السبيل إلى السعادة :

لا سبيل إلى السعادة فى هذه الحياة إلا إذا عاش الإنسان فيها حرا لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره إلا أدب النفس!

قيمة الحرية :

الحرية شمس يجب أن تشرق فى كل نفس ، فمن عاش محروما منها عاش فى ظلمة حالكة يتصل أولها بظلمة الرحم ، وآخرها بظلمة القبر!

الحرية هى الحياة ، ولولاها لكانت حياة الإنسان أشبه شىء بحياة التماثيل المتحركة فى أيدى الأطفال بحركة صناعية!

ليست الحرية فى حياة الإنسان حادثا جديدا ، أو طارئا غريبا ، وإنما هى فطرته التى فطر عليها منذ كان يتسلق الصخور ، ويتعلق بأغصان الأشجار.

حق مسلوب !

إن الإنسان الذى يمد يده لطلب الحرية ليس بمتسول ، ولا مستجدٍ ، وإنما يطلب حقا من حقوقه التى سلبته إياها المطامع البشرية ؛ فإن ظفر بها فلا مِنّةَ لمخلوق عليه ، ولا يَد لأحدٍ عنده!

*****

ويطيب لى أن أعلق على مقال المنفلوطى ملخصا إياه فى عبارة واحدة قالها الإمام الشافعى حين سأله رجل قائلا له :

أوصنى يا إمام !

فما كان جوابه إلا أن قال له :

" خلقك الله حرا ، فكن كما خلقك الله "

هذا .. وإذا كان المنفلوطى يرى أن قلب الشاعر لا ينبغى أن يسجن أبدا.. ترى ماذا يقول **"جبران خليل جبران"** فى مهجره عن **المليك السجين** ؟!

وإذا كان الشيء يذكر .. فإليك هذه المقالة من أدب السجن ..

كتب النابغة اللبناني **"جبران خليل جبران"** تحت هذا العنوان يقول :

خفف عنك أيها المليك الأسير ، فلست فى سجنك أشد بلاءً منّى فى جسدى!

اربض ، وكن متجلدا يا أبا الأهوال ، فالاضطراب أمام النوائب حَرِيٌّ ببنات آوى ، ولا يجمل بالملوك المسجونين سوى الاستهزاء بالسجن والسجان!!

سكّن روعك يا فتى العَزْم ، وانظر إلىّ فأنا بين عبيد الحياة مثلك بين قضبان القفص ، وما الفرق بيننا سوى حُلم مزعج يحاور روحى ، ولكنه يخشى الاقتراب إليك.

كلانا منفىّ عن بلاده ، بعيد عن أهله وأحبابه ، فخفض عليك جأشك ، وكن مثلى صابرا على مضض الأيام والليالى ، ساخرا بهؤلاء الضعفاء الذين يتغلبون علينا بعددهم لا بعزم أفرادهم.

وما عسى ينفع الزئير والضجيج والناس طرش لا يسمعون ؟!

لقد صرخت قبلك فى آذانهم ، فلم أستوقف غير أشباح الدجى ، وتفحصت مثلك طبقاتهم ، فلم أجد بينهم سوى جبان يستبسل متجبرا أمام المقيدين بالسلاسل ، وضعيف يتوقح متصلبا أمام المسجونين فى الأقفاص.

انظر أيها المليك الجبار ، انظر إلى هؤلاء المحيطين بسجنك الآن ، تفرس فى وجوههم ، تجد فى ملامحهم ما كنت تراه فى سحنات أدنى رعاياك وأعوانك فى مجاهل الصحراء..

فمنهم من يشبه الأرنب بضعف قلبه ، ومنهم من يماثل الثعلب باحتياله ، ومنهم من يضارع الأفعى بخبثه ، ولكن ليس بينهم من له سلامة الأرنب ، وذكاء الثعلب ، وحكمة الأفعى.

انظر ؛ فهذا كالخنزير قذارة ، أما لحمه فلا يؤكل ، وهذا كالجاموس خشونة ، أما جلده فلا ينفع، وذاك كالحمار غباوة ولكنه يمشى على الاثنتين، وذلك كالغراب شؤما ولكنه يبيع نعيبه فى الهياكل ، وتلك كالطاووس تيها وإعجابا أما ريشها فمستعار!

وانظر أيها السلطان المهيب .. انظر إلى تلك القصور والمعاهد فهى أوكار ضيقة يسكنها الإنسان مفاخرا ، بزخارف سقوفها التى تحجبه عن النجوم مغتبطا بصلابة جدرانها التى تفصله عن أشعة الشمس. هى كهوف مظلمة تذبل فى ظلالها أزاهر الشباب وتترمد فى زواياها جمرة الحب!

وتتحول فى فضائها رسوم الأحلام إلى أعمدة من دخان! هى سراديب غريبة يتمايل فيها سرير الطفل بجانب فراش المنازع ، وينتصب فيها تخت العروس بقرب نعش الميت.

وانظر أيها الأسير الجليل .. انظر إلى تلك الشوارع المنفرجة ، والأزقة الضيقة ، فهى أودية خطرة المعابر يتربص اللصوص بين منعرجاتها ، وتختبئ الخوارج بين جنباتها.

هى ساحة قتال مستتب بين الرغائب ، والرغائب تتنازل فيها الأرواح متضاربة ولكن بغير سيوف ، وتتصارع متناهشة ولكن بغير الأنياب.

بل هى غابة الأهوال تسكنها حيوانات داجنة المظاهر ، معطرة الأذناب ، مصقولة القرون ، لا تقضى شرائعها ببقاء الأنسب ، بل بدوام الأروغ والأحْيَل ، ولا تئول تقاليدها إلى الأفضل والأقوى ؛ بل إلى الأخبث والأكذب!!

أما ملوكها فليست أسدا نظيرك بل مخاليق عجيبة لهم مناقير النسور ، وبراثن الضبع ، وألسنة العقارب ، ونقيق الضفادع.

فدتك روحى أيها المليك السجين ، فقد أطلت الوقوف لديك ، وأسهبت بالكلام أمامك ، ولكن هو القلب المخلوع عن عرشه يتعزى بالملوك المخلوعين، وهى النفس السجينة المستوحشة تستأنس بالسجناء والمستوحشين!

فسامح فتى يلوك الكلام متسليا به عن الطعام ، ويرتشف الأفكار مستعيضا بها عن الشراب.

إلى اللقاء أيها الجبار المهيب ، فإن لم يكن اللقاء فى هذا العالم الغريب ، فسيكون فى عالم الأشباح حيث تجتمع أرواح الملوك بأرواح الشعراء!

* * * * *

مع الأستاذ العقاد فى سجنه

كان الأستاذ **العقاد** فى عمله الصحفى والأدبى يحتفظ لنفسه باستقلاله الشخصى فى الرأى ، كما يحتفظ بكرامته إلى أقصى حد ، ومن المحقق أنه لعب دوراً خطيرا فى **"كرامة الأدب والأدباء"** فقد كانوا قبل عصره يحيون حياة لا يشيع فيها الاستقلال!

وفى سنة ١٩٣٠ أشيع أن " **فـؤادا** " الملك آنذاك ، سيعود إلى ارتكاب حماقاته القديمة ، فيحل البرلمان ، ويعطل الدُّستور ، وسارع العقاد ، فخطب فى مجلس النواب خطبة نارية صاح فيها صيحته المشهورة قائلا :

" إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس فى البلاد يخون الدستور ولا يصونه "

وارتجف " **فـؤاد**" وأعوانه ، وتحتموا أن هذا عيب فى الذات الملكية ، غير أنهم لم يستطيعوا تقديم **العقاد** للمحاكمة بسبب تمتعه بالحصانة البرلمانية !

وظل طليقا حتى إذا تطورت الظروف ، وأصبح " **إسماعيل صدقى**" رئيسا للوزارة المصرية ، وعمد إلى إلغاء الدستور، وأحل محله دستورا آخر يحد من إرادة الشعب وسلطانه ، ويجعل **فؤادا** حاكما مطلقا انبرى العقاد يكيل له ضربات فى الصميم مدافعا عن حقوق الأمة فى الحرية والحكم.

و لم يلبث **صدقى** أن غدر به ، فأمر باعتقاله وتقديمه للمحاكمة بتهمة عيبه الذات الملكية !!

وقضى فى السجن **"تسعة أشهر"** طوالا لم تفتّ فى عزيمته ، ولا فى مقاومته للطغيان والبغى ، بل زادهما ضراما واشتعالا ، فبمجرد ان أفرج عنه اتجه تَوًّا إلى ضريح **"سعد زغلول"** و لم يكد يُلم بساحته حتى أنشد فى مستقبليه قصيدة

بديعة أعلن فيها ثباته على مبادئه ، وإصراره على مقاومة أعداء الأمة ، وفيها يقول :

وكنتُ جنينَ السجن تسعة أشهر
فهأنذا في ساحة الخُلْد أولَدُ

عُداتي وصَحبي لا اختلاف عليهما
سيعهدني كلٌ كما كان يَعْهَدُ

واستمر العقاد في حربه **لصدقي** شاهرا عليه مقالاته في صحف مختلفة مثل **الأفكار** ، والمساء، **وكوكب الشرق** ، **والجهاد** ، وصدقي يجن جنونه ، ويغلق الصحيفة تلو الصحيفة والعقاد ثابت لا يلين !

ولابد للحق أن ينتصر .. ولابد للقيد أن ينكسر !!

*****

يوسف الكوفى .. قاضى الأرض وقاضى السماء

قال **يوسف الكوفى** وكان قد روى الأشعار والأحاديث : حججت ذات سنة ، فإذا أنا برجل عند البيت **وهو يقول** :

اللهم اغفر لى، وما أراك تفعل !

فقلت : يا هذا ، وما أعجبَ يَأسك من عفو الله !

قال : إن لى ذنبا عظيما ! فقلت أخبرنى.

قال : كنت مع يحي بن محمد، فأمرنا يوم جمعة ، فاعترضنا المسجد ، فقتلنا ثلاثين ألفا ، ثم نادى مناديه : من علق سوطه على دار ، فالدار وما فيها له !

فعلقت سوطى على دار ودخلتها ، فإذا فيها رجل ، وامرأة ، وابنان لهما ، فأغلقت الدار عليهم، وصارت الدار سجنا لهم ، وأنا السجان !

فأقبلت على الرجل فقتلته ، ثم قلت للمرأة هاتى ما عندك ! وإلا ألحقت ابنيك به ! فجاءتنى بسبعة دنانير!

فقلت : هاتى ما عندك !

فقالت : ما عندى غيرها ، فقدمت أحد ابنيها فقتلته ، ثم قلت : هاتى ما عندك وإلا ألحقت الآخر به !

فلما رأت الجد منى ، قالت : ارفُق ! ؛ فإن عندى شيئا كان أودعنيه أبوهما، فجاءتنى بدرع مذهبة لم أر مثلها فى حسنها ، فجعلت أقلبها فإذا عليها مكتوب بالذهب :

إذا جَارَ الأميرُ وحاجباه   وقاضى الأرضِ أسرف فى القضاء
فويلٌ ، ثم ويلٌ، ثم ويلٌ   لقاضى الأرضِ من قاضى السماء !

فسقط السيف من يدى ، وارتعدت ، وخرجت هائما على وجهى إلى حيث ترى !!

الـوزير ابن مُقْـلَة ..

أول مَـنْ هَنْـدَس الحـروف .. تُقْطَـع يـده!

إنه الوزير ابن مُقْلَة الخطاط الذائعُ الصِّيت ! ذو المحل الأرفع !!

وهو أول من هندس الحروف وقدّر مقاييسها وأبعادها بالنقط ، وضـــبطها ضبطا محكما.

ولقد كان "خط ابن مقلة " يُضْرَبُ به المثل فى حسن الخط والجودة ، وفى ذلك يقول أحد الشعراء مادحا بعض الخلفاء :

يُخَطِّطُ مَولانا خطوط ابنِ مُقلةٍ فَيَنْظِمُهـــا نظمَ اللآلئ فى السِّلك

ويقول آخر :

فصاحة سَحبان، وخَطٌّ ابن مُقلةٍ وحكمةُ لقمانَ ، وعـــفةُ مريـــم

وقد كتب المصحف الشريف مرتين ..

وعاش ردحاً من الزمن فى أمن وسلامة ، ونعمة فاشية .. حتى وشى بـــه **"حاجب بن رائق"** إلى **" الراضى العباسى"** فرمى به فى السجن وأمر بقطـــع يده اليمنى .. أى أمر بقطع كفّ صَنَاع (ماهرة) ، وأداة مـــن أدوات الزينـــة والجمال فى دولته ، وذلك هو الحمق بعينه ! ، والغفلة فى أقبح صورها ، ولو أنه قطع رجله أو رجليه لكان ذلك الشر الذى فيه الخيار ، ولهـــان الأمـــر! ، ولقلنا : بعض الشر أهون من بعض ! هذا .. وقد بلغ من جمال خطـــه أنـــه كتب كتاب هدنة بين المسلمين والروم ، فوضعوه فى **" كنيسة القسطنطنية "** وكانوا يخرجونه فى الأعياد لإعجابهم به ! ويجعلونه من جملة زينتهم وتجملهم فى أخص بيوت العبادة مع أسفارهم ، والصور المقدسة عندهم !

ولما قطعت كف ابن مقلة ، وبانت (بعدت) يمينـــه قـــال رحمـــه الله — متوجعا متحسرا :

((يد خدمتُ بها الخلفاء ، وكتبت بها القرآن مرتين ، تقطع كما تقطع أيدى اللصوص!! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ؛ وإنا لله ، وإنا إليه راجعون !!))

ثم قال :

إذا مات بعضُك فابك بعضا فإن البعضَ مِن بعضٍ قريب !

ومن قوله المؤثر فى نكبته :

ما سئمتُ الحياةَ لكن توثّقْتُ بأيْمانهم فبانت يمينى
بعتُ دينى لهم بدنياىَ حتى حرمونى دنياهُمُ بعد دينى!
ولقد حُطْتُ ما استطعت بجهدى حفظَ أرواحِهم فما حفظونى
ليس بعد اليمين لذةُ عيش يا حياتى بانت يمينى فبينى !

وكان ابن مقلة — بعد قطع يده — يشد القلم على ساعده ويكتب به !

ثم صب عليه شانئُه جامَ غضبه ، ولم يكتف من التنكيل به ، بما أصابه من قطع يده ، بل قطع بعد ذلك لسانه وحبسه ، فكان يستسقى الماء من بئر فيجذبُ الرشاء بيده اليسرى جذبة ، وبفيه جذبة أخرى ، وقد بقى فى محبسه حتى مات فاستراح من العذاب الحسي والمعنوى!

رحمه الله ؛ وجزاه عن الخط العربى خير الجزاء !!

* * * * *

سجين عفيف!

من الطرائف التي تروى عن السجن والمساجين ما جاء فى "**نوادر العشاق**":

قال الحسين بن زيد : ولى بديار مصر والٍ فوجد على بعض عماله ، فحبسه وقيده !

وذات يوم أشرفت عليه ابنة الوالى فهويته ، فكتبت إليه وقد كان نظر إليها!

أيها الرامى بعينيه وفى الطرف الحتوف
إن ترد وصلا قد أمسكنك الظبى الألوف

فأجابها الفتى :

إن ترينى زانى العينين فالقلب عفيف
ليس إلا النظر الفاتر والشعر الظريف

فكتبت إليه :

قد أردناك على عِشْقك إنسانا عفيفا
فتأبيت فلا زلت لقيديك حليفا

فأجابها الفتى :

غير أنى خفت ربا كان بي بَرّا لطيفا

فذاع الشعر وبلغ الوالى ، فدعا به وزوجه إياها وزفها إليه !

شفاعة مقبولة !

من قضايا العفو عند المقدرة ما روى أن امرأة اتهم زوجها وابنها وشقيقها فى مؤامرة لاغتيال "**الخليفة المستنصر**" ! ووقفت تبكى بكاء مرا أمام قصر المستنصر !

حتى إذا رأته قادما من بعيد أخذت تستعطفه، وتطلب إليه أن يعفوَ عنهم ، أو يأمر بقتلها معهم ، فما قيمة الحياة بعدهم ؟!

فرق قلبه لها رحمة بها ، وأطرق قليلا ثم رفع رأسه إليها قائلا :

قد قبلت شفاعتك فى واحد منهم فاختارى ما تشائين !

فوقعت فى حيرة ، ثم قالت :

الزوج موجود ..

والابن مولود ..

أما الأخ فلا يعود ..

فأعجبه حسن اختيارها ، وصواب رأيها ، وعفا عنهم جميعا !!

أم جعفر البرمكى .. أبلغ دفاع عن أعز سجين!!

قد يدافع السجين عن نفسه ، وقد يجد من يتبنى قضيته ويتحدث بلسانه!

وها هى ذى أمٌّ ، كان ابنها من الرضاعة هو السجان ، أما السجين فهو زوجها !

وكان دفاعها نموذجا من نماذج الأدب الرفيع ، وكان الحوار رائعا وساخنا.. ومضى كل شيء وبقى على الأيام " ذلك الحوار" لما فيه من قوة الحجة وحسن البيان!

كانت أم **"جعفر بن يحيى" البرمكيّ** – وهى " **فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة** " – قد أرضعت **"هارون الرشيد"** مع **"جعفر"** ابنها لأنه رُبّى فى حِجرها ، فقد ماتت أمه ، وهو فى المهد فتولت إرضاعه مع ابنها !

وكان " **الرشيد**" يشاورها مُظهرا لإكرامها ، وقد آلى وهو فى كفالتها ألا يحجبها[1] ، ولا استشفعته لأحد إلا شفّعها !

وآلت " **أم جعفر**" ألا تدخل عليه إلا مأذونا لها ، ولا شفعت لأحد مقترفا ذنبا[2] !

قال سهل بن هارون :

فكم أسير فكّت ، ومُهِمٌّ عنده فرّجت ، ومستغلق[3] فتحت !

ولما فتك الرشيد بابنها "جعفر" ، وقذف بزوجها يحيى فى غياهب السجن – بعد إيقاعه بالبرامكة– طلبت الإذن عليه ، فلم يأذن لها ، ولا أمر بشىء فيها !

فلما طال ذلك بها خرجت كاشفة وجهها ، واضعة لثامها ، محتفية[4] فى مشيها حتى صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب **فقال** : ظِئْرُ[5] أمير المؤمنين بالباب فى حالة تقلب شماته الحاسد إلى شفقة أم الواحد!

فقال الرشيد : ويْحَكَ يا عبدَ الملك! أوَ سَاعِية هى؟!

قال : نعم يا أمير المؤمنين حافية!

قال : أدخلها يا عبد الملك ؛ فرُبّ كبدٍ غذّتها ، وكُربة فرّجتها ، وعورة سترتها !

قال سهل : فما شككت يومئذ فى النجاة بطِلابها ، وإسعافها بحاجتها !

فدخلت ؛ فلما نظر الرشيد إليها محتفية ، قام محتفيا حتى تلقاها بين عَمَد المجلس ، وأكب على تقبيل رأسها ، ومواضع ثدييها ، ثم أجلسها معه.

---

(١) لا يمنعها من الدخول عليه بغير إذن. (٢) مذنبا. (٣) أمر لا حل له!
(٤) محتفيه : حافية. (٥) ظئر : مرضعة ، وأم من الرضاعة.

فقالت : يا أمير المؤمنين ، أيعدو علينا الزمان ، ويجفونا خوفا لك الأعوان، ويَحرَدُك[1] بنا البُهتان ، وقد ربيتك فى حِجرى ، وأخذت برضاعك الأمان من عدوى ودَهرى؟!

فقال لها : وما ذاكَ يا أمَّ الرشيد؟

قال سهل : فآيسنى مِن رأفتِه أوّلاً تركه لكنيتها[2] آخرا !!

قالت : ظِئرك[3] يحيى ، وأبوك بعد أبيك ، ولا أصفه بأكثر مما عرفه أمير المؤمنين من نصيحته وإشفاقه عليه ، وتعرضه للحتف[4] فى شأن موسى أخيه!

قال لها : يا أم الرشيد ؛ أمر سبق ، وقضاء حُمّ ، وغضب من الله نفذ !

قالت : يا أمير المؤمنين : **﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾** [الرعد : ٣٩]

قال : صدقت! **فهذا مما لم يمحه الله !**

فقالت : الغيب محجوب عن النبيين ، فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟!

قال سهل : فأطرق الرشيد مليّا ، ثم قال :

وإذا المنيةُ أنْشَبَتْ أظفارَها ... ألْفيــَت كلّ تميمةٍ لا تنفَعُ

فقالت بغير رَوِيّة :

ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين ، وقد قال الأُوَل :

وإذا افتقرتَ إلى الذخائرِ لم تجد ... ذُخرا يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله – عز وجل : **﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** [آل عمران : ١٣٤]

فأطرق مَليّا ، ثم قال : يا أُم الرشيد ، أقول :

(١) الحرد : الغضب والبهتان الزور.
(٢) لم ينادها بقوله : يا أم جعفر.
(٣) زوج المرضعة.
(٤) الهلاك.

إذا انصرفَتْ نفسى عن الشىءِ لم تكَدْ   إليه بوجهٍ - آخرَ الدهر - تُقبِلُ

فقالت : وأنا أقول :

ستُقْطَع فى الدنيا إذا ما قطعتنى   يمينُك ، فانظر أىَّ كفٍّ تَبَدّلُ

قال هارون : رضيت !

قالت : فهبه لى ، فقد قال رسول الله ﷺ : **"من ترك شيئا لله ، لم يُوجِدْه الله فقْدَه"**(١) ، فأكب هارون مَليّا ثم رفع رأسه وقال : **﴿ للهِ الأمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾** [الروم : ٤]

قالت : يا أمير المؤمنين: **﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾** [الروم : ٤]

واذكر يا أمير المؤمنين أَلِيَّتَكَ(٢) : "ما استشفعت إلا شفَّعتَنى !"

قال : واذكرى يا أم الرشيد أَلِيَّتَك أَلاَّ شفعت لمقترف ذنبا !

قال سهل : فلما رأته صرح بمنعها ، ولاذ عن طلبها ، أخرجت حُقا من زُمُرُّدة خضراءَ ، فوضعته بين يديها ، فقال الرشيد : ما هذا ؟

ففتحت قُفْلاً من ذهب ، فأخرجت منه ذُؤابتَهُ وثناياه(٣) ، قد غمست جميع ذلك فى المسك.

فقالت يا أمير المؤمنين : أستشفع إليك ، وأستعين بالله عليك ، وبما صار معى من كريم جسدك، وطيب جوارحك ليحيى عبدك !

فأخذ هارون الرشيد ذلك فلثمه ، ثم استعبر وبكى بكاء شديداً ، وبكى أهل المجلس. ومر البشير إلى **"يحيى"** وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له ، ورجوع عنه!

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ ، وقد جاء فى كشف الخفاء ١٨٣/٢ ، وفى أحمد ٣٦٣/٥ : "وما ترك عبد شيئا لله لا يتركه إلا له ، عوضه الله ما هو خير له فى دينه ودنياه "   (٢) أليتك : قسمك ويمينك.

(٣) الذوائب : جمع ذؤابة: شعر مقدم الرأس. والثنايا : الأسنان الأربع فى مقدم الفم.

فلما أفاق..رمى جميع ذلك فى الحق، **وقال لها** : لَحَسَنٌ ما حفظت الوديعة!

قالت : وأهلٌ للمكافأة أنت !

فسكت وأقفل الحق ، ودفعه إليها وقال : **﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾** [النساء : ٥٨]

قالت : والله يقول : **﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾** [النساء : ٥٨]

ويقول : **﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾** [النحل : ٩١]

قال : وما ذاك يا أم الرشيد ؟

قالت : ما أقسمت لى به أنك لا تحجبنى ولا تمهننى[١] !

قال : يا أم الرشيد : أَتَشْرِينَه محكِّمة فيه ؟

قالت : أنصفت ، وقد فعلت غير مستقيلة[٢] لك ، ولا راجعة عنك ، قال: بكم ؟

قالت : برضاك عمّن لا يُسْخِطُك!

قال : يا أم الرشيد ، أما لى عليك من الحق مثل الذى لهم ؟

قالت : بلى .. أنت أعزُّ على ، وهم أحبُّ إلى.

قال : فتحكمى فى ثمنه بغيرهم.

قالت : بلى .. قد وهبتكه ، وجعلتك فى حل منه! وقامت عنه ، وبقى مبهوتا ما يُحير[٣] لفظة !

قال سهل : وخرجت فلم تعد ، ولا والله ما رأيت لها عَبرة ، ولا سمعت لها أنه!

---

(١) تجهدنى وتذلنى. (٢) لن أطلب منك أن تقيلنى وتعفينى مما وافقت عليه.

(٣) أحار الجواب : رده ، ما يحير لفظة ؛ ما ينطق بكلمة.

أحمد عرابى .. ومحمود سامى البارودى .. سجينا الكرامة والوطنية.

عندما قامت الثورة العرابية فى مصر حمل لواءها **أحمد عرابى** ومعه **محمود سامى البارودى**.

وكانت ثورة سياسية واجتماعية .. أما الثورة الفكرية فقد حمل " لواء الشعر" فيها **محمود سامى البارودى** وحده كما حمل " لواء النثر" فيها خطيب الثورة عبد الله النديم ، وانضم إليه الشيخ **محمد عبده** وغيره من الكتاب.

ولقد كان طموح " **البارودى**" فى هذه الناحية الفكرية أملا راود ذهنه صبيا وشابا ، حتى استطاع أن يحققه قبل أن يطأ أعتاب الكهولة ولقد كشف بيت شعر له من قصيدة عن هذا الطموح البعيد حيث قال :

وإنى امرؤٌ لولا العوائقُ أذعنت ... لسلطانه البدوُ المغيرةُ والحَضَر

ولمس عرابى فيه تأفقا من الظلم وميلا إلى العدل ، وبدا فى شعره ثائرا مُنْذراً حين قال :

أصبراً على مسِّ الهَوان وأنتُمُ ... عديدُ الحصى ؟ إنى إلى الله راجعُ[1]
وكيف ترون الذل دار إقامة ... وذلك فضل الله فى الأرض واسع[2]
أرى أرؤساً قد أينعت لَحصَادها ... فأين–ولا أينَ– السيوفُ القواطع[3]؟!
فكونوا حصيداً خامدين أَو افزعوا ... إلى الحرب حتى يدفعَ الضيمَ دافع[4]!

ونراه يخاطب توفيقا بعد توليه العرش فى يونيه ١٨٧٩م بهذه الأبيات التى يدعوه فيها إلى تثبيت الحكم النيابى فى البلاد ، فيقول :

---

(١) الاستفهام فى أول البيت للإنكار والتوبيخ. والهوان : الذل والخزى. وعديد الحصى : مثله فى العدد والكثرة.
(٢) يوبخهم على الرضا بالذل ، والإقامة فى داره ، والإخلاد إلى الهوان والحال أن فضل الله ورزقه واسع كثير يملأ الأرض.
(٣) أرؤسا : جمع رأس. وأينعت : أدركت ونضجت. وحان قطافها : الرءوس على تشبيهها بالثمار ومعنى أينعت لحصادها أدركت وآن لها أن تحصد. والقواطع : جمع القاطع – "ولا أين" جملة معترضة يستبعد بها وجود السيف.
(٤) الحصيد : الزرع المحصود. وخامدين : موتى ساكنين هامدين. وافزعوا : الجئوا. والضيم : الظلم.

هيهـــات يَحْيَـــا المُلْـــك دونَ مَشُـــورةٍ

ويعـــزُّ ركـــنُ المجـــدِ مالَـــم يعمـــد[1]

فالسيـــفُ لا يَمضـــى بـــدونِ رَوِيّـــة

والـــرأى لا يَمْضِى بغيـــر مهـــنـــد[2]

فاعكـــف علـــى الشورى تجد فى طيها

من بَيّنـــات الحكـــمِ مالـــم يوجـــد[3]

لا غـــروَ إن أبصـــرت فـــى صفحاتها

صـــور الحـــوادث فهـــى مرآة الغد[4]

فالعقـــلُ كالمِنظـــارِ يُبصـــر مـــاَ نأى

عنـــه قريبـــاً دون لمـــسٍ بالـــيـــد[5]

وكفـــاك علمُك بالأمورِ ، وليس من

سَلَـــك السبيـــلَ كحائـــرٍ لم يهتدِ[6]

وبدأت نُذُر الثورة تلوح فى الأفق ، وتأزمت الأمور بعد اعتقـــال **عـــرابى** ورفاقه ، وشكلت وزارة دخلها **البارودى وزيرًا للحربية** استجابة لمطالـــب العرابيين ، وتحركت أصابع الاستعمار ، وطلبوا إسقاط الـــوزارة ، وألـــف **البارودى** وزارة جديدة دخلها عرابى وزيرا للحربية وتآمر بعـــض الضـــباط الجراكسة لاغتيال عرابى ، وقدم قنصلا انجلترا وفرنسا مذكرة يطلبان فيها من الخديو استقالة الوزارة ، وإبعاد عرابى واستقالت وزارة البارودى احتجاجـــا على هذه المطالب فى ٢٦مايو ١٨٨٢م وهنا ساءت الأمور ، وظل منصـــب الوزارة شاغرا ثلاثة أسابيع.

---

(١) هيهات : اسم فعل ماض بمعنى بعد ما لم يعمد : ما لم توضع له عمد ويقوم عل أساس.

(٢) مهند : سيف قاطع. وقد كانت سيوف الهند قديما هى المثل.

(٣) فاعكف على الشورى : أقبل عليها ووطن أمرك عليها.

(٤) لا غرْو : لا عجب. (٥) نأى : بعد. (٦) السبيل : الطريق.

وبدأت الأحداث تتوالى كالظلمات يأخذ بعضها بتلابيب بعض ، وتجتاح البلاد ، وانحاز الخديو إلى المستعمرين يحمونه من غضب الشعب ، وقُدم زعماء الثورة للمحاكمة لتقضى على السبعة الكبار منهم بالإعدام ، ثم يُعَدّل الحكم بالنفى إلى "سيلان" ، ونقلتهم الباخرة ، ومعهم **البارودى** ليقضى فى منفاه سبعة عشر عاما يتخطف الموت خلالها زوجَه ، وأحبابَه ، ويتحول زئير الأسد إلى أهازيج بلبل فى قفص ، ونستمع إلى صدى صوته وهو يردد :

ولما وقفنا للوداع ، وأسبلت ... مدامعنا فوق الترائب كالمزن[(١)]
أهبت بصبرى أن يعود فعزّنى ... وناديت حلمى أن يثوب[(٢)] فلم يغن
وما هى إلا خطرة ثم أقلعت ... بنا عن شطوط الحى أجنحة السفن
فكم مهجةٍ من زفرة الوَجْد فى لظى ... وكم مقلةٍ من غزْرة الدمع فى دجن[(٣)]

ونسمعه يقول فى سجنه :

١) شفنى وجدى ؛ وأبلانى السهر ... وتغَشَّتْنى سمادير الكدر[(٤)]
٢) فسواد الليل ما إن ينقضى ... وبياض الصبح ما إن ينتظر[(٥)]
٣) لا أنيسٌ يسمعُ الشكوى ، ولا ... خبر يأتى ، ولا طيفٌ يُمرّ[(٦)]
٤) بين حيطانٍ وباب مُوصَدِ ... كُلما حركه السجانُ صَرّ[(٧)]
٥) يتمشى دونَه حتى إذا ... لحقته نبأةٌ منى استَقرّ[(٨)]

---

(١) الترائب : عظام الصدر ، وموضع القلادة.. والمزن المطر.
(٢) أهبت بصبرى : طلبت منه. يثوب : يرجع.
(٣) دجن : ظلام.
(٤) شفنى : لذع قلبى.. أو هزلنى وأنحلنى. والوجد : الحزن والهم. وأبلانى : أخلقنى وهزلنى وأضعفنى ، وتغشتنى : جاءتنى وأصابتنى. والسمادير : جمع سُمدور (كعصفور) وهو غشاوة العين. أو السمادير: ضعف البصر، أو شيء يتراءى للإنسان من ضعف بصره. والمراد بسمادير الكدر : ظلماته وهمومه.
(٥) ما إن ينقضى : لا يكاد يزول وينتهى فليله طويل. وبياض الصبح ما إن ينتظر : لا أمل من ظهوره!
(٦) الطيف : الخيال الطائف فى المنام. يقول : إنه حرم الأنيس الذى يزيل وحشته ، ويستمع لشكواه ، وتقطعت بينه وبين أهله وصحبه الأسباب. فلا تصل إليه أخبارهم ، ولا يمر به طيفهم.
(٧) موصد : مغلق. وصَرّ : أحدث صوتا، واسم ذلك الصوت : الصرير.
(٨) دونه : على مقربة منه. والنبأة : الصوت الخفى. واستقر : ثبت ووقف. يريد : أن السجان يتسمع إلى حركاته ، ويبالغ فى حراسته.

١) كلما دُرْتُ لأقضــىَ حاجــةً قالت الظُّلمــةُ : مهــلاً لا تــدُرْ[١]
٢) أتقرَّى الشــىءَ أبغيــه ، فــلا أجدُ الشــىء ولا نفســى تَقــرّ[٢]
٣) ظلمةٌ ما إنْ بهَا من كوكــبٍ غــيرُ أنفــاسٍ تَرامَــى بالشَّــرَرْ[٣]
٤) فاصبرى يا نفسُ حتى تظفَــرىَ إنّ حُسْنَ الصَّبْرِ مفتــاحُ الظَّفَــر[٤]
٥) هى أنفاسٌ تَقَضَّى ، والفــتى حــيثمــا كان أسيرٌ للقــــدر[٥]

ويفيض به الحنان الجارف ، والشوق المضطرم إلى أهله وجيرانه فيقول :

١) أحِنُّ إلى أهلــى وأذكــر جيرتــى وأشتاق خُلانى ، وأصبو لمَــأْلَفى[٦]
٢) فلا أنا أسلو عن هــواىَ فانتــهى ولا أنا ألفى من أحــب فاشــتفى[٧]
٣) وإنى على ما كانمن من سرف النوى لباق على وُدّى لمن كنت أصطفى[٨]
٤) سجية نفسٍ لا تميل مع الــهــوى وذمةُ عهدٍ بين ســيفٍ ومُصحفِ[٩]

---

(١) المعنى أنه فى ظلام حالك ، لا يستطيع فيه أن يعمل شيئا.

(٢) أتقرى الشىء : أتتبعه. والمراد : أتلمسه بيدى فى هذه الظلمة الحالكة وتقر (بكسر القاف وفتحها). تستقر، وتسكن، وتطمئن.

(٣) " إنْ " و"منْ " فى الشطر الأول زائدتان. ويريد بالظلمة : ظلمة السجن. ويريد بالأنفاس : أنفاســه الحارة المنبعثة عن الهم والحزن ، وترامى : أصلها تترامى ؛ أى ترمى. والشرر : جمع شررة (بفتحتين) وهى الشرارة التى تتطاير من النار. يقول : ليس بالظلمة التى أنا فيها كوكب يضيئها ، وإنمــا بهــا أنفاس حسرة وألم تقذف شرارا يكاد يثقب هذه الظلمة.

(٤) الظفر : الفوز والنصر.

(٥) تقضى : تنتهى وتنقضى. والقدر : ما قدره الله بناء على علمه المحيط الكشاف.

(٦) أحن: أصبو وأشتاق. وأهل المرء: عشيرته وذوو قرباه. والجيرة: الجيران. وخُلانى: أصدقائى. وأصبو: أشتاق وأميل والمألف: اسم مكان. أى أنست به وأحببته. ويراد به الوطن.

(٧) سلاه وسلا عنه: نسيه. والهوى : الحب. وأنتهى: أكف وأمتنع. وأشتفى: أُشْفَى بالبناء للمجهول.

(٨) السرَف : مجاوزة الحد، وهو ضد القصد والاعتدال. والنوى : البُعد. والــوُد : المــودة والمحبــة. وأصطفى: أختار.

(٩) السجية : الطبيعة. والهوى: ميل النفس إلى شهواتها، وانحرافها عن الهدى والرشاد. والذمة: الحــق والحرمة. والعهد: الميثاق ورعاية الحرمة.

ويتشوق إلى وطنه فى أسى وحرقه فيقول :

١) لا فى "سرنديبَ" لى خلٌ أَلُوذُ به ... ولا أنيسٌ سوى هَمّى وإطراقى[١]

٢) أَبيتُ أرعى نُجومَ الليلِ مرتفقـاً ... فى قُنّـةٍ عَزّ مَرقاها على الراقى[٢]

ثم يتجه بخياله إلى جمال وطنه فيهتف هتاف البارّ الحنون فيقول :

يا "روضة النيل" لامَسَّتْك بائقـةٌ ... ولا عَدَتْك سَماءٌ ذاتُ أَغْـداق[٣]

ولا برحتِ مـن الأوراقِ فى حُلَـلٍ ... من سُندسٍ عبقرىٍّ الوَشْىِ بَراق[٤]

يا حَبّذا نَسَـمٌ مـن جَوِّهـا عَبِـقٌ ... يَسْرِى على جدولٍ بالماء دَفّـاق[٥]

بل حبذا دوحة تدعو الهـديل بهـا ... عند الصباح قَمَـارِىٌّ بـأطواق[٦]

مَرعى جيادى ، ومأوى جيرتى،وحمى ... قومِى ، ومَنبَتُ آدابى وأعراقـى[٧]

---

(١) الخل: الصديق المخلص. ألوذ به: أعوذ به وألجأ إليه. والأنيس: المؤانس والأليف والرفيق الـذى تذهب به الوحشة ويطمئن إليه القلب. والهم: الحزن والوحشة والضجر. والإطراق: السكوت.

(٢) أرعى نجوم الليل: أراقبها وأنتظر مغيبها وهذا كناية عن الأرق والهم. مرتفقا: متكئا على مرفقـى. والارتفاق من علامات الهم والحزن والغم. والقنة: أعلى الجبل. وعز: شق وصعب واشتد. والمرقى: الصعود ، والراقى: الصاعد.

(٣) الروضة: البستان الناضر. والمراد بروضة النيل: روضة المقياس. لامستك: لا أصابتك. بائقة: داهية. ولاعدتك: لا تجاوزتك. سماء: سحب وأمطار. أغداق: مطر غزير.

(٤) لا برحت: لازلت. والحلل: أثواب. السندس: رقيق الديباج. عبقرى: لانظير له. والوشى: النقش. براق: شديد اللمعان والتلألؤ.

(٥) نَسَمٌ: نفس الريح. عبق: طيب عَطِر. الجدول: النهر الصغير.

(٦) بل: حرف إضراب يراد به الانتقال من معنى إلى آخر. والدوحة: الشجرة العظيمة المتسعة. تـدعو الهديل: تصيح به وتناديه. والهديل: ذكر الحمام. والقمارىّ جمع قمريّة: اسم لنوع جميل من الحمام ؛ ذات أطواق : ريش ملون حول رقبتها يبدو كالطوق.

(٧) مرعى: مكان الرعى. والجياد: جمع جواد وهو الفرس السبّاق. ومأوى: منزل. جيرتـى: جـيرانى. والحمى: ما يجب على الإنسان أن يحميه (الوطن). ومنبت آدابى: أصل فضائلى ومكارمى وأخلاقى. وأعراقى: أصلى.

أصبو إليهـــا علـــى بُعـــد،ويُعجبنى أنى أعيش بها فى ثـــوب إمـــلاق[1]
وكيف أنسى دياراً قد تركـــتُ بهـــا أهلاً كراما لهم وُدّى وإشفاقى؟[2]
فيا بريدَ الصَّـــبا بلغ ذوى رحمــــى أنى مقـــيم على عهدى وميثاقى[3]

ويقول فى إباء جريح ، وعزة مكلومة بعد وصوله إلى سرنديب :

ولولا تكـــاليفُ الســـيادةِ لم يخب جبان ، ولم يحو الفضـــيلة ثـــائر[4]
تقل دواعى الـــنفس وهـــى ضـــعيفة وتقوى همومُ القلبِ وهْو مُغـــامرُ[5]
وكيف يَبينُ الفضلُ والنقصُ فى الورى إذا لم تكن سومَ الرجالِ الـــمآثرُ[6]

ويرى ابنته الوسطى سميرة فى المنام فتشتعل عواطفه ويقول :

تأوّبَ طيف مـــن "سمـــيرة" زائـــرٌ وما الطيفُ إلا ماتريه الخـــواطرُ[7]
أَلَمّ ولم يَلْبَثْ ، وســـــار ، وليتـــه أقام ، ولو طالت علىّ الدياجرُ[8]
تحمَّلَ أهوال الظلامِ مُخـــــــاطرا وعَهدى بمن جادت به لا تُخاطرُ[9]
فيا بُعدَ ما بيـــــــنى وبيـــنَ أحِبتَّى! ويااقْرَبَ ما التفَّتْ عَلَيْه الضمائرُ[10]

---

(١) أصبو: أحن وأشتاق وأميل. إليها: إلى روضة النيل؛ والإملاق: الفقر.

(٢) الود: الحب كالمودة والوداد ؛ والإشفاق: عناية مختلطة بشوق.

(٣) الصَّبا: ريح تهب من ناحية المشرق ، وكانت أحب الرياح إليهم. ؛ وذوو الرحم: الأقارب ؛ مقـــيم على عهدى: مازلت وفيّا.

(٤) يريد بالثائر: الوثاب الشجاع. والمعنى: أن السيادة تتطلب ركوب الأخطار ، والإقدام على المهالك، وغير هذا من المشقات والصعاب ، ولولا ذلك ما خاب جبان ، ولا حاز الفضيلة شجاع.

(٥) الهموم: العزائم واحدها هَمّ مصدر هممت بالشيء أى أردته ، ومغامر: ملـــق بنفســـه فى الشـــدائد والغمرات.

(٦) يبين: يتضح ، والورى: الخلق. وسوم: مصدر سام المشترى السلعة: أى طلب بيعها ، والمراد بالسوم هنا: المطلب. والمآثر: المكرمات والمفاخر. واحدها مأثرة. والمعنى أن تنافس الرجال فى شراء المحامـــد ، وكسب المكرمات يظهر فضلهم وبعد هممهم ، كما يظهر نقص الخاملين وقصورهم.

(٧) تأوبه: أتاه ليلا. والطيف: الخيال الطائف فى المنام. وسميرة: ابنة الشاعر. والخواطر: الهواجس الـــتى تخطر ببال الإنسان وتقع فى خلده ، وكل ما يتحرك فى القلب من رأى أو معنى.

(٨) أَلَمّ به: حلّ ونزل. ولم يلبث: لم يمكث. والدياجر: جمع ديجور وهو الظلام.

(٩) أهوال الظلام: مخاوفه وأخطاره. ومخاطرا: معرضا نفسه للخطر والهلاك. وعهدى به: معرفتى. يشـــير إلى صغر سنها وطفولتها. (١٠) يريد بما التفت عليه الضمائر: ما تكنه النفوس من الود والشوق والمحبة.

فـإن تكـن الأيـامُ فـرَّقْن بيننـا فكـلُّ امـرىء إلى الله صـائرُ[١]
صَبَرْتُ على كُرهٍ لما قـد أصـابنى ومن لّم يجد مندوحةً فهْو صـابر[٢]

ويرد إليه وهو فى سرنديب نعى زوجته فيرثيها بقصيدة كلها حسـرة وألم يقول فيها :

يا دهـرُ فـيم فجعـتنى بحليلـة كانت خُلاصة عُدّتى وعتادى[٣]
إن كنت لم ترحم ضناى لبعـدها أفلا رحمت من الأسى أولادى[٤]

ويعتريه الضعف وهو فى منفاه فيقول فى حسرة :

لا أرى الشىء حين يسنـح إلا كخيال كأننى فـى ضـباب[٥]
وإذا ما دُعيت حـرت كأنـى أسمع الصوتَ من وراء حجاب[٦]
كلمـا رُمـتُ نهضـةً أقعـدتنى ونيـة لا تقلّهـا أعصـابى[٧]
لم تدع صـولةُ الحـوادث مـنّى غـيرَ أشلاءِ هـمةٍ فى ثياب! [٨]

ويشاء الله أن يرى وطنه بعد غيبة طال أمدها .. وهو بين شك ويقـين .. واستمرت غيبته سبعة عشر عاما فيقول :

أسمع فى قلبى دبيبَ المنـى وألمح الشبهة فى خاطـرى

وعندما تأكدت له العودة إلى أرض الوطن راح يهتف :

أبابلُ مَرْأَى العين أم هذه مصر؟ فإنى أرى فيها عيونا هى السحر!!

ولكن بصَرهُ بدأ نوره يخبو ؛ فما هى إلا أربع سنوات حتى أسلم الروح إلى باريها فى الأيام الأخيرة من عام ١٩٠٤ ؛ ولكنه ظل باقيا بما أنشد من شعر!!

وما أكثر من نُفوا فى سبيل وطنهم ودينهم. فتعال إلى " أمير الشعراء"..

---

(١) سوف نبعث ونلقى الله. (٢) الكَره: (بفتح الكاف) اسم من الإكراه بمعنى القهـر والغلبـة. والكُره (بالضم) المشقة والكراهية. وقيل: هما لغتان بمعنى واحد. والمندوحة: السـعة. (٣) فـيم فجعتنى: لأى شىء حرمتنى من زوجتى. حليلتى: زوجتى. (٤) الضنى: المرض والهزال الشـديد. والأسى: الحزن. (٥) يسنح: يعرض لى. (٦) من وراء حجاب: مختلطا غير واضح.
(٧) رُمت: قصدت وأردت. ونية: فتور وضعف وعجز عن القيام بما أريده. لا تقلها أعصابى: لاتتحملها ولا تقوى عليها. (٨) صولة الحوادث: قوتها. أشلاء: بقايا.

أمير الشعراء أحمد شوقى .. فى المنفى !!

عندما أقبل صيف ١٩١٤ كان حارا ملتهبا ، حيث دخلت انجلترا الحرب ضد ألمانيا فى أوائل أغسطس.

وكانت انجلترا تعلم علم اليقين أن الدولة العثمانية ستحارب إلى جانب ألمانيا.

وأسرعت الأحداث إلى مصر ، فقد أعلنت " **الأحكام العرفية** " ، وقُبض على الكثير ممن كانت لهم صلة بالخديو المخلوع **عباس حلمى** الذى لم يُخْفِ ميوله وعواطفه تجاه العثمانيين ، وكان مريضا يعالج بتركيا آنذاك!

فى ذلك الصيف الحار كان **شوقى** فى الآستانة عندما أعلنت الحرب فى شهر أغسطس ، فآثر البقاء إلى جانب **الخديو عباس** الذى كان طريح الفراش بعد إطلاق الرصاص عليه !

ولكن الخديو ألح عليه فى العودة إلى مصر ، ولم يكد يصل حتى تتابعت الأحداث، واستدعى شوقى للمحاكمة !

وكان **شوقى** قد لزم بيته وهو يعلم أن سلطات الاحتلال تنتهز هذه الفرصة للتخلص من كل من كانت له صلة بالخديو المخلوع !

وثارت فى وجدانه شتى الأحاسيس .. أهو النفى أخيرا ؟ إنه أقسى أنواع العذاب !!

ولكن أى البلاد يختار ؟

إن روائح الشرق لا تفوح إلا من أسبانيا فلتكن منفاه وملجأه !

إن الخامس من أغسطس عام ١٩١٥ تاريخ لا ينسى !

إنه يركب القطار إلى السويس وهو أشقى الناس !!

إنه طائر اللب زائغ البصر .. لا يدرى ما تخبئه الأيام .. وها هى ذى "**سفينة بضاعة**" صغيرة قديمة يحمل إليها كتبه وأبناءه جميعا وزوجه ، ثم بعض خدمه .. أما هو فقد انتبذ مكانا قصيا ، ثم جلس وحيدا !

" إن للنفى لروعة ، وإن للنأى لَلَوْعة ، وقد جرت أحكام القضاء بأن نعبر الماء ، حين الشر مضطرم ، واليأس محتدم ، والعدو منتقم ، والخصم محتكم" .

وشقت السفينة طريقها إلى برشلونة .. وتحمّل شوقى أيامه فى المنفى ، ومضت لياليه هادئة حينا ، أرِقَةً تجترُّ أحزانها حينا آخر !!

حقا إن للنفى لروعة ! ، وأعز شيء أضناه فراقه بعد الوطن هو أمه المريضة !

لقد كان يظن أن الحرب لن تطول .. ويمنى نفسه بالعودة ، ولكن الحرب طال أمدها ..

ويدعوه "**عباس حلمى**" للحاق به فى النمسا على ظهر غواصة فيرفض الدعوة .. لم يعد شاعر الأمير .. وتمر السنوات بطيئة متثاقلة !

وينقطع المال عن الوصول إليه لاتهامه بتحريض "**عرب مراكش**" على محاربة الحلفاء .. ستة أشهر كاملة لم يصله شيء ، باع فيها حلى زوجته وابنته وأوشك ما معه من مال على النفاد !

هل يتضور أبناؤه جوعا فى المنفى؟ هل يستجدى ؟ وراح يعدِّل من إنفاقه.. ويُعيد حساباته !

واشتد به الحنين إلى مصر فبعث بهذه الأبيات إلى صديقه الشاعر **حافظ إبراهيم** :

يا ساكنى مصرَ إنا لا نزالُ على عهدِ الوفاءِ وإن غِبنا مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نَهركُم شيئا نبلّ به أحشاءَ صادينا

كل المناهلِ بعد النيل آســــنةٌ   ما أبعدَ النيلَ إلا عن أمانينا

وأتته أبيات **حافظ** بلسما لجراحه :

عجبت للنيـــل يـــدرى أن بُلْبُلَـــه   صادٍ ويسقى رُبى مصرٍ ويســـقينا
والله ما طاب للأصحاب مورده يومًا   ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وإن فارقـــت شاطـــئه   وقـــد نأينا وإن كـــنا مقيمينا

نعم إن بلبل مصر صادٍ أحرقه الظمأ ، يتلهف على قطرات مـــاء النيـــل ، فيُدفع عنها وينفَى ويبعد، بينما الأجنبى يعب منه مرات ومرات !

ولكنهم يحسون فى مصر بظمئه ، وهذا ما يسكن جراحه إلى حين غير أن القلق يعاوده ثانية فيبعث إلى " **إسماعيل صبرى**" "**شيخ الشعراء**" بأبيات مـــن أجمل ما قيل فى المنفى انداحت فوقها عبراته ، ولكنه لا يهدأ !!

وإليك الأبيات التى بعث بها لشيخ الشعراء !

أرسل " **أمير الشعراء أحمد شوقى**" فى منفاه بالأندلس إلى رئـــيس تحريـــر جريدة الأهرام آنئذ : "**داود بركات**" بيتين وطلب إليه عرضهما على الشاعر **إسماعيل صبرى باشا** وهما :

يـــا ســـارى البـــرقِ يرمـــى عـــن جوانحنـــا
بعـــد الهـــدوء ، ويهمـــس عـــن مآقيـــنا[1]
ترقـــرق المـــاءُ فـــى عيـــن السمـــاء ومـــا
غـــاض الأســـى فخَضَبْنـــا الأرضَ باكينـــا

---

(1) بعد الهدوء : أى فى سكون الليل ، وهدوء الناس ، ثم شبه ما فى الجوانح من لهيب الشوق باشـــتعال البرق ، وتخيل أن البرق قد اقتبس اشتعاله من نار ضلوعه ، كما شبه ما يهمس به البرق من الغيـــث بفيض دموعه. والمآقى: مجارى الدموع.

فأجابه الشاعر بهذه الأبيات :

يا وامِض البرقِ كم نَبَّهت من شَجَـــنٍ
فـــى أضلُع ذُهِلت عن دائها حــــينا[1]
فالمــاءُ فــى مُقَلٍ ، والــنارُ فى مُهَــجٍ
قــد حــار بينهمــا أمــرُ المحــبينــا
لــولا تذكُّــرُ أيــامٍ لنــا سلــفــت
مــا بات يبكى دماً فى الحــىّ باكــينا
يــا آل وُدّى عــودوا لا عدمتُكــمُ
وشاهدوا – ويحكم – فعل النوى فينا[2]
يــا نسمــةً ضَمَّخَــتْ أذيالها سحرا
أزهــارُ أنْدَلُــسٍ هبــى بوادينـــا[3]

ومن أين له الهدوء ، وهو فى كل يوم يشاهد السفن فى الميناء:

مستطــار إذا البواخــــر رَنّــــتْ
أولَ الليـــل ، أو عَــوَتْ بعــد جَــرْسِ
يــا ابنــةَ اليَــمِّ مــا أبــوك بخيـــل
مــا لــه مولــعــا بمــنْــعٍ وحَبْــسِ؟!
أَحَــرامٌ علــى بلابلــه الــــــدَّو
حُ حــلالٌ للطيــر مــن كــل جنــس

(١) وامض البرق : لامعه ، والشجن: الحزن والهم يخاطب البرق بأنه هاج الحــزن الكمــين ، وأثــار فى الضلوع أوارها الدفين. (٢) النوى: البعد.

(٣) ضمخت أذيالها: أى طيبتها وعطرتها. يقول: أيتها النسمة المتأرجة بأريج زهر الأندلس هبى علينا بمصر لتذكر بك أحبابنا فى تلك الديار النائية.

نفسى مِرْجَلٌ ، وقلبى شِراع
بهما فى الدموع سِيرى وأرسى
وطنى لو شُغِلْت بالخلد عنه
نازعتنى إليه فى الخُلد نفسى !!
شهد الله لم يغب عن جفونى
شخصُه ساعة ولم يخلُ حِسّى !

ومرت ثلاث سنوات كأنها الدهر ، وهو فى المنفى ، ثم أعلنت الهدنة بين الدول المتحاربة فى نوفمبر عام ١٩١٨ ، فأى سعادة تلك التى أزاحت عن صدره كل الأشجان ، وضمدت كل الجراح ، وفى سبتمبر عام ١٩١٩ طلب السلطان من رئيس الوزراء أن يعمل على عودة شوقى من المنفى .. وتحقق الأمل .. وهتف **شوقى** :

ويا وطنى لقيتك بعد يَأسٍ ... كأنى قد لقيت بك الشبابا !!

وخرجت مصر كلها ترحب به بعد ما آن للغائب أن يعود !

بعد المنفى

سعيدة تلك اللحظات التى يطلق فيها سراح المبعدين ويؤذن لهم بالعودة إلى وطنهم ومسقط رأسهم.

وكان **لأمير الشعراء** قصيدة تعد فاتحة شعره بعد عودته من منفاه ببلاد الأندلس ، وقد أشاد فيها بذكر تلك البلاد شكرا لها وعرفانا بجميلها ، ثم انتقل إلى استقبال بلاده بعد تلك الغيبة الطويلة !

وقد أنشدت هذه القصيدة بالأوبرا الملكية سنة ١٩٢٠ ، ومما قاله فيها :

أنا دى الرسمَ[1] لو ملك الجوابا ... وأجزيه بدمعى لو أثابا
وقلّ لِحَقّه العبراتُ تجرى ... وإن كانت سوادَ القلبِ ذابا

(١) الرسم: ما كان لاحقا بالأرض من آثار الدار.

سَبَقْـــنَ مقبّلاتِ التُّرب عنــــى وأدّيــن التحيــةَ والخطابـــا
نثرتُ الدمعَ فى الدِّمَن[1] البـــوالى لنظمى فى كواعبها[2] الشبابـــا
وقفت بها كما شــاءت وشــاءوا وقوفا علّــم الصبــرَ الذهابــا
لهــا حق ، وللأحبــاب حـــق رَشَفْتُ وصالهــم فيها حُبابــا[3]
ومن شكر المناجمَ مُحْسنـــات إذا التبر انجلَى شـكر الترابــا
وبـــن جـــوانحى واف ألـــوفٌ إذا لمح الديــار مضــى وثابــا
وداعــا أرضَ أنــدلسٍ وهـــذا ثنائـــى إن رضيـــت بـــه ثوابــا
ومـا أثنيـتُ إلا بعــد علـــم وكم مـــن جاهــلٍ أثنى فعابــا
شكرت الفُلْكَ يوم حويتِ رحلى فيـــا لمفــارق شكــرِ الغرابــا
وليس بعـــامـــر بنيـــان قـــوم إذا أخـــلاقهـــم كانت خرابا

ثم يخاطب الوطن قائلا :

ويــا وطنى لقيتــك بعــد يأسٍ كأنى قد لقيت بــك الشبابــا
وكــل مسافــرٍ سيئـــوبُ يوماً إذا رُزق السلامــة و الإيابــا

ثم يتجه إلى الشباب أمل الأمة قائلا :

شبـــاب النيل: إن لكم لصوتــا مُلَبَّى حيـــن يُرفـــع مستجابــا
فهُزوا (العرش) بالدعواتِ حـــتى يُخَفِّــفَ عن كنانتــه العذابــا

رحم الله أمير الشعراء بقدر ما ضحى وعانى اغترابا !!

(١) الدمن: ما بقى من آثار الديار.
(٢) الكواعب من الجوارى: ناهدات الصدر ، والمراد بها هنا الديار قبل أن تستحيل إلى دمن.
(٣) رشف الماء: مصه بشفتيه. ؛ والحباب: الحب.

مع الصحافى الكبير مصطفى أمين

قال "**مصطفى أمين**" كلمته، ووقف يدافع عنها فى أخبار اليوم ، وآخر ساعة .. وتكرر سجنه .. وعاش التجربة ، وسجل خواطره عن السجن فى كتب منها :

"**سنة أولى سجن**" الذى صدرت طبعته الأولى فى سبتمبر ١٩٧٤ .

"**سنة ثانية سجن**" الذى صدرت طبعته الأولى فى ١٩٧٧ .

"**سنة ثالثة سجن**" الذى صدرت طبعته الأولى ١٩٧٨ .

"**سنة رابعة سجن**" الذى صدرت طبعته الأولى فى ١٩٨١ .

"**سنة خامسة سجن**" الذى صدرت طبعته الأولى فى ١٩٨٤ .

و لم يكتف بهذا بل أصدر كتابه : "**صاحبة الجلالة فى الزنزانة**" الذى صدرت طبعته الأولى فى ١٩٧٤ . وهو فيه يحدثنا عن " **قصة الصحافة المصرية فى الأغلال ، والصراع بين الصحافة والطغيان** " .

ومن كتابه مائه " فكرة وفكرة " الذى أصدره فى مارس عام ١٩٨٩ وقع اختيارى على ثلاثة أفكار تحمل العناوين الآتية :

١- القاضى فى الزنزانة !

٢- حاميها حراميها !

٣- النوم على الأسفلت !

الباب الرابع

نوادر وعجائب ..
من عالم السدود والقيود

- إلى الله نرفع الشكوى !
- وحشة الحبس الانفرادى !
- حبس السائل !
- عقوبة الشعراء !
- هِبَات السجن !
- عقوبة الحيوان !
- مركوب أبى القاسم يُدخله السجن !
- حكم قراقوش !
- انتهى الأمر .. وسأرمى بك فى السجن !
- رحمتك يا رب !
- إلى محبوس !
- متى استعبدتم الناس .. وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟!
- دعها ، فإن الحق أنطقها وأخرس ابنى !
- عبرة التاريخ !
- من أين لك هذا ؟
- شيئا من الإنصاف لتنصلح أحوالنا
- حرمة المال العام
- الطريق إلى الإصلاح

- بطانة السوء وبطانة الخير
- حق الحرية الذى سلبته المطامع البشرية
- من وضع نفسه مواضع التهم فلا يلومن إلا نفسه !
- شخصية العقوبة وجماعيتها بين ماض وحاضر ! "ولا تزر وازرة وزر أخرى"
- نصيحة عالم لحاكم
- معاملة الأسرى
- أب محاصر وابن أسير !
- خبيب بن عدى ورفاقه الثلاثة فى أسر قريش !
- الأسير الذى فتن فى دينه وعقيدته !! فما لانت له قناة !!
- روميات أبى فراس !
- تعذيب السجناء فى أبو غريب .. نوادر وعجائب لا مثيل لها !!

إلى الله نرفع الشكوى !

إلـــى اللهِ فيمـــا نابَنـــا نرفـــعُ الشكـــوَى
ففـــى يـــده كشـــفُ المضَرةِ والبَلْـــوَى
خرجنـــا مـــن الدنيـــا ، ونحـــنُ من أهلِهـــا
فلا نحـــنُ فـــى الأمـــواتِ فيها ولا الأَحْيا
إذا جاءنـــا السجـــانُ يومـــا لحاجـــــةٍ
عجبنـــا وقلنـــا : جـــاء هـــذا مـــن الدنيا

[الفضل بن يحيى البرمكى]

وحشة الحبس الانفرادى !

الإنسان مدنى بطبعه – كما يقول ابن خلدون – يحتاج إلى إلف يعاشره ، وأنيس يجالسه ..

تأبى نفسه الحبس .. ولو كان فى قصر .. حتى العصفور يأبى الحبس فليس يرضى قفصاً وإن كان من ذهب ..

وهذه قصة من تراثنا العربى تصور لنا مدى تلك الوحشة فى الحبس الانفرادى:

" **كان للأمير الأندلسى" " عبد الرحمن الأوسط** " ولد يسمى "المنذر"..، كثير الإصغاء إلى أقوال الوشاة، مفرد القلق فيما يقال فى حقه، وقد ظل يشتكى من ذلك لوالده ، فضاق الأمير به، وقال لنفسه : " **لا سبيل إلى قطع شكوى المنذر إلا بإفراده فى مكان يعتزل فيه الناس فيستريح ويريح " وطلب الأمير إلى أحد وكلائه أن يختار بقعة من الجبل ، وأن يبنى فيها بناء حسنا ، ليكون ابنه فيه منفردا ، لا يزوره إنسان ، ولا يتكلم معه أحد !**

ولما نقل " **المنذر**" إلى تلك البقعة ، وبقى وحده ، وفقد من كان يستريح إليه ضجر ، فقال لمن هو موكل عليه بالنفقة فى ذلك المعزل :

" **متى يصل أصحابى وإخوانى للائتناس بهم ؟!** "

فأجابه بقوله : " **إن الأمير قرر ألا يصل إليك أحد ، وأن تبقى وحدك ، لتستريح من تلك الوشايات التى يرفعها لك أصحابك .** "

فكتب " المنذر" إلى أبيه يقول :

" **إنى قد توحشت فى هذا الموضع توحشاً ما عليه مزيد ! وعَدمت فيه من كنت آنسُ إليه ، فإن كان ذلك عقاباً لذنب كبير ارتكبته ، وعلمه أبى، ولم أعلمه ، فإنى صابر على تأديبه ، ضارع إليه فى عفوه وصفحه** ".

فلما وقف الأمير على الكتاب استدعى ولده ، وقال له :

" **ما فعلت ذلك عقاباً لك ، وإنما رأيناك تكثر الضجر والتشكى من القيل والقال ، فأردنا راحتك بأن نحجب عنك النمائم والوشايات** "

فقال المنذر لأبيه : " **سماع ما كنت أضجر منه أخف على نفسى من التوحُّد والتوحش ، والتخلى من التصرف فى الأمور مع الناس**"

فقال له أبوه : " **أما إذ عرفت ذلك فارجع إلى ما اعتدته ، وعوّل على أن تسمع كأنك لم ترَ !**

والزم يا بنى معالى الأمور .. ورأس المعالى التغاضى .. ومن لا يتغاضى ، لا يسلم له صاحب ..!!"

وكأن الأمير الأندلسى فى صنيعه مع ولده يترجم قول الفيلسوف "**المعرى**":

هذى طباع الناس معروضة   فخالطوا العالَم أو فارقوا

حبس السائل !!

كان "**أبو الأسود الدؤلى**" دقيقاً فى معاملاته ، يكره السؤال والاستجداء ، حتى رمَوْه بالبخل!

ومن نوادره : أن رجلاً من الذين يكثرون سؤال الناس مَرّ به ذات ليلـــة ، وهو ينادى : **مَن يُعَشِّى الجائع ؟**

فقال أبو الأسود : **هاتوه!**

فجاءوه به ، فأتاه بعشاء كثير ، وقال له أبو الأسود : **كُـــلْ حـــتى تمـــلأ بطنك!**

فلما أكل ذهب ليخرج ، فقال له : **إلى أين؟**

فأجابه السائل : **أذهب حيث أريد!!**

وهنا قال له أبو الأسود الدؤلى إمام النحو : **والله لا أدعُك تؤذى النـــاس الليلة بسؤالك ، وقد أكلت حتى شبعت ، فما بك حاجة إلى الطريق!!**

وأمر بأن يقيد ، فلا يُخْلى سبيلُه حتى الصباح!

وقد حرص هذا السائل من بعد على أن لا يرى أبو الأسود وجهـــه ، ولا يسمع صوته!!

عقـوبـة الشعـراء!

كان "**أحمد بن المدبر**" – أحد الوزراء فى عصر العباسيين – يضيق ذرعاً بمن يقصده من الشعراء ، فيمدحه بشعر لا جودة فيه!

فابتكر للشعراء طريقة طريفة..

هى أنه إذا مدحه شاعر فلم يُحْسن ، أسلمه إلى أحد أعوانه ، ليمضى بـــه إلى المسجد ، فلا يفارقه حتى يصلى مائة ركعة!!

ولذلك تحاشاه الشعراء ، وقال فيه أحدهم :

وقالـــوا : يَقْبَـــلُ المِدحـــاتِ لكـــن
جوائزُه إلـــى النـــاسِ الصَّـــلاةُ
فقلـــت لهـــم : ومـــا تُغنى صلاتـــى
عِيالـــى ، إنمـــا الشأنُ الصِّلاتُ[1]

(١) الصِّـــلاتُ : بكسر الصاد – جمع صِلة ، وهى العطية .

هِبات السجن!

كثير من المؤلفين ألفوا أروع كتبهم فى محنهم!

فهذا عَلم من أعلام القضاء.. وكوكب من كواكب الشريعة الإسلامية ، أدركته محنة ، فوهبته هبة سخية.. إنه : "**محمد بن أحمد السرخسى**" الـذى عاش فى القرن الخامس الهجرى، وترك لنا كتابَهُ "**المبسوط**" وهو من أوسع كتب التشريع الإسلامى ، وأوفاها فى الأصول والفروع..

لقد كان "**السَّرخسي**" رهين السجن فى بلد من بلاد " **فرغانة** " فى أقصى حدود الدولة فى عصره!

وأتاح له الفراغ أن يُملِىَ كتابه هذا إملاءً ، فخرج فى عشرين مجلداً !!

وأصبح مورداً لكل باحث ومؤلف فى فقه الحنفية ، ينقل منه ويستشهد به، ويعوِّل عليه !

وهكذا نفح السجن ذلك العالم الفقيه نفحة الخلود !

عقوبة الحيوان

هل يعاقب الحيوان إذا كان منه أذية أو شر كما يعاقب الإنسان؟!

..لكنه غير مكلف.. حيث لم يمنح العقل.. ومع هذا فقد نال الحيوان عقوبته على يد بعض الولاة والحكام !!

- أقام " **الرشيد** " رجلاً على بعض الولايات ، فكان يعاقب البهائم ، ويقول :

" بئس الوالى أنا إذا لم أنفذ العقوبة فى كل من يُسيء " ولما استقدمه "الرشيد" ليسأله فى ذلك ، أجاب : " الناس والبهائم عندى سواء فى الحق ، ولو وجب الحد على بهيمة ، وكانت أمى أو أختى لأقمت عليها الحد ، ولم تأخذنى فى الله لومة لائم " .

فضحك منه الرشيد وأمر بعزله !

• وكان فى الولاه من اسمه "**ربيع العامرى**" فقتل كلباً لأنه اعتدى على كلب مثله بالقتل فقال فيه أحد الشعراء :

شهدت بأن اللهَ حقّ لقاؤُه
وأن " ربيع العامرىَّ " رقيعُ
أقادَ لنا كلباً بكلبٍ ولم يَدَعْ
دماءَ كلابِ المسلمين تَضيع!!

• وكان فى " **المهدية** " من بلاد المغرب قاضٍ أطلقوا عليه لقب " **ذابح القردة** " لأنه حكم بذبح قردٍ اتُّهم بالعدوان على النّاس فقال فيهُ "**المهدوى**" :

غرائب الدهر قد كثُرت ولا **أغرب من حكم ذابح القرده**
أحلَّ ذبح القرود محتسبا **وحرم الفضل، بئسما اعتمده**

• وتهكم به " الحنفىّ " فى قوله :

عاب عليه صنيعَه نفر **وما درى الجاهلون ما قصده**
يذبح من كان شبه صورته **لكى تُرى فى الوجوه منفردة**

وهكذا لقيت عقوبة الحيوان على أيدى الولاة والحكام أقسى ألوان. السخرية والاستهزاء!

مركوبُ أبى القاسم الطُّنبورى يدخله السجن!

حُكىَ أنه كان فى بَغدادَ رجلٌ اسمُه : " **أبو القاسم الطُّنبورى** " وكان له حِذاءٌ ظَلَّ يَلْبَسُه سَبْعَ سنين!

وكلما تقطَّع منه مَوْضِعٌ جَعل مكانَه رُقْعةً ، إلى أن صار فى غاية الثِّقَل ، وكِبَر الحَجْم! وصار الناس يَضربونَ به المَثل!

وحدث ذاتَ يوم أن دخلَ أبو القاسم "**سُوقَ الزُّجاجِ**" فرآه أحدُ السمَاسرَة[1] ، فقال له :

---
1) جمع سمسار ، وهو الوسيط بين البائع والمشترى لتسهيل الصفقة.

يا أبا القاسم ، قد قَدمَ إلينا اليومَ تاجرٌ من "حَلَبَ" ، ومعه بضاعة مـــن "زجاج مُذَهّب " لم يَجدْ له مُشْتَرِياً ، ويُمكنُ لى أن أبيعَه لك ، فتكسبَ به المثل مثلين ، فقد طالَ بالرجلِ المُقام هنا ويريدُ أن يعودَ إلى حَلَب ، وَقــد باَعَ ما مَعه من زُجاج! فأسرعَ أبو القاسم ، واشترى الزجاجَ بستّين ديناراً وهو يُمنّى نفسَه بالرِبح الوفير!

وأتمّ أبو القاسمِ جَوْلَتَه فى " **سُوقِ العَطَّارين**[1] " فصادَفَهُ سِمْسَارٌ آخَــرُ ، وقال له :

يا أبا القاسم ، قد قَدمَ إلينا اليومَ من " نَصيبينَ[2] " تاجرٌ ومَعَــه " مــاءُ وَرْد " فى غاية الطِّيبة والامتياز ، ويريد أن يُسَافرَ ، ومن أجلِ هذا يُمْكنُ أن تَشْتَريهُ منه رخيصاً ، وأنا على استعدادٍ أن أبيعَه لــك فى أقــربِ مُــدَّة ، فتَكْسَبَ به المثلَ مثلين!

فمضى " **أبو القاسم** " واشتراهُ بستِّين ديناراً أخرى ، وملأ بــه الزجــاجَ المذَهّبَ !

وحَمله إلى بيته ، ووضعَه على أرْفف فى صَدْرِ البيت . ثم إن " **أبا القاسم** " دخل " **الحَمّامَ**[3] " يغتسلُ ، فقال له بعض أصدقائه : **يا أبا القاسم : أُحبّ أن تُغَيِّرَ مَداسَك هذا ، فإنه فى غاية الشَّنَاعَة! ، وأنت ذو مالٍ بحَمْد الله !**

فقال له أبو القاسم : **الحقُّ معك ، فسَمْعًا وطاعة !!**

ثم إنه لما خرجَ مِنَ الحَمّام ، ولَبِسَ ثيابَه ، رأى بجانبِ مداسِهِ آخرَ جديداً ، فظن أن الرجلَ اشتراه له كرماً منه ، وتقديراً له!

فَلَبِسَه ، ومَضَى إلى بيته!

وكان ذلك الحذاءُ الجديد " **حذَاءَ القاضى** "الذى جاء إلى الحمام فى هــذا اليوم ، ووضع مَداسَه هناك ، ودَخل يَسْتحمُّ !

---

(١) العطار: بائع العطر ، ويطلق على بائع التوابل والأفاويه

(٢) مدينة فيما بين النهرين (تركيا حالياً) مركز تجارى (المنجد).

(٣) كانت الحمامات تفتح أبوابها للجميع ، ولم تكن هناك حمامات خاصة.

فلما خرج بَحَثَ عن مَداسه ، فلم يجده !

فقال : **أيا إخوانَنا ، أترونَ أن الذى لَبِسَ مَداسِى لم يتركْ عوَضَه شيئا ؟!**

ففتشوا ، فلم يجدوا سِوَى مَدَاسِ " **أبــو القاســم الطُّنبــورى** " فعَرفوه، لأنه يُضْرَبُ به المَثَلُ!

فأرسل القاضى رجالَه إليه ، فوجدوا " **مداسَ القاضى** " عندَه فى بيتــه ، فأحضروه متلَبِّساً بأخذ مداسِ القاضى ، **فأمَرَ** بضربِه تأديباً له ، وحَبْسِه مُدّة ، ثم أطلق سَرَاحَه ، وغرّمَه بعض المال!

وخرج " **أبو القاسم** " من الحبس ، وهو يحمل مداسَه غضــبَان أيضــاً ، ومضى إلى " **نهر دِجْلة** " وألقاه فيه ، فغاص فى الماء!

وعاد أبو القاسم إلى بيته ، وهو يحملُ ذكرياتٍ مُرّةٍ أليمة لــذلك المــداس الذى لم يفارقه طوال سبع سنوات!

ولكنَّ " **بعض الصيادين** " رمى شبكته وأحس بشيء ثقيل فأخذ يُمنّــى نفسه بصَيْد ثمين ، فإذا به "**مركوب أبي القاسم**" ، فلما رآه عرفه ، وقــال : **هذا مداسُ " أبــو القاســم الطُّنبــورى " وربما وقع منه فى دجلة ، وبحث عنه فلم يَعْثُرْ عليه!**

فحمله الصَّيادُ الطيِّبُ ، وذهب به إلى **بيت** " **أبى القاسم** " فلم يجده!

فنظر فرأى نافذةً تُطلّ على صَدرِ البيت ، فرماه من النافــذة إلى داخــل البيت، فسقط على الرّف الذى فيه الزجاجُ المذهبُ ، وماء الورد!

فلما جاء أبو القاسم وجد الزُّجَاجَ قد تكسَّرَ ، وماء الورد قد سالَ وتبدّدَ ، فصاح باكيا سُوءَ حظّه وقال: **وافَقْرَاهُ !! لقد أفقرنى هذا المداسُ الملعون!**

وماذا أعمل لأُبعدَه عنى.. لقد ألقيت به فى النهر.. فعاد إلى..يا وَيْلــى منه!!

وفكر فى إبعاده عنه بطريقة أخرى!

ولم يَنْتظِرْ حتى يأتىَ الصباح. فقام فى ظلام الليل يحفرُ له حُفْرَةً ليدفنه فيها

إلى غير رجعة !!

ولكن الجيرانَ هبوا من نَومهم فَزِعين حين سمعوا صوت الحَفْر ، فظنــوا أن أحداً يُريد بهم شَرًّا، فرفعوا الأَمرَ إلى الحاكم ، فأرسل إليه وأحضره ، واعتقله!

وأخذ يؤنبه قائلاً : **كيف تستحلّ أن تَنْقُبَ على جيرانــك حــائطَهم ، وحَبسَه ولم يطلقه إلا بعد أن دفع غرامةً كبيرة!** ثم خرج من السجن وكلــه غيظ من هذا المداس الذى يأبى أن يفارقه!

فحمَلَه ، ورمَى به فى " **المجارى**" فسَدّها ، وسال الماء ، وضَجر الناسُ من الرائحة الكريهة ، وبحثوا عن السبب ، فإذا هو "**مركوب أبى القاسم**" !

فأمره الوالى بإصلاح ما أفسدَه مَداسُه ، وفرض عليه غرامة تأديباً لــه ، ثم أطلقه!

وخرج " **أبو القاسم**" يحملُ مَرْكُوبَه وهو فى قِمَّةِ الغَيْظِ بعد أن غسله!

وقال : **والله ما عدتُ أفارق هذا المداس !**

وحمله إلى سطح بيته ليجف !

وعندئذ رآه كلب ، **فظنه "رمّة" فحمله** ، وعبر به إلى سطحِ بيتٍ آخــرَ ، فسقَطَ من الكلبِ على رأسِ رجلٍ ، فآلمه ، وجرحه جُرحاً بليغاً !

فرفعو الأمر إلى الحاكم حين عرفوا أن المداسَ هو مــداسُ أبى القاســم ، فألزمه بعلاجِ المجروحِ ودَفْعِ تعويضٍ مناسبٍ !

ونظر " **أبو القاسم**" فإذا بماله قد نَفد ولم يبق معه شيء...لقد ضاع كُــلُّ شيء..وبقى المداس لِيُوقعَه كلَّ يومٍ فى مشكلة !

فحَمَلَه إلى القاضى وهو يقول : **أُشْهِد مولانــا القاضــى أنّــنى بَــرِىءٌ منه..ليْسَ منّى ولستُ منه..لا أعرفُه ولا يعرفنى..وما سوف يفعلــه بعــد اليوم لست مسئولاً عنه !**

فضحك القاضى... وأمر له بصلة !!

[لطائف العرب ــ مَجانى الأدب]

حكم قراقوش !

قراقوش التركى أحد قواد صلاح الدين وأصفيائه ..كان فيه على ما يظهر شيء من الشدة والقسوة !

وكان "**صلاح الدين**" يسلم إليه مقاليد الحكم حين يغيب عنها فى الحروب الصليبية. وهو الذى قام ببناء القلعة المعروفة بقلعة صلاح الدين ، وأقام الأسوار حول القاهرة تأميناً لها.

ولكل ناجح فى عمله حساده ، فقد وضع " **ابن مَمّاتى** " الحكايات المضحكة التى تصور حمقه فى أحكامه ، ونسق هذه الحكايات فى كتاب سماه "**الفاشوش فى حكم قراقوش** " ، وكان لهذه الحكايات أثرها حتى أصبح الناس يطلقون على الأحكام العشوائية الظالمة التى لا تستند إلى القانون ، ولا تعتمد على منطق : "**حكم قراقوش**"!!

ومن هذه الأحكام : أن الشرطة جاءته يوما بأحد غِلمانه ، وقد قتل نفسا محرمة بغير حق ، فقال : " **اشنقوه !!** "

فقيل له : **إنه حدادك الذى ينْعَلُ لك الفرس ، فإن شنقته لم تجد من ينعل لك فرسك!**

فنظر أمام بيته ، فرأى رجلا قفاصا ، فقال : **اشنقوا القفاص واتركوا الحداد !**

وبهذا أنقذ الموقف فى ظنه !

ويحكى السيوطى أنه كان بمصر رجل تاجر ، وكان بخيلا ، وكان ولده يقترض على موته قدرا معلوما ، فزاد عليه الدين ، ولم يمت والده ، فاتفق مع الغرماء أن يدفنوا والده حيا !

فدخل هو والدائنون عليه ، وغسلوه ، وكفنوه ، ووضعوه فى النعش ، وهو يستغيث فلا يغاث !

وجاءوا حول تابوته بذاكرين يصيحون حوله ، فلما دخلوا للصلاة عليه (فى المسجد) اتفق أن قراقوش كان مارًّا فنزل وصلى عليه !

فلما سمع الميت بذلك قال فى نفسه : **الحمد لله جاءنى الفرج** ، ونادى بأعلى صوته : **يا مولانا السلطان !**

خلّص لى حقى من ولدى ، فإنه يريد دفنى بالحياة !

فقال له قراقوش : **كيف تدفن والدك وهو على قيد الحياة ؟!**

فقال الولد : **كذب علىّ يا مولانا السلطان !**

ما غسّلته إلا وهو ميت !، وهؤلاء يشهدون بذلك !

فقال للحاضرين : **أتشهدون بذلك ؟!**

فقالوا : **نشهد بما قال الولد !!**

فالتفت قراقوش للميت ، وقال : **أنا جُننْت ! أصدقك وحدك وأكذب هؤلاء الحاضرين !!**

"رُوح اندفن بلا شفاعة ، لئلا تطمع فينا الموتى ، ولا يبقى أحد يندفن بعد هذا اليوم !! ".

فحملوه ، ودفنوه حيا فى ذمة قراقوش !!

وعلى هذا النمط نجد شخصية قراقوش تصبح شخصية مثالية لكل من حاد عن الطريق ! وما أكثرهم فى عالمنا !

انتهى الأمر..وسأرمى بك فى السجن !!

فى كتابه " **إليك يا ولدى**" تحدث الأستاذ "**عبد الصبور مرزوق**" إلى ابنه عن تجربة مر بها فى " **الغُرْبَة** " تحت عنوان " **كن مع الله** " فقال : كانت هجرة أبيك إلى بلد حبيب من بلاد الإسلام والعروبة.. وفى سبيل الاقتراب من الله لم يدخر مالا ، ولا صحة ، ولا علما ، ولا راحة جسد ولا أى شىء يمكن أن يصبح ذا أثر فى الدعوة إلى الله إلا قدمه وجاد به !

وكان مع أبيك فى هذا البلد آخرون ... ونجح المستضعفون فى أن يوغروا – ضد أبيك – صدر الكبير المسئول عن الجميع فى ذلك البلد الحبيب ، وبلغ من صغار النفوس أن ألقوا فى روع هذا الرجل أن أباك ينافسه فى مترلته الكبيرة ، وعبثوا بتفكيره ، فأوهموه أن أهل البلد أصبحوا يتحدثون عن أبيك ولا يوردون ذكره !

وكانت المحنة ، ومال الكبير المسئول على أبيك ، وأسرف فى ميله وتجبره وكانت المعركه غير متكافئة ، فالرجل هو المسئول المطاع ، والذى بيده كل الصلاحيات ، والسلطات ، وهو الذى يستطيع بكلمة منه أن يذهب بأبيك إلى الهاوية !

بل يستطيع إذا شاء أن يطلق على رأسه تهمة خيانة الوطن ، ويستطيع أن يطارده فى حياته كلها بما يكتب من توصيات !.. خاصة وأنه يا ولدى كان على أيامنا واحدا ممن يسمون فى المجتمع " المسنودين " أو الذين " لهم ظهر.."، فأخوه واحد من الكبراء .. وزوج أخته كبير ، وأخو زوجته صهر لكبير ، والجالية كلها كبار فى كبار .. ولم يكن فى الموقف كله صغير إلا أبوك !

أبوك صغير بوظيفته .. صغير بعائلته الريفية المتواضعة .... ومع هذه الفوارق الضخمة .. فقد صمد أبوك ، وركن بضعفه إلى الله ، وألقى عليه أحماله !

ومضى الكبير فى تجبره ، وتوالت على أبيك المتاعب !

فلا يكاد الصباح يأتى حتى يستدعى الكبير أباك لينغص عليه عيشته ، ويحرق أعصابه ، ويسمعه من لغو الكلام ما لا ينبغى أن يسمع !

ولم يستسلم أبوك ، لإيمانه بأن أى كبير فى الدنيا صغير أمام جبار السموات ، وتأزم الموقف !

وجُن جنون الرجل .. وأخذته العزة بالإثم .. واستدعى أباك إلى مكتبه يوما وقال فيما قاله له :

أتدرى من أنا ؟

أنا هنا ممثل الملك ، وسلطات الدولة كلها مجتمعة فى يدى .. أنا وزير المعارف .. ووزير الخارجية .. ووزير التجارة والزراعة .. أنا هؤلاء جميعاً .. ولا تظن أنى هنا مجرد واحد من السفراء .. بل إنى من أعظم المتمتعين بالرضا السامى وبالثقة الكاملة .. إنى إذا ذهبت إلى العاصمة ..وكان رئيس الوزراء فى اجتماع .. فإنه يرفع الاجتماع من فوره لمقابلتى أنا .. أنا.

قلت : أنا أعرف ذلك ، ولكن ..

وإذا بالرجل يقول فى غطرسة جارحة !

لا ..لا .. لا مجال للكن .. لقد انتهى الأمر .. سيتم شحنك كما تشحن " الطرود " ، وسأقذف بك وبأولادك إلى العاصمة ، لتغيب أنت وراء جدران السجن !!

وعزت على أبيك نفسه ، وفاضت مشاعره بالألم .. وانسابت إلى عينيه دمعات لم تدعها كبرياؤه لتسقط ، فوقف يقول للرجل : ومع هذا فإنى أتحداك أن تنال منى شيئاً ، والإله الأكبر موجود ، .. فافعل ما بدا لك !!

وانفلت أبوك من بين يدى هذا المتجبر الصغير .. وقادته قدماه إلى شاطئ البحر .. وهناك مع الظلام .. وهدير الموج وقف يناجى ربه بصوت عالٍ وكأنه يخطب ..

يا رب هل يرضيك هذا الهوان ؟!

يا رب أشكو إليك ضعف قوتى .. وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ..

يارب لاتدعنى لغيرك .. ولا تتركنى لمخلوق !

ومر يومان .. وفى بداية الثالث .. وبينما كان أبوك يحزم حقائبه جاءه من يقولون له :

لقد مات الرجل .. مات .. انفجر فيه الموقد وهو فى الحمام فمات !

وفى المساء .. كان أبوك واحداً من مشيعى الجثمان !

اللهمّ لا حقد ولاشماته .. لقد مات الرجل الذى كان منذ سبعين ساعة يقول لى : **سأشحنك** وأسرتك هو نفسه الذى يتم شحنه !

فكن يا بنى مع الله .. فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين !

رحمتك يا رب !!

سبحان الله !!

﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام : ١٢]

وقال فى حديثه القدسى : " سبقت رحمتى غضبى" .

وقال : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف : ١٥٦]

وقال لنبيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧]

وألهم ملائكته أن يستغفروا لنا بالليل والنهار !

وصلى هو و ملائكته على المؤمنين ليخرجنا من الظلمات إلى النور!

فنوراً يا رب مزيدا من النور !

﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران : ٨]

---

(١) الحديث كما رواه مسلم عن أبي هريرة. من الأحاديث القدسية ، ولفظه: " إن رحمتى تغلب غضبى ".

إلـى محبـوس؟

حَبَسُــوكَ : والطيــرُ النواطــقُ إنمــا
حُبسَــتْ لميزَتهــا علــى الأنْــدادِ
وتَهَيَّبُــوك ، وأنــت مُودَعُ ســجْنهم
وكَــذَا السُّيوفُ تُهَابُ فى الأَغْمــادِ
مــا الحَبْــسُ دارُ مَهَانــةٍ لذَوِى العُلا
لكنَّــهُ كَالْغيــلِ(١) للآسَــادِ !!

"أسامــة بــن مُنْقــذ "

متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟!

لكى نقف على جوانب العظمة الكاملة والممارسة العملية لصيانة الحريــة الشخصية للفرد العادى البعيد عن مكان السلطان العمرى لابد من ذكر تلك القصة :

عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال :

كنا عند عمر بن الخطاب إذ جاءه رجل من أهل مصر **فقال** : يــا أمــيرَ المؤمنين ، هذا مقام العائذ بك .

قال : ومالك ؟

قال : أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل فجاءت فرسى سابقة! فلما رآها الناس قام **محمد بن عمرو فقال** : فرسى ورب الكعبة !

(١) الغيل : الأجمة ، وجمعه : غيول ، وهو موضع الأسد كثيرا .

فلما دنا منى عرفته ، **فقلت له** : فرسى ورب الكعبة ! فقام إلى يضـــربنى بالسوط ، **ويقول** :

خذها ، وأنا ابن الأكرمين.

قال : فوالله ما زاد عمر عَلَى أن قال : اجلس.

ثم كتب إلى عمرو : إذا جاءك كتابى هذا فأقبل ومعك ابنك محمد.

قال : فدعا عمرو ابنه فقال : أأحدثت حدثا ؟ أجنيت جناية ؟

قال : لا.

قال : فما بال عمر يكتب فيك ؟! قال : ثم قدم إلى عمر.

قال أنس : فوالله أنا عند عمر حتى إذا نحن بعمر وقد أقبل فى إزار ورداء ، فجعل عمر يتلفت هل يرى ابنه ، فإذا هو خلف أبيه . فقال : أين المصرى ؟

فقال : هو أنا ذا .

فقال : دونك[1] الدِّرة فاضرب بها ابن الأكرمين .

ثم قال : أَجِلْها[2] على صلعة عمرو فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه !

فقال : يا أمير المؤمنين ، قد ضربت من ضربنى.

قال عمر : أما والله لو ضربته ما حُلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الـــذى تدعه !

أيا عمرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدهم أمهاتهم أحرارا ؟

ثم التفت إلى المصرى **فقال** : **انصرف راشدا فإن رأيت شيئا فاكتب إلى.**

وفى سرد هذه القصة يتجلى لنا **الحرص العمرى المرهف تجاه حرية البشر، ثم ذلك الصمود العاصف فى وجه الطبقية والامتياز لأى فـــرد صـــاحب سلطان قد تسول له نفسه أن يحتجز حرية العباد!**

---

(١) دونك : خذ. والدِّرة : عصا قصيرة ، أو سوط صغير. **(٢) مررها وأجعلها تجول.**

فأين عمر ليصلح ما استشرى من الفساد ؟!

وينتصف للناس من الأبناء وذوى القربى المتطاولين ؟ وإليهم جميعًا أسوق القصة الآتية التى وقعت فى عصر المأمون !

دَعْها ، فإن الحق أنطقها وأخرس ابنى!

ما نراه على الساحة من تحيز الآباء القادرين لأبنائهم وذويهم المعتدين ودفع التهم بكل الوسائل، ، واتهام من كان بريئا ، والزج به فى سجن مظلم يجعلنى أردد قول الشاعر :

تنام عيناك والمظلوم منتبه

***

يدعو عليك وعين الله لم تنم!

ويذكرنى بما روى عن المأمون يوم أن جلس للمظالم فكان آخر من تقدم – عندما هم المأمون بالقيام – امرأة عليها هيئة السفر ، وعليها ثياب رثة – فوقفت بين يديه وقالت :

السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته !

فنظر المأمون إلى القاضى (**يحيى بن أكثم**) ، فقال يحيى : وعليك السلام يا أمةَ الله ، تكلمى فى حاجتك فقالت :

يا خيرَ منتَصفٍ يُهدَى له الرشَدُ ... ويا إماماً به أشرق البلَدُ
تشكو إليكَ.. عميدَ القوم أرْمَلَةٌ ... عدا عليها فلم يترك سَبَدُ[1]
وابتزّ منى ضِياعى بعد منعتها ... ظلما وفرق منى الأهل والولد
هذا أوانُ صلاةِ العصرِ فانصرفى ... وأحضرى الخصم فى اليومِ الذى أَعِدُ
والمجلسُ السبت إن يقض الجلوس لنا ... ننصفك منه ، وإلا المجلس الأحدُ

---

(١) يقال : ماله " سَبَدٌ ولا لبد " أى لاقليل ولا كثير.

فلما كان يوم الأحد جلس ، فكان أول المتقدمين إليه تلك المرأة ، فقالت: **السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته !**

فقال المأمون : **وعليك السلام ، أين الخصم ؟**

فقالت : **الواقف على رأسك ، وأومأت إلى العباس ابنه !**

فقال المأمون : **يا أحمد بن أبي خالد ، خذ بيده فأجلسْه معها مجلس الخصوم !**

فجعل كلامها يعلو كلام الأمير ! فقال لها أحمد : **يا أمة الله إنك بين يدى أمير ، فاخفضى صوتك !**

وهنا قال المأمون : **دعها ، فإن الحق أنطقها وأخرسه !** ثم قضى لها ، وأمر لها بنفقة ، وأوصى بحسن معاملتها !

لقد أنصفها من ابنه ، ورد عليها حقها ، وأمر لها بنفقة.

وكتب التاريخ الإسلامى ملأى بأمثال هذه القصة على عهد الخلفاء الراشدين ، ومن اتبع سيرتهم أمثال **أبي حنيفة ، ومالك ، ويحيى بن أكثم والقاضى أبي يوسف، رضى الله عنهم وأرضاهم.**

وبعد .. فإن الأمور لا تستقيم ، ولا تطمئن الأحوال إلا بالعدل يقيمه الحاكم على سائر الناس قريبهم قبل بعيدهم ، وإلا ساءت الأحوال ، واختلت الموازين ، وفسد كل شيء.

كم رأينا من أمم زالت ، وممالك تهدمت ، وعروش ثلت ، وتيجان أسقطت ، وأسر بادت ، ومراكز زالت ، وبيوت كانت عامرة فخربت. ما لذلك من علة إلا ما ارتكب من جور وظلم وعسف ، إلى غير ذلك مما ينكره العدل ويأباه !

ورحم الله من قال : العدل **أساس الملك ، فهو إن دام عَمّر ، وأتى بأبرك الثمرات !**

فيا من يستحلون ما ليس لهم ويوقعون بغيرهم إليكم عبرة التاريخ !

عبرة التاريخ !

يذكر التاريخ أن أمير المؤمنين "**عمر بن عبد العزيز**" ، نهج فى خلافته ، نهج الخلفاء الراشدين عفة ونزاهة ، بينما كان **هشام بن عبد الملك** طامعاً فى مالِ المسلمين !

وقد خلّف **عمر بن عبد العزيز** أحد عشر ابنا فورث كل ابن ثلاثة أرباع دينار ، وقال لهم عند وفاته : ليس لى مالى فأوصى فيه.

يا بَنِىّ ! إنى خيرت نفسى بين أن تفتقروا إلى آخر الدهر ، وبين أن يدخل أبوكم النار ، فاخترت الأول يا بَنِى – عصمكم الله ، وقد وكلت أمركم إلى الله الذى نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين !

وخلف **هشام** أحد عشر ابنا كذلك ، ورث كل واحد من البنين ألف ألف دينار !

فأما أولاد **عمر بن عبد العزيز** ، فما رؤى أحد منهم إلا وهو فى غنى ، ومنهم واحد جهز من ماله مائة ألف فارس على مائة ألف فرس فى سبيل الله !

وما رؤى أحد من أولاد **هشام** إلا وهو فقير ، ولقد شوهد أحدهم ، وهو يوقد فى الأتون أجيراً !

ولا عجب فالبركة من الله .. فاعتبروا يا أولى الأبصار !!

وأعود فأقول : **أين رقابة الآباء على الأبناء ؟**

إن إهمال الرقابة يفتح أمامهم طريقا واسعا إلى الانحراف والسجن !

وإليك مثلا فريدا يرويه الرواة عن الخليفة العادل **عمر بن الخطاب وابنه عبد الله !**

من أين لك هذا ؟

شعار رفعناه .. وسريعا ما دفناه !

وكان ذلك سببا فيما عانيناه !

خرج **الخليفة العادل عمر بن الخطاب – رضى الله عنه** – يوما من بيته ، فقابله ابنه **عبد الله** ، وكان فى يده قطعة نقد برنزية ، فسأل عمر ابنه : **من أين لك هذا ليس فى جيب أبيك ولا فى بيته مثله ؟**

فقال عبد الله : **هى من أبى موسى الأشعرى !**

وكان أبو موسى فى ذلك الحين عاملا على بيت مال المسلمين ، فأخذ عمر بيد ابنه ، وقصد أبا موسى ، وصاح عمر بأبى موسى قائلا : **أحقا أبا موسى أنت أعطيت ابنى هذه القطعة ؟!**

فقال أبو موسى : **نعم يا أمير المؤمنين !**

فقال عمر غاضبا : **ولماذا ؟**

فقال أبو موسى : **أحصيت مال المسلمين ، فوجدته ذهبا وفضة ، وليس فيه من البرونز إلا هذه القطعة ، فلم أشأ أن أحرر بها قائمة منفردة ! فأعطيتها عبد الله !**

فغضب عمر وصاح : **يا أبا موسى : أبحثت فى أولاد المسلمين فما وجدت غلاما أفقر من ابن عمر ؟!**

أطفت فى بيوت المدينة بيتا بيتا فما وجدت بيتا يقبل الحرام ويتعامل به إلا بيت عمر !

أما وجدت فى أبناء المسلمين من يستحق الصدقة إلا ابن عمر ؟!

ثم أخذ عمر القطعة من يد ابنه ، ورمى بها إلى أبى موسى ، وهو يقول : **إن الجندىَّ فى الميدان يقاتل الرومان لأحق بها يا أبا موسى** . وهكذا كان الآباء والمسئولون يحصنون أنفسهم وأبناءهم. ويضربون المثل لغيرهم !

فهل يعى المسئولون درس عمر رضى الله عنه ؟!

شيئا من الإنصاف لتنصلح أحوالنا

يقول العرب السابقون فى أمثالهم :

" لــو أنصــف النــاس استــراح القاضــى"

ولكن قضاتنا يلهثون وراء ذلك الكم الهائل مــن القضــايا ، وصــفحة الحوادث فى صحفنا مرآة لما وصل إليه حالنا ، فمتى ينصف كل منا أخاه حتى يستريح القضاة ؟!

لقد عين **أبو بكر – رضى الله عنه _ عمر بن الخطاب – رضى الله عنه** قاضيا على المدينة فمكث عمر سنة لم يفتتح جلسة ، و لم يختصم إليه اثنان !

وهنا طلب من أبى بكر إعفاءه من القضاء .

فقال أبو بكر : **أمن مشقة القضاء تطلب الإعفاء يا عمر ؟!**

فقال عمر : **لا يا خليفة رسول الله ، ولكن لا حاجة بى عند قوم مؤمنين، عرف كل منهم ماله من حق فلم يطلب أكثر منه ، وما عليه من واجــب، فلم يقصر فى أدائه.**

أحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه !

إذا غاب أحدهم تفقدوه ، وإذا مرض عادوه ، وإذا افتقر أعانوه، وإذا احتاج ساعدوه ، وإذا أصيب واسوه.

دينهم النصيحة ، وخلقهم الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ففــيم يختصمون ؟!

لا موضع للاختصام ، ولا مكان للاحتكام !

فأين نحن الآن منهم ؟!

ألسنا مطالبين بأن نهتدى بهداهم ، ونسير على خطاهم ؟

حرمة المال العام

كان بيت المال فى صدر الإسلام هو المكان الذى يودع فيه ما لدى الدولة من مال ، نقدا كان أو غيره ، وكان عامل الخليفة على بيت المال ما نطلق عليه الآن وزير المالية – وكان لا يتصرف فى شىء مما فيه إلا بإذن الخليفة الذى كان لابد أن يطمئن إلى انفاقه فيما يعود على المسلمين جميعا بالخير والنفع ، فلا مجال لسرقة ، أو اختلاس!

قال على بن أبى رافع : **" كنت على بيت مال أمير المؤمنين أيام ولاية على بن أبى طالب – رضى الله عنه – وكان فى بيت المال ((عقْد)) فأرسلتْ إلىّ بنت على بن أبى طالب : إنه قد بلغنى أن فى بيت المالَ عقد لؤلؤ ، وأحب أن تعيرنيه لأتجمل به يوم عيد الأضحى ، فأرسلت إليها العقدَ عاريةً مضمونةً مردودةً بعد ثلاثة أيام ! "**

فقالت " **نعم عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام** " فدفعته إليها . ولما رآه أمير المؤمنين فى جيدها ، قال لها : من أين جاء إليك هذا العقد ؟

قالت : **استعرته من ابن أبى رافع خازن بيت المال لأتزين به يوم العيد ثم أرده .**

فبعث إلىّ أمير المؤمنين فجئته ، فقال لى : **أتخون المسلمين يا بن أبى رافع ؟**

قلت : **معاذ الله أن أخونَ المسلمين يا أميرَ المؤمنين !**

فقال : **أعرتَ العقد الذى فى بيت المال بغير إذنى ورضاى !**

فقلت : **يا أمير المؤمنين ! إنها ابنتك، وسألتنى أن أعيرها العقد تتزين به، فأعرتها إياه عارية مضمونة مردودة على أن ترده سالما إلى موضعه بعد ثلاثة أيام !**

فقال : **استردَّه من يومك ، وإياك أن تعود إلى مثل هذا فتنالك عقوبتى ، وويل لابنتى ! فلما أبلغت ابنته مقالته بادرت برده ، وهى تستغفره ، وأعادته إلى مكانه فى بيت المال .**

وهذا هو العدل ، وتلك هى النزاهة ، والشفافية !!

الإصلاح .. صلاح

يقولون: إن طريق الألف ميل يبدأ بخُطوة

والخطوة الأولى على طريق الإصلاح.. أن يبدأ كل منا فى موقعه ، فيكون قدوة صالحة لمن يليهم ، وأسوة حسنة لمن يرعاهم ، ويقوم على شئونهم ، فالسلطان فى دولته ، والأمير فى إمارته ، والملك فى مملكته ، والحاكم بين محكوميه ، والرئيس بين مرءوسيه ، وكبير القوم بين ذويه والأب بين بنيه ..

وكل هؤلاء لن يكونوا محل الطاعة والإذعان ممن يكونون تحتهم ، إلا أن يكونوا هم القدوة الصالحة والأسوة الحسنة فى الشفافية .

فإن مما يدفع الناس إلى العصيان أن تأمرهم ولا تأتمر ، وتنهاهم ولا تنتهى .

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة : ٤٤]

وها هو ذا **عمر بن عبد العزيز** لما تولى الخلافة بعهد من سليمان بن عبد الملك جعل يأخذ من المكْثرين ويعطى المقلّين حتى عم الرخاء جميع الأرجاء ، وقد بدأ بنفسه وذوى قرابته من بنى أمية.

ويقول المؤرخون : **إنه دخل على زوجته فاطمة بنت عبد الملك وقال لها: يا فاطمة ، إن أردت صحبتى ، فقدمى كل ما لديك من مال وحلى وجواهر لبيت المال ، فأنا لا أجتمع أنا وأنت وهو فى بيت واحد .**

فقالت : **هو ما تقول يا أمير المؤمنين ، وقدمته كله لبيت المال . فلما مات زوجها عمر بن عبد العزيز ، وتولى الخلافة بعده أخوها يزيد بن عبد الملك ، قال لها : أعلم أن عمر ظلمك ، وسأرد إليك كل ما أخذ منك ومثله معه !**

فأبت وقالت له : **لا والله ما كنت لأطيعَه حيا وأعصيَه ميتا !**

رحم الله عمر بن عبد العزيز وزوجته ، ومن اهتدى بهداه وجزاهم عنا خير الجزاء !

بطانة السوء وبطانة الخير

كان الخليفة **المنصور** محبا للمال جَمّاعا له ذا رأى وحزم وقوة وتجربة ، وكان مرهوبا مهيبا !

وتحكى كتب التاريخ أنه عندما قدم مكة حاجّا .. كان يخرج للطواف ليلا فسمع رجلا يقول :

اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع !

فاستدعاه المنصور وسأله : **ما هذا الذى تقوله ؟!**

لقد حشوت مسامعى ما أمرضنى وأقلقنى !

فأجابه الرجل : **إنما عنيتك بقولى ، وقصدتك لا سواك .**

وهنا قال المنصور : **وكيف يدخلنى الطمع ، والصفراء[1] والبيضاء فى يدى ؟! والحلو والحامض فى قبضتى.**

قال الرجل الجرىء : **وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين ؟!**

إن الله تبارك وتعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجابا ، واتخذت لك أعوانا ظلمة آثمين .

إن نسيت لم يذكروك ، وإن ذكرت لم يعينوك !

وقويتهم على ظلم الرعية ، وابتزاز أموالهم !

فلما رأتك حاشيتك قد استخلصت بعض أفرادها لنفسك ، وآثرتهم على أمتك ، قالوا: هذا خان الله! فلم لا نخونه ؟! فأتمروا على أن لا يصل إليك شىء من أخبار الناس ، إلا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف لهم أمرا إلا أقصَوْه ، حتى امتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا .

(١) كناية عن الذهب والفضة ، والأموال بصفة عامة .

وأنت تنظر ولا تُنكر ، وترى ولا تُغيّر !

فماذا تقول إذا انتزع الملك الحق المبين الدنيا من يـــدك ، ودعـــاك إلى الحساب .. هل يغنى عنك عنده شيء مما كنت فيه ؟!

فبكى المنصور حتى نَحِبَ ، وزهد فى الدنيا ، واستبدل بحاشيته من كـــانوا على خلق ودين فصلحت بهم الرعية ، واستقام أمرهم .

ألا ما أشبه الليلة بالبارحة !!

حق الحريـة الذى سلبته المطامع البشرية

تحت عنوان الهرة السجينة كتب الأديب **مصطفى لطفى المنفلوطى** يقول :

يحلق الطير فى الجو، ويسبح السمكُ فى البحر ، ويَهيم الوحش ما شـــاء فى الأودية والجبال.

ويعيش الإنسان رهين المَحبِسين : محبس نفسه ، ومحبس حكومته من المهد إلى اللحد !

صنع الإنسان القوى للضعيف سلاسلَ وأغلالا، وسماها تارة " **ناموســا** " وأخرى " **قانونا** " ليظلمه باسم العدل ، ويسلبه جوهر حريته باسم النـــاموس والنظام.

صنع له هذه الآلات المخيفة وتركه قلقا حذرا مروع القلـــب ، مرتعـــد الفرائص ، يقيم من نفسه على نفسه حراسا تراقب حركات يديه ، وخطوات رجليه ، وفلتات لسانه.. وخطرات وهمه وخياله لينجوَ من عقاب المســتبد ، ويتخلص من تعذيبه ، فويل له ما أكثر جهله !

وويح له ما أشد حمقه!

وهل يوجد فى الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذى يعالجه، أو سجن أضيق من السجن الذى هو فيه.

ليْست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته ، بل جنايته الكبرى عليــه

أنه أفسد عليه وجدانه، فأصبح لا يحزن لفقد تلك الحرية ، ولا يذرف دمعة واحدة عليها.

ثم يقول : لا سبيل إلى السعادة فى هذه الحياة إلا إذا عاش الإنسان فيها حرا لا يسيطر على جسمه وعقله ووجدانه وفكره إلا أدب النفس!

الحرية شمس يجب أن تشرق فى كل نفس فمن عاش محروما منها عاش فى ظلمة حالكة يتصل أولها بظلمة الرحم وآخرها بظلمة القبر!

وأقول أنا : أما آن للحرية أن تشرق فى نفوسنا ؟!

من وضع نفسه مواضع التهم فلا يلومن إلا نفسه !

ألسنة الناس لا ترحم ، والشائعات تنتشر كالنار فى الهشيم، وعندئذ تساء بك الظنون ، ويرجف المرجفون ، ويذيعون عنك ما يذيعون ، ففى الناس من يصدق ، وفيهم من يكذب فإياك ومواضع التهم ، فقديما قال شاعرنا :

قد قيل ما قيل إن صدقا، وإن كذبا

فما اعتذارك من قول إذا قيلا ؟!

وأيهما خير أن تكون فى موضع التهمة ، أو أن تنأى بنفسك ، فلا تتهم بريئة ؟

روى عن عمارة بن يحيى قال : **كنت حاجا ، فلما رجعت من زيارة قبر النبى ﷺ استقبلنى أهلى فى بعض طرقات المدينة فإذا أنا بِدرَّة قد علتنى من فوق رأسى ، فالتفت فإذا هو عمر!**

فقلت له يا أمير المؤمنين : **لقد ظلمتَنى! هذه أهلى ، فلا أكلمها من وراء حجاب ، أو من خلف باب** ، فقال : **من أقام نفسه فى مواضع التهم ، فلا يأمن مِن أن يتهم! ولا مِن إساءة الظن به ، فإن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وسريعا ما يوسوس للناس!**

ثم رمى بالدِّرة ، وقال : **اقتصّ منى!** فقلت : **لا.**

فقال : **اغفر لى.**

فقلت : **لا أفعل.**

فأخذ بيدى ، وحملنى إلى دار أبيّ بن كعب ، فقرع بابه ، فخرج ابنــه ، فقال له عمر : **أبوك فى الدار ؟** قال : **نعم يا أمير المؤمنين!** قال : **قــل لــه يخرج إلينا !**

فخرج أبى أبيض الرأس واللحية ، فأخذ بيده وأقعده إلى جانبه.. وقال له : **اقرأ علىّ ..**

قال : **وما أقرأ عليك ؟** .. قال : **اقرأ : ﴿وَالَّذِينَ يُـؤْذُونَ الْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾**

[الأحزاب: ٥٨]

فتلا أبى الآية ، فبكى عمر بكاء شديدا ، وقال لأبى : **نزلت الآية فىّ ؟!** .. قال أبى : **وما ذاك ؟**

قال عمر : **أضربهم ولا يضربوننى !**

فقال له أبى : **ألست أمير المؤمنين أنت ؟!**

وأقول : متى يتوقف الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ؟!

شخصية العقوبة وجماعيتها بين ماض وحاضر!

﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾

جاء القرآن الكريم على لسان رسول الله ﷺ بمبدأ " **شخصــية العقوبــة** " مقررا ذلك بقوله وقول الحق : **﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾** [الأنعام : ١٦٤]

ورأينا كل الشرائع المتحضرة تقر بمبدأ " **شخصية العقوبة** " على ضوء مــا جاء به القرآن الكريم ، وهو ما أكدته وتؤكده باستمرار كافة المواثيق الدولية بدءا من الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، وانتهاء بميثاق الأمم المتحدة.

وتتضمن معظم الدساتير المعاصرة نصوصا صريحة على عدم جواز معاقبة الجماعة بجريمة الفرد ، وعدم توارث العقوبة[1].

ولكن حين نتتبع شخصية العقوبة بين ماض وحاضر نجد العجب العجاب!

وكثيرا ما ترن فى آذاننا كلمات الكواكبى :

تعب الفيلسوف فى الناس عصرا !!
وتولى السرائرَ الديـنُ دهـرًا !!
فمن يسمـع ؟! .. ومن يقـرأ ؟!

ففى زمن الجاهلية كان العرب يأخذون **غير القاتل بالقاتل ، والجماعة بالواحد ، والرجل بالمرأة ، والحر بالعبد** !

وفى بعض الأحيان كانوا يأخذون **الإنسان بالحيوان** إلى أن جاء الإسلام فقرر أن **مسؤلية الجانى لا يتحملها إلا الجانى !**

وتلا الرسولﷺ عليهم قول الله تعالى :

﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام : ١٦٤]

كما منع مسئولية الجماعة عن جناية الواحد .. وقرر أن العقوبة تقدر بقدر الجريمة بقوله سبحانه: **﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا﴾** [الشورى : ٤٠]

وقوله : **﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾** [النحل : ١٢٦]

ثم ماذا ؟

ثم مضى عهد وآخر ، ورأينا كثيرا من الولاة — وخاصة فى العهود المتأخرة — رأيناهم يأخذون بمبدأ " **جماعية العقوبة** " وهو ما طبقه ((**محمد على الكبير**)) والى مصر (١٨٠٥- ١٨٤٩) فقد كانت العقوبات الجنائية فى بعض الجرائم توقع فى عهده على أخى الجانى — عند تعذر توقيعها على الجانى نفسه — وتوقع على الابن عند عدم وجود الأخ ، وعلى ابن العم عند عدم وجود الابن ، وعلى أحد أهالى البلدة عند عدم وجود أحد من قرابة الجانى.

١) انظر بحثا تحت عنوان : " أوراق قديمة " بمجلة الدوحة مايو ١٩٧٦.

وإذا وقعت سرقة بناحية مّا، وعجز مشايخ تلك النواحى عن ضبط السارق كانوا جميعا مسئولين ، ووجب عليهم أن يدفعوا قيمة ما سرق.

وقد طبق الأوربيون مبدأ " **جماعية العقوبة** " كثيرا فى التاريخ الأوربى ، فعندما قتل أحد اليهود سكرتير السفارة الألمانية فى باريس اعتبر ((**هتلر**)) يهود ألمانيا كلهم متضامنين فى نتائج الجناية ففرض عليهم أجمعين دية القتيل.

وعندما اغتال اليونانيون رجال البعثة الإيطالية ، طالبت إيطاليا حكومة اليونان بدية الضحايا.

وطالب اللورد اللنبى بدية قدرها نصف مليون جنيه دفعتها له الحكومة المصرية فى عام ١٩٢٤م عندما قتل بعض المصريين ((**السيرلى ستاك**)) سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام آنذاك.

وفى أثناء مقاومة المصريين للاحتلال الانجليزى لمصر عام ١٩١٩م فرضت سلطات الاحتلال البريطانية العسكرية عقوبات جماعية على المصريين ، ومن بينها إحراق القرى ، وفرضت الغرامات العامة عليها لأن بعض أهلها قاوموا قوات الاحتلال ، ومن بين هذه القرى : **العزيزية، والبدرشين بمحافظة الجيزة بمصر.**

ولقد علقت انجلترا المشانق لأهل دنشواى فى مقابل جندى لها ضربته الشمس فسقط على أرضها بعد أن أشعل الحرائق فى أجران القمح وهو يصيد حمام القرية.

وما مذبحة قانا ، وبحر البقر ، وعناقيد الغضب ، وهدم البيوت على أهلها مما تمارسه إسرائيل صباحَ مساءٍ بخافٍ على الجميع.

ويكفى أنها مازالت تعلن على مسامع الجميع أنها صاحبة اليد الطويلة !

فى الوقت الذى تعلن فيه أنها واحة الديمقراطية وأنها تريد السلام !

ومن أطرف المناقشات التى دارت حول مبدأ " **شخصية العقوبة** " بين عقليتين مختلفتين تلك المناقشة التى دارت بين عدد من مشايخ الأزهر ، وأحد العسكريين الفرنسيين على عهد الاحتلال الفرنسى لمصر.

فقد بالغ الفرنسيون فى فرض العقوبات الجماعية على المصريين ، وخاصة بعد " **ثورة القاهرة الأولى ضد الحكم الفرنسى** " فقد روى ((**الجبرتى**)) فى تاريخه أن مناقشة وقعت بالديوان – وكان يضم ممثلين للشعب المصرى – وبين الوكيل الفرنسى الذى كان مكلفا بإدارة جلساته ، كان موضوعها : " **التجاء التجار إلى رفع الأسعار** " .

فأكد الوكيل أن أعضاء الديوان جميعا سيكونون مسئولين بالتضامن إذا استمر التجار فى زيادة الأسعار.

ويقول الجبرتى : **إنه لما قرأ الفرمان المذكور قال بعض الحاضرين : العقلاء لا يسعون فى الفساد ، وإذا هاجت الفتنة لزموا بيوهم !**

فقال الوكيل الفرنسى:**ينبغى للعقلاء ولأمثالكم نصيحة المفسدين، فإن البلاء يعم المفسد وغيره.**

وقال بعض المشايخ :**هذا ليس بجيد ، بل العقاب لا يكون إلا على المذنب.**

فقد قال الله تعالى:﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر : ٣٨]

وقال آخر من أهل المجلس: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام : ١٦٤]

وقال الوكيل : المفسدون فيما مضى أهاجوا الفتنة (يقصد ثورة القاهرة الأولى) فعمت العقوبة ، والمدافع ليس لها عقل حتى تميز المفسد والمصلح ؛ فإنها لا تقرأ القرآن !

وإن دلت هذه المناقشة على شيء فإنما تدل وتكشف لنا كيف أدى الاحتكاك بين العقل الإسلامى، والعقل الأوربى إلى عودة المشايخ إلى تراثهم الدينى ليكتشفوا ما به من مبادئ متحضرة ومستنيرة !

فبينما اللبراليون الفرنسيون يضطرون إلى تناسى مبادئهم التى ثاروا من أجلها ، والتى زعموا أنهم إنما جاءوا إلى مصر ليطبقوها – كان مشايخ الأزهر يناقشونهم بآيات من القرآن ، جاءت الثورة الفرنسية بعد نزوله بقرون طويلة

لتكتشف نفس المبادئ ، ثم تخونها بأسرع من البرق متعللة بأن المدافع لا تقرأ القرآن !

ألا ما أشبه الليلة بالبارحة !

نصيحة عالم لحاكم

شقيق البلخي من مشايخ خراسان وكان زاهدا متوكلا ، ويقال : إنه دخل على هارون الرشيد ، فقال له : **أنت شقيق الزاهد ؟!**

فقال : **أنا شقيق ، ولست بزاهد !**

فقال له : **أوصني** ، فقال : **شقيق** :

***إن الله تعالى قد أجلسك مكان " الصِّدِّيق " ، وإنه يطلب منك مثلَ صِدْقه!**

***وإنه أعطاك موضع " عمرَ بن الخطاب الفاروق " وإنه يطلب منك الفرقَ بين الحق والباطل مثله!**

***وإنه أقعدك موضع " عثمانَ بن عفان ذى النورين " وهو يطلب منك مثل حَيائه وكرمه!**

***وأعطاك موضع " عليِّ بن أبي طالب " وهو يطلب منك العلم والعدل كما طلب منه!**

فقال له : **زدني من وصيتك** ، فقال : **نعم .. اعلم أن لله دارا تعرف بجهنم ، وأنه جعلك بوابا عليها وأعطاك ثلاثة أشياء!**

(بيت المال ، والسَّوْط ، والسيف) ، وأمرك أن تمنع الخلق من دخول النار بهذه الثلاثة.

***فمن جاءك ، فلا تمنْعه من بيت المال.**

***ومن خالف أمر ربه فأدبه بالسوط.**

**ومن قتل نفسا بغير حق فاقتله بالسيف بإذن ولى المقتول.*

فإن لم تفعل ما أمرك فأنت الزعيم لأهل النار ، والمتقدم إلى دار البوار.

فقال له : **زدنى ..**

فقال : **إنما أمثلك كمثل معين الماء ، وسائر العلماء فى العالم كمثل السواقى ، فإذا كان المعين صافيا لا يضر كدر السواقى!**

وإذا كان المعين كدرا لا ينفع صفاء السواقى!

وأقول : متى يصفوا المعين ؟!

معاملة الأسرى

تحت هذا العنوان كتب فضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر الأسبق: **"محمد الخضر حسين"** يقول : **" إذا وقعت طائفة من العدو المحارب فى أسرنا لم يجز لأحد من الجنود أو غيرهم أن يمسهم بأذى ، وإنما يرجع أمرهم إلى رأى ولى الأمر الواسع الخبرة بوجوه المصالح ، فيعاملهم بما تقتضيه خطة الحزم ، وما تُمليه سماحة الأخلاق "**

وذهب من علماء السلف " **الحسن البصرى** " ، و" **عطاء بن رَباح** " إلى أن ولى الأمر يخير فى الأسرى بين أن يطْلقهم على وجه المَنّ ، أو يطلقهم بفداء ، وتمسكوا فى هذا بقوله تعالى :

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [سورة محمد : ٤١]

وقع ثمامة بن أثال أسيرا فى أيدى المسلمين فجاءوا به إلى النبى ﷺ فقال : **"أحسنوا إسَارَه "** وقال : **" اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه "**.

وكانوا يقدمون إليه لبن لَقْحَة[1] رسول الله ﷺ غدوا ورواحا ، ودعاه النبى ﷺ إلى الإسلام فأبى، وقال له : **" إن ترد الفداء فسَلْ ما شئت من المال "** فأطلق النبى ﷺ سبيله من غير فداء، ثم دخل بعد هذا المن فى الإسلام !

(١) اللّقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن .

ووقعت ابنة حاتم الطائى فى أيدى المسلمين ، وأُنزلت بمكان يمر به النبى ﷺ فتعرضت له ، وقالت : "**هلك الولد ، وغاب الرافد (تعنى أخاها عديا) فامنن عليّ منَّ الله عليك**"

وأقامت حتى قدم رهط من قومها ، فكساها رسول الله ﷺ ، وحملها ، وأعطاها نفقة ، فخرجت معهم .

وأطلق النبى ﷺ يوم فتح مكة جماعة من قريش وقعوا فى الأسر قبل دخول مكة ، فكانوا يدعون " **الطلقاء** ".

فقال : " **قد فعلت ، فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلاد لك** "

وبعد فهذه هى سماحة الإسلام مع من وقعوا أسرى فى أيدى المسلمين ، فأين منها ما يدور على الساحة مع من وقعوا أسرى من المسلمين فى أيدى غيرهم ؟!

أب محاصر وابن أسير!

هذه هى قصة الوفاء فى أسمى معانيه !

أما الأب فهو " **السموءل بن عاديا** " شاعر جاهلى حكيم ضرب المثل بوفائه ، وهو الذى يقول:

إذا المرءُ لم يَدْنَسْ من اللؤ م عِرضُه فكلُّ رِداءٍ يرتديه جميلُ

وتكشف لنا قصته عن معدن الوفاء رغم الحصار والأسر! فحين أراد "**امرؤ القيس** " المضى إلى " **قيصر ملك الروم** " أودع عند " **السموءل** " دروعا وسلاحا وأمتعة عظيمة !

فلما مات " **امرؤ القيس** " ، أرسل " **ملك كندة** " يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند " **السموءل** " !

فقال " السموءل " : لا أدفعها إلا إلى مستحقها ، وأبى أن يدفع إليه منها شيئا ، فعاوده فأبى.

وقال : " لا أغدرُ بذمتى ، ولا أخون **أمانتى** ، ولا أترك الوفاءَ والواجبَ علىّ " فقصده ذلك الملك من كِندة بعسكره ، **فدخل** السموءل فى حصنه ، وتحصن به وامتنع ، فحاصره ذلكَ الملك.

وكان ولد السموءل خارج الحصن ، **فظفر** به الملك ، وأخذه أسيرا ، ثم طاف حول الحصن ، وصاح بالسموءل ، **فأشرف** عليه من أعلى الحصن ، فلما رآه **قال له** :

" إن ولدك قد أسرته ، وهاهو ذا معى! ، فإن سلّمت إلىّ الدروع والسلاح رحلت عنك ، وسلمت إليك ولدك ، وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر ، فاختر أيهما شئت!" .

تُرى ماذا فعل السموءل؟ وماذا قال لملك كِندة ؟

لقد قال له السموءل : " ما كنت لأخفرَ ذِمامى ، وأُبْطلَ وَفائى ، فاصنع ما شئت !"

فذبح ولدَه ، وهو ينظر ، ثم لما عجز عن الحصن رجع خائبا ، واحتسب السموءل ذبح ولده ، وصبر محافظة على **وفائه !** فلما جاء الموسم ، وحضر ورثة امرئ القيس ، سلم إليهم الدروع والسلاح ، ورأى حفظ ذمامه ، ورعاية وفائه أحب إليه من حياة ولده وبقائه وقال فى ذلك :

وفيتُ بأدرُعِ الكِندىِّ إنى ... إذا ما خَانَ أقوامٌ وفَيْتُ[1] !

وهكذا الوفاء ! ... وفاء العرب فى جاهليتهم ... أما فى إسلامهم ... فتعال إلى نماذج عليا...

(١) المستطرف ص ٢٠١ ج ١ ، وبلوغ الأرَب ص ١٣٦ ج ١ .

خُبَيْب بن عدى
ورفاقه الثلاثة فى أسر قريش!

كانوا ستة بعث بهم النبى ﷺ مع رهط من" **عَضَل والقارّة** " ليفقهوهم فى الدين ، ويُقرءوهم القرآن ، ويعلموهم شرائع الإسلام.

كان الستة من شباب أهل بدر ، ومن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار! ، وفى الطريق أحاط بهم " أعداء الله " لكى يقضوا عليهم! تقربا إلى قريش ، وزُلفى إلى اللات ، والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى! ، وكانت مؤامرة خسيسة!!

واستجمع الستة كل قواهم ، واستعانوا بالله لمواجهة هذا الخطر الذى حاط بهم ، ورأى أعداء الله ألا طاقة لهم بهم فى أول الأمر ، فصاحوا قائلين :

" إننا لا نريد قتلكم ، إنما نريد تسليمكم لأهل مكة! لننال عندهم منزلة... وأبى الثلاثة إلا القتال دفاعا عن دينهم فى مواجهة أولئك المخادعين الغادرين!"

وبقى ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ وقعوا فى الأسر فقيدوهم فى الحبال، وساروا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها إلى أعدائهم...

وكان هؤلاء الأسرى : " **عبد الله بن طارق ... وزيد بن الدثنة ... وخُبَيْب بن عدى** " !

وفى الطريق .. على مقربة من مكة صاح " **عبد الله بن طارق** " فى إساره، وهو ينتفض قائلاً: " **إن لى فى الثلاثة الذين استشهدوا من أصحابنا قدوة**"!

وظل يحاول نزع يديه بقوة إلهية حتى خلص من إساره، وراح يضرب أعداء الله ، ويقذفهم بالحجارة ، وهم يقذفونه حتى أصابوه بضربة قاتلة !

ومضى المشركون " **بزيد و خُبَيْب** " ، وشدوا عليهما القيود حتى إذا بلغوا مكة باعوهما بأسيرين لهما.

أما " **خُبَيْب** " فقد ابتاعه **"جحير بن أبي إهاب التميمى"** لحليفه **"عتبة بن الحارث بن عامر"** ليقتله بأبيه.

وأما " **زيـــد**" فقد ابتاعه **"صفوان بن أمية بن خلف"**.

وسُجن " **خُبَيْب**" فى بيت " **ماويّة** " **مولاة "جحير بن أبى إهاب"**.

وسجن **"زيـــد"** فى بيت **"صفوان بن أمية"**.

وبدأت فترة قاسية من حياة الأسيرين العظيمين ... لقد بالغ كفار مكة فى إيذائهما وحرمانهما الطعام والشراب .. فلا يقدمون لهما إلا كل ثلاث ليال لتستمر حياتهما المضنية! وكانا لا يقبلان سوى اللبن .. أما طعـــامهم ممـــا لم يذكر اسم الله عليه فهو محرم عليهما!

لقد شغلتهما عبادة الله عن الطعام والشراب! وذات يوم أطلت ماوية على أسيرها " **خُبَيْب**" فإذا بين يديه " قِطْف من عنب " لا عهـــد لهـــا بمثلـــه فى حجمه فضلا عن أنه فى غير موعده!

إنها مائدة الله! حفظه فى سجنه ورعاه! حتى إذا جاء اليوم المشهود .. خرج المشركون بالأسيرين إلى القتل .. والتقى " **خُبَيْب بزيـــد**" لأول مرة - بعد الأسر فى وسط مكة! وياله من لقاء!

ومضى كل أسير فى جماعة من المشركين مكتوف الأيدى إلى ساحة القتل عند التنعيم بعيداً عن الحرم.

ووصل زيد ، وقد أحاطت به طائفة من قريش رجـــالا ونســـاء وصـــبية ليشهدوا مصرع غريمهم ، وقاتل أشرافهم!

وهناك قال له " **أبو سفيان** " سيد مكة : " **أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمدا عندنا الآن مكانك تضرب عنقه ، وأنك فى أهلك** "

فأجابه " **زيـــد** " على الفور : " **والله ما أحب أن محمـــدا الآن مكانـــه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأنا جالس فى أهلى !!**".

وذُهل أبو سفيان ، وتوجه إلى قومه قائلا : **"ما رأيت من النـــاس أحـــدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدًا !!"** واثارت كلمات أبى سفيان أحد

الموالى فهَوَى بسيفه على رأس زيد فقتله!

فسقط فى ساحة الحق شهيدا يردد تلك الكلمة الخالدة : " **أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله !**"

أما خبيب فقد وصل فى كوكبة الأعداء إلى التنعيم على أثر استشهاد زيد!

فإذا هو بسارية ، قد نُصبَت له ليصلب عليها ، وإذا بأربعين شابا من أبناء قتلى المشركين فى بدر فى انتظاره حول السارية لينكلوا به قبل قتله!

ووقف صاحب الرسول ﷺ ينظر إلى القوم فى سكينة ووقار وكأن شيئا لم يكن!

ثم اتجه بوجهه إلى كبار القوم قائلا : " **إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا !!**"

فأجابه القوم : **دونك فاركع !**

فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال : " **أما والله لولا أن تظنوا انى إنما أطلت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة !**"

فكان " **خُبَيْبَ**" أولَ من صلى ركعتين عند القتل !

وجاءت اللحظة الرهيبة .. لقد رفعه القوم ، فأوثقوه بالسارية وهو فى سكينة غير جَزِع ولا وَجل .. وراع المشركين أمرُه ، فتقدم بعض سادتهم إليه ليقول له : **ارجع عن الإسلام نُخْلِ سبيلَك !**

ونزل عليه هذا القول نزول الصاعقة ، فأجابهم على الفور فى قوة وصرامة:

" **لا والله ما أحب ان أرجع عن الإسلام ، وأن لى ما فى الأرض جميعا !**"

وعاودوه القوم فقالوا : **ارجع يا خبيب.**

فأجابهم صارخا : **لا أرجع أبدا.**

وعاودة مرة أخرى قائلين : **أما واللات والعزى لئن لم تفعل لنقتلنك!**

وأجابهم فى قوة وتصميم : **إن قتلى فى الله لقليل !!**

عند ذلك صرفوا وجهه عن مكة وهموا بقتله ،

فقال لهم : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ [البقرة : ١١٥]

ثم ناجى ربه قائلاً : **اللهم إنى لا أرى إلا وجه عدو.. اللهم إنــه لــيس هاهنا أحد يبلغ رسولك عنى السلام .. فبلغه عنى أنت السلام !**

اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك ، فبلغه الغداة ما يُصنع بنا .. اللــهم أَحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا !!

وجعلت رماح الشباب وسيوفهم تنفذ فى جسد حبيب وحوله حتى تقطع بعض وثاقه فاستدار جسده الكريم نحو القبلة !

وظل يردد : **لا إله إلا الله، محمد رسول الله** " .. ثم توقــف الصــوت ، وعلى وجه خبيب بسمة الرضى !

وفى المدينة كان جبريل يقرئ النبى ﷺ سلام خبيب !

وظل خبيب مصلوبا على ساريته أياما ، فأرسل الرسول ﷺ صاحبه "**عمرو بن أمية الضمرى**" فغافل حراسه ، وحمل الجثة ، ولاحقه القرشــيون فتــرك الجسد الطاهر ومضى !!

ولكن الأرض انفرجت وابتلعت الجسد الطاهر ! فلم يعثروا له على أثر !!

ولا عجب ، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين !

وما أكثر الأسرى فى سبيل دينهم ، وعقيدهم ، ونبيهم ، ومبادئهم !

فأين نحن اليوم منهم ؟!

الأسير الذى فتن فى دينه وعقيدته !! فما لانت له قَناة !!

إنه الصحابى الجليل : **عبد الله بن حذافة** .. انتدبه النبى ﷺ قائدا لإحــدى سراياه ، وأبلى بلاء حسنا فى خلافة " **أبى بكر الصديق**" وفى خلافة "**عمر بن الخطاب**" وخلافة "**عثمان بن عفان**" ، كما أنه عانى معاناة شديدة عندما وقع أسيرا ، وفتن فى دينه وعقيدته وإيمانه ، فمــا لانت لــه قَناةٌ !

وفى إحدى المعارك مع الروم ، وبسبب اندفاعه- رضى الله عنه – وقـع أسيرا فى أيدى الأعداء وعرف قائدُهم ما كان لعبد الله فى المعركة من شجاعة وفروسية وإقدام ، فأراد أن يمتحنه فى إيمانه ، ويستميله إليه لعله يظفـر منـه بطائل ، ويستظهر به على المسلمين، فأمر به ، فأخرج من الحبس ، واقتيـد إليه، فقال له : **تنصَّر أشركك فى ملكى !**

فسخِر منه عبد الله ، وأبى ، فأمر به فصلب على خشبة ، ثم أعطى أوامرَه لبعض جنده أن يرموه بالسهام ، بشرط ألاّ يصيبوه ، ولكن ليُخَوِّفـوه فمـا جزع عبد الله ، ولا خاف بينما كانت السهام تتزرع حوله !

وعندئذ أمر القائد بإنزاله ، وفكر فى خطة ترمى الرعب فى قلب عبد الله ، وتثنيه عن عزمه ، وتُلين فى صلابته .

فأمر بقِدْر فصُبّ فيها الماء وأغليت حتى قاربت أن تَجيش[1]، ثم أمر بإلقاء أحد الأسرى فيها، ثم أخرج فإذا عظامه تلوح، وكل ذلك أمام عبد الله!

التفت قائد الروم إلى عبد الله وقال : **إن لم تتنصّر لألقين بك فى هذا الماء!**

فبكى عبد الله !!

فظن القائد أن مقاومة عبد الله قد انهارت ، وأنه قد أوشك أن يسـتجيب لرغبته ، وصرخ الحاضرون جميعا : لقد جزع ... لقد بكى ...

فقال عبد الله : " **لا ترى أنى بكيت جزعا مما تريد أن تصنع بى ، ولكنى بكيت حيث ليس لى إلا نَفْسٌ واحدة ، يفعل بها هذا فى سبيل الله !**

كنت أحب أن يكون لى من الأنفس عددُ كل شعرة فىّ ثم تسلط علـى فتفعل بى هذا ".

فأعجب به قائد الروم ، وأحب أن يطلقه ، ولكنه لم يكن ليفعل ذلك قبل أن ينال من كبرياء هذا المؤمن المعتز بإيمانه ، المتفانى فى سبيل إسلامه ، ودينه !

فقال له : **قبِّل رأسى وأطلقْك!**

فقال له عبد الله : **ما أفعل!!**

(١) يتحرك ما فيها بسبب الغليان!

فقال قائد الروم : **تنصر وأزوجك بنتى وأقاسمك ملكى** ... ، وكانت ابنته فتاة رائعة الجمال ، تمناها الأكابر من الروم فلم يظفروا بها !

فقال عبد الله : **ما أفعل!!**

فقال له قائد الروم : قبل رأسى وأطلقك مع ثمانين من المسلمين !

فقال عبد الله : **أما هذه فنعم !**

ثم قبل رأسه ، فأطلق سراحه ، وسراح ثمانين معه من إخوانه ، فلما قدموا على "**عمر بن الخطاب**" ، قام إليه عمر – رضى الله عنه – وقبل رأسه !

ثم كان أصحابه بعد ذلك يداعبونه قائلين: **قبلت رأس العِلْج**[1] !!

فيقول لهم : **لقد أطلق الله بتلك القُبلة ثمانين من المسلمين!!**

روميات أبى فراس!

إنها تلك القصائد التى قالها أبو فراس الحَمْدانى بعد أن أسرته الروم فى بعض وقائعها وهو جريح ، فقد أصابه سهم بقى نصله فى فخذه ، واقتيد إلى سجن " **خرشنة** " ، ثم قسطنطينية ، وتطاولت مدته بها لتعذر المفاداة !

وصدرت أشعاره معبرة عن الأسر ، والمرض ، وفرط الحنين إلى أهله وإخوانه وأحبابه ، والتبرم بحاله ، ومكانه .. إنه يقول :

ما للعبيد منَ الذى ... يقضى به الله امتناعُ
ذُدْتُ الأسودَ عن الفرا ... سِ ثم تفرِسُنى الضِّباعُ[2]

ويقول :

قد عَذُبَ الموتُ بأفواهنا ... والموتُ خيرٌ منَ مقامِ الذليل
إنّا إلى اللهِ لِمَا نابنا ... وفى سبيل اللهِ خيرُ السبيل[3]

---

(١) العِلج بوزن العجل : الواحد من كفار العجم

(٢) يقول :إنه منع الأبطال من الفتك بصحبه ، لكنه وقع فى أسر من هم دونه.

(٣) يقول : إنهم لا يعودون فيما يصيبهم إلا إلى الله

إن زُرْتُ خرشنـــــة أسيـــــرا فلقـــد حَلَلْـتُ بهــا مُغيـــرا
ولقـــد رأيـــت النــــار تن تَهِــبُ المنـــازِلَ والقصَـــورَا

وقـــال بحصـــن خرشنـــة :

ولقـــد رأيـــتُ السَّبــــى بــج لـــب نحـــو نا حُـــوًّا وحُـــورَا[1]
مَـــن كـــان مثلـــى لم يبـــتْ إلا أميـــــراً أو أسيـــــرا
ليســـت تَحِـــلُّ سَـــرَاتُنـــا إلا الصـــدورَ أو القبـــورَا[2]

وكتـب إلـى سيـف الدولـة يقـول :

دعوتُك للجفنِ القَريحِ المسَـهَّد لَدَىَّ ، وللنـــوم القليـــلِ المشَـــرّد
وما ذاكَ بُخلاً بالحياة ، وإنها لأول مبـــذول لأول مُجْـــد[3]
فإن تَفْتَدُونى تَفْتَدُوا شَرفَ العُلاَ وأسرع عَـوَّاد إلـيكم مُعَـوَّد[4]
يدافعُ عن أعراضكم بلسانـــه ويضـــربْ عنكـــم بالحسام المهنَّد
ولا وأبى ما ساعدان كسـاعد ولا وأبى مـا سيدان كسـيد[5]

وكتـب إلـى والدتـه وقـد ثقـل مـن الجـراح :

مُصابى جَليل ، والعزاء جميـلُ وظنى بأن الله ســوف يُديـــل[6]
وأسْرٌ أقاسيه ، وليـلٌ نجومُـه أرى كلَّ شـىء غيرَهُـنّ يـزولُ
تطولُ بى الساعات وهى قصيرة وفى كلّ دهر لا يَسُـرّك طُـولُ
أقلّب طرفى لا أرى غير صاحب يميلُ مـع النَّعمـاء حيـث تميـلُ
فيا أُمّتا لا تُعـدمى الصبرَ ، إنه إنه إلى الخيرِ والنُّجح القريب رسُولُ

(١) الحُوّ : جمع حواء : سواد يضرب إلى الخضرة.
(٢) السراة : جمع السَّرِىّ : الشريف.
(٣) يقول :إنه منع الأبطال من الفتك بصحبه ، لكنه وقع فى أسر من هم دونه.
(٤) يقول : إنهم لا يعودون فيما يصيبهم إلا إلى الله
(٥) الحُوّ : جمع حواء : سواد يضرب إلى الخضرة.
(٦) السراة : جمع السَّرِىّ : الشريف.

وقـــال وقـــد حضـــره العيـــد :

يا عيدُ ما عُـــدْتَ بمـحبـــوب	علـــيٰ مُعَنّـــى القَلْـــبِ مكـــروبِ
يا عيدُ قـــد عُـــدْتَ إلى نـــاظرٍ	عن كُلِّ حُسْـــنٍ فيـــكَ محجـــوبِ
مـــالى وللدَّهْرِ وأحـــداثه	لقـــد رمانـــىَ بأعـــاجيـــبِ ؟!

وقال وقد سمع حمامة تنوح بقربه على شجرة عالية :

أقول، وقد ناحت بقربى حمامـــة	أيا جارتا ، هل تشعرين بحالى ؟!
لقد كنتُ أوْلى منك بالدمع مُقلةً	ولكنّ دمعى فى الحوادثِ غالـــى

ولما طال به الحبس ، ولم يسارع سيف الدولة إلى مفاداته كتب إليه يقول:

مفاداتى إن تعذرت عليك فأْذن لى فى مكاتبة أهل خُراســـان ومراســـلتهم ليفادونى ، وينوبوا عنك فى أمرى ، فأجابه سيف الدولة بكلام حسن ، وقال له : ومن يعرفك بخراسان ؟!

فكتـــب إليـــه أبـــو فـــراس :

أسَيْـــفَ الهُـــدَى وقريـــعَ العرب	إلام الجَـــاءُ ، وفيمَ الغضـــب ؟
وما بالَ كُتْبك قـــد أصبحـــت	تنكّبنى مع هذى النّكـــبْ[1]
وأنت الكريم ، وأنـــت الحليـــمُ	وأنت العطوف، وأنت الحَـــدِبْ
وما غَـــضَّ منـــى هـــذا الإســـارُ	ولكن خَلُصْتُ خُلوصَ الـــذهَب
ففيـــم يُقَرِّعُنـــى بالخُمـــو	ل مُوَلًّى به نلتُ أعلى الرتب؟!
وكان عتيدا لـــدىّ الجـــواب	ولَكن هيبتـــه لـــم أُجِـــبْ !
فـــلا تنسبَـــنّ إلـــى الخُمـــول	عليك أقمـــتُ فلـــم أغتـــربْ
وأصبحتَ منك فإن كان فضـــلٌ	وإن كان نقص فأنت الســـبب
وإن خُراســـانَ إن أنـــكرت	عُلاىَ فقـــد عرفتهـــا حلـــب
ومُنْ وأين يـــنكرنى الأبعـــدون	أمِن نقصِ جَدٍّ أم من نقصِ أب؟!

---

(١) النكب : جمع نكبات ، وهى جمع نكبة : مصيبة .

ولما طال أسره وزاد شوقه إلى أمه قال من قصيدة له :

أراك عَصِى الدمع شيمتك الصبرُ

أما للهوى نهـــىٌ عليك ولا أمر ؟!

بلـــى أنا مشتاقٌ ، وعندى لوعةٌ

ولكـــن مثلـــى لا يذاع لـــه سِـــرُّ

إذا الليلُ أضوانى[1] بسطت يد الهوى

وأذلَلْـــتُ دمعا من خلائقـــه الكبرُ

تكـــاد تُضِـــيءُ النارُ بين جوانحـــى[2]

إذا هى أذْكَتْهـــا الصبابـــةُ والفِكْـــرُ

ولم يكد يخرج من سجنه ، وينعم بالحرية حتى قتل فى وقعة كانت بينه وبـــين موالى أسرته سنة ٣٥٧هــ.

وقـــال عنـــد موتـــه :

أبُنَيّتـــى لا تجـــزعـــى ... كُلُّ الانـــام إلـــى ذهـــاب
نُوحـــى علـــىَّ بِحَسْـــرةٍ ... من خلف سترِك والحجـــاب
قـــولـــى إذا كلمتـــنـــىَ ... فعييـــتُ عـــن ردّ الجواب !
زيـــنُ الشبـــاب أبَو فراسٍ ... لـــم يمتـــع بالشبـــاب

رحـــمه الله رحمـــة واسعـــة !

---

(١) أضوانى : أرهقنى وأشجانى. يقول : إنه حين يجنه الليل ويرهقه يصرح بحبه ، ويسكب دمع العـــذاب الذى مازال يكاتمه.

(٢) جوانحى : هنا بمعنى أضلعى.

تعذيب السجناء في أبو غريب

"بعد مرور سنة على (أبو غريب)، تستمر الولايات المتحدة بفعل ما تفعله الديكتاتوريات وجمهوريات الموز عندما تفتضح جرائمها أمام العالم: من تغطية للفضيحة ونقل اللوم الى الأسفل، في حين يستمر جدار من الحصانة بإحاطة مهندسي السياسات التي أدّت الى كل هذه الجرائم".

"ريد برودي" المستشار الخاص في منظمة هيومن رايتس ووتش

في ٢٨ نيسان/ إبريل من عام ٢٠٠٥ مرّ عام كامل على كشف فظائع تعذيب المعتقلين العراقيين على أيدي القوّات المحتلّة الأمريكية في سجن "أبو غريب" السيئ السمعة والذي ذاع صيته السيئ في جميع أنحاء العالم خاصّة بعد استلامه من قبل "المُحَرِّرين" الأمريكيين حيث تمّ الكشف عمّا يتعرّض له المعتقلون العراقيون من عمليات تعذيب وامتهان للكرامة الإنسانية، وانتهاك لأبسط حقوق الخلق في الأرض على أيدي قوّات الديمقراطيّة الأمريكية العريقة بقيادة بوش، وما خفي كان أعظم.

وفي هذا الإطار نتحدّث في هذا التقرير **الذي أعده الكاتب الصحفي والباحث السياسي الأستاذ /علي حسين باكير** عن عدّة نقاط أساسية تتمحور حول كشف جهود الولايات المتّحدة في تأسيس (مدارس التعذيب والسجن) وحول التساؤل عمّا إذا كانت فظائع أبو غريب وأخواتها حدثا عرضيا، أم منهجا استراتيجيا مرسّخا، نعرض بعدها لنماذج من التعذيب الأمريكي والى ماذا توصّلت عمليات التحقيق التي بحثت في الفضيحة، وماذا قالت أبرز تقارير المنظمات الدولية في الموضوع، ونكشف عن استلهام الدول في العالم الثالث لتجربة الولايات المتّحدة في التعذيب وعن الخطط المستقبلية للولايات المتحدّة لتفادي وقوع قادتها في تحمّل المسئولية عن مثل هذه الأعمال.

* مدارس التعذيب الأمريكية :

يعتقد كثير من المخدوعين المبهورين بما يسمى "العالم المتمدّن" - Civilized World- (المعتقدين أنّ كل ما يلمع ذهبا) أنّ الفظائع التي ارتكبها جنود رائدة الحضارة الغربية الولايات المتّحدة الامريكية هي مجرّد استثناء، وحادث عرضي وأعمال فرديّة، وهذا ما حاول الأمريكيون تسويقه أيضا، لكنّ التاريخ يكشف أن التعذيب، ولاسيما الأمريكي يأتي نتيجة احتراف ومهنة! وبعد جهود مضنية، ومكثّفة، يتم تدريب الضبّاط فيها من خلال كتب ومدارس وأخصّائيين نفسانيين واجتماعيين على كيفية إذلال المعتقل، وامتهان كرامته لانتزاع ما يريدون منه، وإن كانت وسائل الإعلام العالمية (وهي بغالبها صهيونية وأمريكية التمويل) لم تذكر شيئا عن الموضوع، فإنّ ذلك لا يعني أنّه غير موجود سابقا في القاموس الأمريكي، فأسلوب التعذيب عند الأمريكيين قديم، ونعطي في هذا عدّة شواهد من محطّات متعدّدة:

- عام ١٩٤٦: تأسست (المدرسة العسكريّة الأمريكية) في باناما، وكان الهدف من هذه المدرسة تدريب رجال الشرطة والضباط في بلدان أمريكا اللاتينية ضدّ الأنظمة الشيوعية، وحركات التحرير وكانت هذه المدرسة أوّل من أصدر كتبا منسّقة توصي باستخدام التعذيب والإعدامات بدون محاكمة، واستخدام كل أساليب العنف بُغية الحصول على المعلومات من المعارضين وأعضاء الميلشيا السياسية، أو العاملين في صفوف حركات التحرير. ثمّ انتقلت هذه المدرسة عام ١٩٨٤ إلى نورث بينيج حيث كانت هذه المدرسة بلغت ذروتها في تعليم التعذيب في الستينيات حيث كانت أمريكا تدرّب الضباط ضدّ الشيوعيين في أمريكا اللاتينية. وقد قامت هذه المدرسة منذ تأسيسها عام ١٩٤٦ بتدريب ٦٠ ألف عضو من ١٢ بلدا وقد أصبح عدد منهم فيما بعد رؤساء دول بعد أن أصبحوا جلاّدين مشهورين.
- في عام ١٩٦٣، تمّ طباعة أبرز كتب تعذيب تحت اسم "KUBARK" لتعليم فنون التعذيب، ويبدأ الكتاب بجملة "حتى تكون محقّقا جيدا!!"

ويشرح الأساليب والطرق التي يجب اتّباعها لانتزاع المعلومات من الأسير ومزوّد برسوم وتفاصل الانتقال من مرحلة إلى أخرى ومن أسلوب إلى آخر، والظروف المناسبة لأداء ذلك، والتأثير الذي يتركه هذا على الأسير، أو المعتقل. ويؤكّد واضعو هذا المنهج أنّ أفضل وسيلة هي التي تجعل المعتقل يعذّب نفسه وأن يعذّب المعتقلين بمعتقلين آخرين. وقد تمّ تدريس هذا المنهج إلى رجال الاستخبارات والضبّاط في السجون وضبّاط مكافحة التمرّد والثورات.

- وفي عام ١٩٨٣ طوّرت الاستخبارات الأمريكيّة (منهاج التدريس في التعذيب) نحو الأسوأ وأصدرت كتابا آخر تحت اسم "التدريب لاستغلال القدرات البشرية" وكان هذا أسوأ نتاج في التعذيب، ويعتقد أنّ المنهج الذي طبّق في سجن "أبو غريب" هو نفسه المذكور في ذلك الكتاب. وقد تمّ ترجمة العديد من هذه الكتب الى اللغات لاسيما الأسبانية، وسَرعان ما تمّ انكشاف أمرها وأدّى الى استياء لدى شعوب أمريكا اللاتينية خاصّة أنّه كان يتم تعذيبهم عبر المناهج الواردة فيها ممّا دفع الحكومة الامريكيّة خلال عهد (بوش الأب) إلى سحب جميع النسخ الموجودة والتي تباع بعد أن كان (ريجان) فعّلها لاستخدامها في مآرب خاصّة في الحرب الباردة، ولا نستبعد أن بوش الابن يستعين فيها الآن في حربه المزعومة على الإرهاب.

*** نموذج "أبو غريب" استثناء أم استراتيجية محكمة؟:**



يعتقد الكثيرون أنّ نموذج التعذيب في (أبو غريب) ليس إلاّ حالة استثنائية قام بها عدد محدود من الجنود بدافع ذاتي وهذا نفس المنطق الأمريكي الذي يحاول التخفّي خلف هذه الحجّة. إلاّ أننا نرفض هذا رفضا قاطعا، فنحن نعتقد بما نمتلكه من أدلّة (ومن طبيعة ما جرى من حيث التحضير له والتدرّب عليه وتطبيقه على الأسرى العراقيين وتكرار التجربة الأمريكية المنحطّة في أكثر من سجن ومعتقل) أنّ الأسلوب

الذي طبّق في العراق في سجن "أبو غريب" هو استراتيجية أمريكية مدروسة بدقّة وعناية ومن لا يعتقد بذلك فما عليه إلاّ قراءة التالي من الحجج التي تبرهن على أنّ التعذيب بالشكل الذي تمّ كان مستهدفا ومقصودا:

أولا : تكرار نفس الافعال وطرق التعذيب :

إذ إنّ تعذيب السجناء بالمعتقلات الأمريكية لم يقتصر على (أبو غريب) بل إنه امتد للمعتقلات الأمريكية عبر العراق، وفي أفغانستان، وفي جوانتانامو بدليل أنّ تقرير لجنة مستقلة كان (البنتاغون) قد شكّلها في آيّار عام ٢٠٠٤ برئاسة وزير الدفاع الأمريكي السابق (جيمس شليزينجر) للتحقيق في أوضاع المعتقلات الأمريكية قد أشار أن كثيرًا من المعتقلين الذين قدّر التقرير عددهم بحوالي ٥٠ ألف معتقل في أفغانستان والعراق وحدهما تعرضوا للتعذيب والإهانة. وهذا أيضا ما أكّده تقرير صدر عن منظمة "هيومن رايتس ووتش" في ٢٤ نيسبان عام ٢٠٠٥ بعنوان: "هل يفلت مرتكبو التعذيب من العقاب.. المسئولية والقيادية عن إساءة الولايات المتّحدة لمعاملة السجناء"، حيث ذكر التقرير "أنّه يوجد دليل دامغ على أن إساءة الولايات المتحدة للسجناء المسلمين وتعذيبها إياهم أمران لم يحدثا في أبو غريب فقط، بل في أماكن أخرى في أفغانستان والعراق إضافة إلى غوانتانامو و"أماكن سرية" أخرى حول العالم (سنأتي على ذكرها لاحقا)، في خرق لمعاهدة جنيف، وللقوانين المناهضة للتعذيب" وأدّى ذلك إلى وفاة العديد من المعتقلين، أو تشوّههم نفسيا وجسديا. وما صدر خلال العام الماضي من وثائق رسمية ومعلومات صحفية عن فضائح التعذيب بالمعتقلات الأمريكية كشف عن أن الفضيحة هي أكبر بكثير مما كان متوقعا بسبب انتشار التعذيب في المعتقلات الأمريكية عبر العالم والتنوع الخطير للانتهاكات التي تعرض لها المعتقلون، كما أنّ القضية وذيولها، وتكرار أسلوبها لم يتوقف منذ تفجرها في شهر نيسان من ٢٠٠٤ حتى الآن، فكل أسبوع تقريبا تصدر تقارير رسمية أو صحفية، تكشف عن أبعاد جديدة خطيرة لفضائح التعذيب بالمعتقلات الأمريكية لم يكن ليصدقها أحد قبل (أبو غريب)، وهو ما يؤّكد ما ذهبنا إليه من أنّ التعذيب استراتيجية

إذ لا يمكن أن يكون عملا استثنائيا فيما يتم ممارسته في جميع المعتقلات الأمريكية تقريبا وبنفس الطريقة وعلى المعتقلين المسلمين بالذات سواء كانوا متّهمين، أم غير متّهمين بشيء إذ إن كثيرًا من المعتقلين الذين تعرضوا للتعذيب بالمعتقلات الأمريكية لم يكونوا على أي صلة بأية عمليات، أو جماعات سياسية أو مسلحة، وقد أكّدت ذلك العديد من تقارير الوكالات المدنية كالصليب الأحمر، وهيئات التحقيق الأمريكية الرسمية التي أشارت إلى أن ٧٠-٩٠% من المعتقلين بالسجون الأمريكية بالعراق على سبيل المثال هم من الأبرياء !

ثانيا: وجود أوامر عليا متكررة باستعمال هذا النوع من التعذيب وازدراء الأمريكيين للقانون الدولي:

بداية نرفض أن يتم حصر جرائم التعذيب السادية، والتعتيم عليها بسلوك بعض جنود الاحتلال، فهذه الممارسات هي في صميم وجوهر الاحتلال الأمريكي، وفي صميم نظام إرهاب الدولة العظمى الذي يمثله الرئيس الأمريكي بوش القائد الأعلى للقوات الأمريكية ووزير الدفاع رامسفيلد وكل الإدارة الأمريكية التي تتحمل المسئولية القانونية والأخلاقية عن انتهاك الثوابت الإنسانية والمعايير الدولية لحقوق الإنسان، وأحكام القانون الدولي الإنساني، فمدى الجريمة المخيفة يزداد وضوحا مع مرور الوقت، ويشير إلى أنّ بشاعة الجريمة تكمن في كون القرار بارتكاب جرائم الحرب هذه ليس قرار أفراد من الجنود وانما قرار مؤسسة دولة بأعلى مستوياهّا، بما فيها تدريب وكالة المخابرات الامريكية للجنود على عشرين نوعًا من استحداثات التعذيب، ومنها الاغتصاب والإهانات الجنسية الفردية والجماعية للأسرى والأسيرات، وربطهم وجرهم كالحيوانات، والتعذيب حتى الموت، مطلقى العنان للغرائز السادية التي لا تعرف حدودًا للبشاعة ولامتهان كرامة الشعب العراقي والمسلم، وسحق إنسانيته، وقهر إرادته تحت الاحتلال!

وفي هذا الإطار لا بدّ أن نربط المذكرات الحكومية السرية -التي وقعها كبار المسئولين الأمريكيين وعلى (رأسهم الرئيس الأمريكي جورج دبليو

بوش) وكتبها مستشارهم القانونيون للتشاور حول كيفية التعامل مع المعتقلين في أفغانستان والعراق- بالازدراء الأمريكي للقانون الدولي ولحقوق الشعوب، فالأصل في أمريكا هو انتهاك القانون الدولي، والحق في انتهاك حقوق الآخر وهذا واضح وضوح الشمس في رائعة النهار ولا يحتاج الى دليل وحسبنا التاريخ الأمريكي وشواهده، ويكفينا أنّ أمريكا الداعم الأوّل لاسرائيل في البقاء فوق القانون الدولي. على العموم، وفيما يخص المذكرات فقد جاء بعضها (مذكرة مساعد وزير العدل السابق الى مستشار القانوني للبيت الأبيض عام ٢٠٠٢) يروج لفكرة أن الدستور الأمريكي يجعل من حق الرئيس إعلان عدم التزامه بتطبيق القوانين الدولية في تعامله مع أسرى حرب أفغانستان بحكم أن أفغانستان هي دولة منهارة، وذلك بهدف حماية الجنود الأمريكيين من مغبة الوقوع تحت طائلة القانون الدولي. وقد وافق عليها (بوش) في نيسان عام ٢٠٠٢ عبر مذكرة لفريق الأمن القومي المساعد له أكد فيها على أنه يمتلك سلطة إعلان عدم انطباق اتفاقية جنيف الخاصة بمعاملة أسرى الحرب على أسرى الصراع في أفغانستان ولكنه لن يستخدم هذه السلطة!! (طبعا يمكنكم الوثوق في الكلمتين الأخيرتين). هذا وقد أصدر وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد مذكرة في كانون أول عام ٢٠٠٢ تسمح باستخدام ١٦ أسلوبا من أساليب التعذيب. فهل من المعقول أن تكون هذه الجرائم في (أبو غريب) وغيرها أفعالاً فرديّة!

يجيب الصحفي المشهور "سيمور هرش" في مقال له في صحيفة نيويوركر (٢٠٠٤/٥/١) بعنوان "التعذيب في سجن أبو غريب" أن تلك الجرائم لم تكن تتم وفق اجتهادات فردية، أو تصرفات محدودة، وإنما انطلاقا من فلسفة وقناعات تسيطر على القادة العسكريين والأمنيين الأمريكان، وبتوجيه كامل من ضباط الاستخبارات الأمريكية، فأحد الجنود المتهمين بالتعذيب أجابه قائلا "هل تعتقد أن عددا من الجنود الفتيان من (فيرجينيا) كانوا يقومون بهذه التصرفات اجتهادا منهم، دون توجيه من أحد؟" كما نقل قول أحد أبرز الجنود المتهمين في القضية في رسائله الشخصية لأهله أن ما قام به من فظائع

بحق الأسرى العراقيين كان يتم وفق أوامر من ضباط الاستخبارات، وأنه سأل مديره في السجن إذا كان ما يقوم به من عمليات تعذيب سيعرضه للمساءلة من باب إساءة معاملة السجناء، فأجابه: "لا تقلق بشأن ذلك".

هذا.. وقد أكّد تقرير منظمة هيومن رايتس ووتش الصادر في ٢٤ نيسان ٢٠٠٥ على وجود مذكرات وأدلة على معرفة المسئولين بالجرائم التي تتم والتكتم عليها، حيث ذكر أنّ "رامسفيلد قد وافق على طرق الاستجواب التي تخرق معاهدات جنيف واتفاقية مناهضة التعذيب من قبيل استخدام كلاب الحراسة لإخافة السجناء، ومن قبيل وضعهم في وضعيات "صعبة" ومؤلمة، ولم يتوفر أي دليل على أن رامسفيلد (وخلال ثلاث سنوات من تزايد التقارير التي تحدثت عن سوء المعاملة،) قد مارس سلطته لإنذار مرءوسيه بأن إساءة معاملة السجناء يجب أن تتوقف ولو كان قد فعل ذلك لأمكن بالتأكيد تجنب كثير من الجرائم التي ارتكبتها القوات الأميركية". في حين أكّد "ريد برودي" المستشار الخاص في هيومن رايتس ووتش في نفس التقرير أنّ "هذا النموذج من إساءة المعاملة والمنتشر في عدد من البلدان، لم ينتج عن أفعال الأفراد من الجنود الذين يخرقون الأنظمة، بل نتج عن قرارات متخذة من جانب مسئولين أمريكيين على مستوى رفيع لتحريف الأنظمة أو تجاهلها أو حتى إلقائها جانباً". وأضاف التقرير "وافق الجنرال سانشيز على طرق الاستجواب غير القانونية - أيضاً، استخدام كلاب الحراسة لترويع السجناء- التي مارسها الجنود في أبو غريب. ولا يبدو أن الجنرال سانشيز قد تدخل لوقف ارتكاب جرائم الحرب والتعذيب من قبل الجنود الواقعين تحت إمرته المباشرة. وقد يتحمل الجنرال ميلر، بصفته قائد معسكر الاعتقال الشديد الحراسة في (غوانتانامو بكوبا)، المسئولية عن جرائم الحرب وأعمال التعذيب التي تمت هناك، وقد يتحمل أيضاً مسئولية تصدير أساليب استجواب مسيئة وغير قانونية إلى العراق". وقد كان هيرش أشار إلى أن عملية التعذيب في (سجن أبو غريب) ليست عملا منعزلا عن التحول الجديد، وإنما تأتي في سياق واحد من أفغانستان إلى غوانتنامو إلى العراق، وقد تمت عملية الربط بين السجون

العراقية، وبين عمليات التحقيق، ووظائف رجال الأمن بموافقة من(سانشيز)، وبتوصيات من (ميلر)، الضابط الأمريكي المسئول في سجون (غوانتنامو). إذ تقوم رؤية ميلر على ضرورة أن تخدم وظيفة الجنود والحراس في السجون مهام المحققين في انتزاع المعلومات من السجناء، وبموافقة (تينيت) بطبيعة الحال.

يبقى أن نشير إلى أنّ ذلك يرتبط بازدراء الولايات المتحدة وقادمًا للقانون الدولي، ولا يهمها إذا كانت تلك الأفعال تشكل انتهاكاً خطيراً (إنّ هذا التعبير معتدل جدا مع ما ترتكبه أمريكا، وأقل مما يجب أن يقال عنها: هي جرائم في حق الإنسانية، وليس انتهاكًا لان الانتهاك يكون استثناءً عادة ولكن هذه الجرائم هي استراتيجية أمريكية) لاتفاقية جنيف، وللمعايير الدولية لحقوق الإنسان كما هو منصوص عليها في مختلف الاتفاقيات، والمواثيق الدولية لحقوق الإنسان، كاتفاقية مناهضة التعذيب وغيره من ضروب المعاملة، أو العقوبة القاسية أو اللا إنسانية أو المهينة لعام ١٩٨٤ والتي تضع على عاتق كل دولة طرف مسئولية اتخاذ مختلف الإجراءات التشريعية والإدارية والقضائية الفعالة لمنع أعمال التعذيب في أي إقليم يخضع لاختصاصها القضائي، ولا تجيز ممارسة أعمال التعذيب تحت كافة الظروف بما في ذلك التذرع بالظروف الاستثنائية، أو حالة الحرب، أو عدم الاستقرار السياسي الداخلي، أو في حالات الطوارئ. وليس أدلّ على ذلك من أنّ الولايات المتحدة الأمريكية وقعت الاتفاقية في ١٨ نيسان/أبريل ١٩٨٨ دون أن تصادق عليها - وفقا للمعطيات المتوفرة للعام ٢٠٠٠. كما أنها وقّعت على اتفاقية روما لعام ١٩٩٨ بتشكيل (محكمة الجزاء الدولية) ورفضت التصديق عليها، لمعرفتها المسبقة لطبيعة مشاريعها العدوانية. فهل هذه استثناءات أم استراتيجية محكمة؟!

*** نماذج من التعذيب المستخدم من قبل "العالم المتمدن" في أبو غريب:**

فيما تعجز الكلمات عن وصف هَوْل جرائم التعذيب التي مارستها قوات الاحتلال الأمريكي في (سجن أبو غريب) في العراق، والتي لو ارتكبتها أي دولة من دول البلدان النامية، والعالم الثالث، لكان رد الفعل الدولي وبالذات

الأمريكي والأوروبي الإدانة والتنديد، والإجراءات العقابية للنظام المعني بل وقد يصل الأمر الى تحرير ذلك البلد دفاعا عن الإنسانية!!، ولكانت الإدارة الأمريكية تحدثت عن تفوقها الأخلاقي والحضاري وكونها "رائدة العالم الحر".
وأتذكّر في هذا المجال كيف راحت المنظّمات الدولية، وعلى رأسها الأمم المتّحدة، والدول الأخرى - لاسيما أمريكا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا وغيرها من الدول- تتحدّث عن تفوّقها، وسموّها الحضاري ودفاعها عن حقوق الانسان وحتى الحيوان وتتّهم المسلمين بالتخلّف والانحطاط حيث قامت الدنيا ولم تقعد لمجرّد أنّ (نظام طالبان) وضع دبّابة أمام "تمثال حجري" (مع العلم بأنّ الهدف من قيام طالبان بذلك لفت انتباه العالم الى تلك الدولة، والحصار المفروض عليها ليقولوا: إننا هنا، لماذا لا يسمع أحد؟ ويبدو أنّ الجميع قد سمع ورأى حينها، ولكن من الصورة التي يريدها الأمريكيون) أمّا الجرائم في (سجون أبو غريب) وغوانتنامو وأفغانستان) (لا نتكلم عن كل الجرائم فهي أكثر من أن تذكر، أو أن تحتويها الكتب والمجلدات بل المكتبات) فهي مسألة لا تتعدى الاعتذار- كحد أقصى- ثمّ تعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل، لا بل تستكمل عمليات التعذيب والاعتقال، والاغتصاب، والشذوذ، والهتك التي تعبّر عن الحضارة الغربية، ومجتمعاتها المنحلّة أخلاقيا إلى درجة الانحطاط في الدرك الأسفل، بين جميع أمم وشعوب الأرض لدرجة يندى لها جبين الانسانيّة والتاريخ. فضرب تمثال حجري أمر لا يغتفر..... ولكنّ التعذيب الأمريكي (على النحو الذي سننقله) بحق الشعب المسلم مسألة فيها نظر، ومهما قلنا فلن نعبّر عن جزء بسيط جدّا ممّا جرى، ولكن لنوضّح الصورة أكثر ننقل لكم بعض طرق وأشكال وأساليب التعذيب التي تمّ اتّباعها في "أبو غريب" وأمثاله:

فقد كشف تقرير أعده (الجنرال الأمريكي أنطونيو ثاغوبا) ونشرته مجلة نيويورك (العام الماضي)عن اعتداءات وممارسات سادية بشكل ممنهج ضد المعتقلين العراقيين، بعد أن كانت شبكة سي.بي.إس التلفزيونية الأمريكية وصحيفة الواشنطن بوست أوّل من كشفتا النقاب- وبالصور- عن عمليات

التعذيب اللاأخلاقية والساديّة التي تمارسها قوات الاحتلال الأمريكية ضد المعتقلين العراقيين في سجن أبو غريب، ويقول التقرير: حدثت ممارسات سادية وجرائم في سجن أبو غريب بين شهر تشرين أول، وشهر كانون أول من العام الماضي، وقام بهذه الممارسات جنود من كتيبة الشرطة العسكرية رقم ٣٧٢، وعدد من عناصر أجهزة المخابرات الأمريكية وانتهاكات كبيرة منها:

- كسر الأضواء الكيماوية، وسكب السائل على المعتقلين.
- سكب المياه الباردة والساخنة على المعتقلين بعد تعريتهم.
- ممارسة اللواط بحق المعتقلين، وإجبارهم على تمثيل مظاهر جنسية ضد بعضهم البعض.
- إجبارهم على ممارسة العادة السرية.
- تعرية المعتقلين وإجبارهم على النوم بعضهم فوق بعض.
- إدخال أضواء كيماوية في دبر المعتقلين.
- إبقاء المعتقلين عراة لعدة أيام.
- ضرب المعتقلين بمقابض المكانس والكراسي.
- إجبارهم على التعري ولبس ملابس نسائية داخلية.
- ربط رقاب المعتقلين، وهم عراة بحبل وجرهم وهم مقيدون.
- حرمانهم من النوم.
- استخدام الكلاب العسكرية لترويع المعتقلين وعضهم.
- اغتصاب النساء المعتقلات.

وقد أضاف سيمون هيرش في تقريره في (١-٥-٢٠٠٤) إلى هذه الأنواع من التعذيبات نوعًا آخر نقلا عن (ثاغوبا) أيضا ومنها:

- سكب سوائل فسفورية على المحتجزين.
- ضرب المحتجزين بالكراسي والمطارق اليدوية.
- السماح للحرس بغرز الجراح الجديدة نتيجة التعذيب.
- ضرب السجناء بجدران السجن.

- انتهاك عرض المساجين بكافة الطرق لاسيما ادخال عِصِيّ المقشات في دبر المعتقلين.
- ربط الأماكن الحساسة للمعتقلين بالأسلاك الكهربائية والتهديد بتشغيلها.

ويروي إضافة إلى ذلك شهادتان عن مجندَيْن كانا وقت التعذيب، فيقول الأوّل: رأيت زملائي وقد أجبروا محتجزين عراقيين على التعري وغطّوا رءوسهم وأجبروا أحدهم على الاستمناء والآخر على فتح فمه ثمّ قالوا لي: "هل ترى ماذا تفعل هذه الحيوانات عندما نتركها لبضع دقائق؟!". هذا بينما قال الثاني: لقد تعرّض أحد المعتقلين المصنف على أنه خطير جدا إلى ضرب مبرح على أيدي رجال الاستخبارات، وقد أدى ذلك إلى موته، وبدلا من التعريف به وإعطائه رقم السجين، تمّ وضعه في كيس مليء بالثلج، ثمّ أخذوا يلتقطون الصور معه!!

هذا و لم يكتف جنود التحرير الامريكي بقدراقم الخاصّة بالتعذيب، فاستعانوا بأساتذة التعذيب الصهاينة، واستأجروا المستشارين منهم، والمعذّبين، والمحققين ليشاركوهم ساديّتهم، وحقدهم على المسلمين، فقد أكّد عدد من (المعتقلين العراقيين) الذين أطلق سراحهم من "أبو غريب" أنّهم خضعوا للتحقيق أمام (رجال الموساد) وقد عرفوا ذلك من خلال نوعية الأسئلة التي كانوا يطرحونها عليهم، وعن مناطق وأماكن عراقية كانت تضم معالم يهودية مقدسة واستطاع بعضهم وخاصّة المطّلع على اللغة العبرية تمييزها في أثناء حديث المحققين فيما بينهم على الرغم من حرصهم على التحدّث بالانجليزية في غالب الأحيان، ولا نستبعد ذلك أبدا خاصّة أنّ هذا حصل حتى في (غوانتانامو)، فقد ذكرت "أورلي أزولاي كاتس" الإسرائيلية في تقرير لها نشر في صحيفة يدعوت أحرنوت ٢٠٠٥/٢/٢٥ أن المحققين الأميركيين حاولوا كسر إرادة أسير سوداني في غوانتانامو من خلال إلباسه العلم الإسرائيلي عنوة، فيما قاموا بربط أسرى آخرين بأيديهم وأرجلهم حتى غرقوا ببولهم وبرازهم طيلة ١٨ إلى ٢٤ ساعة. وأكد التقرير أن الأسرى العرب والمسلمين هناك لا يعلمون هوية مكان اعتقالهم مما يمكن المحققين الأميركيين بتهديد من

يرفض الإدلاء بمعلومات حول القاعدة خلال استجوابه بتسليمه للإسـرائيليين من خلال نقله إلى ثكنة مجاورة يرفع فيها العلم الإسرائيلي مسبقا، لافتة إلى أن الطريقة "مجدية". وأفاد التقرير أن مترجمًا أمريكيا عمل في المعتقل يعدّ كتابـا يكشف فيه المزيد من فظاعات غوانتانامو منها: مهاجمة الأسرى بغاز الفلفل، وقيام محققة بخلع ملابسها أثناء التحقيق مع أسير سعودي أغمـض عينيـه، وشرع بالصلوات وعندها ألقت بنفسها عليه بصق نحوها فعادت وبللته بمادة سائلة حمراء كالدم وأبلغته أن ذلك من حيضها (هناك شهادات تفيـد أنّـه حيضها، وليس مادّة حمراء، نعم الى هذه الدرجة كان الانحطاط الغربي فهنيئًا للمبهورين) في محاولة لحرمانه من الصلاة ثم غادرت الغرفة تاركة إياه باكيـا كالطفل.

وبالعودة الى "أبو غريب" أظهرت الصور أنّ الجنود قاموا بهـذه الجـرائم الدنيئة بكل فرح وسرور وغبطة ما بعدها غبطة، وهو ما يشير الى نفسـيتهم المريضة، وأخلاقهم البذيئة وتربيتهم الشنيعة وحضارتهم الدنيئـة ومجتمعـاتهم الفاسقة، فقد قاموا بالتقاط الصور الفوتوغرافية والافلام المسـجلة، ورفعـوا أصابع الإبهام تعبيرا عن الرضى والاغتباط خلال ارتكابهم لجرائمهم، وتظهـر الصور بعض الجنود الأمريكيين واقفين مبتسمين أمام الكاميرا، وهو يضحكون بعد أن كوّموا السجناء العراقيين عراة على شكل هرم، وإرغامهم على ممارسة الشذوذ والأفعال المشينة وبدا المجرمون بتوثيقهم لانتهاكاتهم، لا يخافون من أي استجواب أو محاسبة أو قانون فهم القانون، وهم العالم ودولتهم القائـدة!!. إضافة الى صور تظهر مجندة تقف والسيجارة تتدلى من شفتيها، وترفع علامة النصر، وتشير باليد الأخرى إلى موقع حسّاس لمعتقل عراقي عار تماما، ورأسه مغطى بكيس، وصورة أخرى تظهر فيها المجندة الى جانب ثلاثـة معـتقلين يغطون عوراتهم بأيديهم وصورة إضافيّ تظهر فيه المجندة "انجلاند" ويدها بيـد "غرانر" يرفعان أيديهما بإشارة النصر أمام سبعة معـتقلين عـراقيين عـراة مكوميين بعضهم فوق بعض بينما يضحك الجنود عليهم وصور اخرى كثيرة وما خفي كان أعظم.

* لماذا هذا النوع من التعذيب والممارسات الشاذة؟ وما الهدف منها؟:

منّ الأفعال الإجرامية التي ارتكبها الأمريكيون بحق معظم السجناء والمعتقلين الأبرياء والعزّل تكشف نفسيّتهم المريضة والمحطّمة وعجزهم عن تحطيم المسلم وفشلهم في مسعاهم لإذلاله وتعبّر عن شعورهم ومجتمعاتهم وحضارتهم المزعومة بالنقص تجاه أخلاق المسلم ومبادئه وعفّته وكرامته واستبساله في مقاومته، فقد لجئوا إلى هذه الأفعال ليوهموا انفسهم أنّهم انتصروا، وهم فاشلون ، ونعتقد أنّهم هم من قام بتسريب هذه الصور التي نشرت حول التعذيب في إطار الحرب النفسية لإذلال المسلمين، ولتثبيط الروح المعنوية للمقاومة العراقية بعد الانتصارات المدوية التي حققتها في عملياتها العسكرية والاستخباراتية، والتي لا ينفكّ الإعلام العربي والغربي على تشويهها وطمسها، لكنّ هذه الأفعال لا تزيد المسلم إلاّ إيمانا وتمسكا بعقيدته، وانتقاما من أعدائه. وقد أشار البروفسور الأمريكي "برناردو هيكل" أستاذ الدراسات (الشرق أوسطية) في جامعة نيويورك أن تعرية الرجال، وتكديسهم بعضهم فوق البعض، أو إجبارهم على ممارسة العادة السرية، جاء في ضوء قراءة إدارة الاحتلال للتقاليد العربية والإسلامية التي ترفض الإباحية والتعري وتعتبرها منافية للخلق والدين، وبالتالي استخدمت قوات الاحتلال والمخابرات الأمريكية هذا الأسلوب السادي اللاإنساني في التعذيب كوسيلة للتعذيب لانتزاع الاعتراف، وكسر إرادة المعتقلين. في حين أكّد عدد من الجنود المتّهمين أنّ المسئولين عنهم وضبّاط الاستخبارات كانوا يقنعونهم أن ما يقومون به من عمليات تعذيب "مهمّة عظيمة"، ويؤكّدون أنّ تعذيب العرب، وتعريتهم وانتهاك أعراضهم هي الوسيلة الوحيدة التي تجبرهم على الاعتراف بما ارتكبوه. (خسئوا بعون الله).

* التعذيب الأمريكي مصدر استلهام للأنظمة الأخرى:

أكدت منظمة "هيومان رايتس واتش" في تقرير حديث لها "أن سلوك الولايات المتحدة يجردها من أي حق في أن تعتبر نفسها وصيا على حقوق الإنسان في دول أخرى". وأضاف التقرير أن انتهاكات الولايات المتحدة

لحقوق الإنسان، "شجعت بعض الدول الأخرى التي دأبت على انتهاك تلك الحقوق على تبرير مسلكياتها". وأورد التقرير أمثلة لدول "استشهدت" بسلوك الولايات المتحدة، واستمرت في ممارساتها التي تتعارض مع حقوق الإنسان:

ففي (مصر) دافعت الدولة عن تمديدها لقوانين الطوارئ بالإشارة إلى التشريعات المضادة للإرهاب للولايات المتحدة.

وفي (ماليزيا) يبررون الاعتقالات بدون محاكمة بممارسات الولايات المتحدة في جوانتانامو.

وتتخذ (روسيا) من (أبو غريب) مثالا حين تلقي بالمسئولية عن انتهاكات قواتها في الشيشان على الجنود ذوي الرتب الصغيرة. وكانت منظمة "هيومان رايتس وتش" لحقوق الإنسان قد أوضحت في تقرير سابق أن "مظاهر الرعب" التي صورت في سجن أبو غريب ببغداد كانت إفرازا لسياسة ترمي إلى الضرب باتفاقيات جنيف عرض الحائط.

***أين التحقيق والمحاسبة؟:**

لن نطيل عليكم في هذا الباب فنحن نعلم أنّ ما يتم هو مجرّد مسرحيات، لإسكان الخواطر وللتمويه، وأنّ هؤلاء القوم لا يخشون خلقا، ولا دينا، ولا قانونا، ولا حسابا من أحد ويكفي أن تعلموا أنّه بدلا من أن يلقى المتهم بأنّه أحد المسئولين عن هذه الجرائم (إضافة إلى كثير غيره) وهو (الجنرال سانشيز) جزاءه في السجن أو الإعدام (و هو قليل عليه) فقد نال وساما عند استدعائه من مهمته في العراق تقديرا على جهوده و خدماته!!

وعلى الرغم من أنّ تقرير "هيومن رايتس وتش" الصادر في ٢٤ نيسان ٢٠٠٤ يطالب بمحاكمة كل من(رامسفيلد) وجورج تينت، وسانشيز والجنرال ميلر، والتحقيق معهم بموجب مبدأ المسئولية القيادية، إلا أنّ التقرير يقول: "تعرض الجنود في المراتب الدنيا إلى اللوم في فضيحة (أبو غريب) وبسبب ممارسات التعذيب في مناطق أخرى من العالم في حين يبقى كبار القادة بعيداً عن متناول العقاب" مؤكدا على أن "هذا ليس عدلاً، بكل

بساطة"، ويضيف التقرير: أن -"الولايات المتحدة- ، ورغم هذه الأدلة، قد تعمدت حماية من خططوا لسياسات الاعتقال غير القانونية عبر رفضها السماح بتحقيق مستقل في إساءة معاملة السجناء، وعبر امتناعها عن إجراء تحقيق جنائي بحق القادة الذين سمحوا بتنامي، واستمرار هذه الإساءات الجرمية بحق المعتقلين. وفي الوقت الذي أجرت فيه وزارة الدفاع الأميركية عدداً كبيراً من التحقيقات، إلا أنها لم تشرع في تحقيق داخلي يستهدف تتبع ترتب تراتبية المسئولية القيادية، في حين بدأت المحاكمات بحق الجنود من ذوي الرتب المنخفضة والمتعاقدين فقط".

وأصلا حتى لو تمّ محاكمة الجميع وإعدامهم فهل هذا يكفي؟ ولكن لن يحصل أي شيء من هذا أصلا وكل ما هناك أنّهم يجرون مجرّد إجراءات شكلية للتخلص من الجنود الرديئين، أو وضع بعضهم كبش فداء.

*** ابتكار أساليب ووسائل جديدة للتعذيب لضمان عدم الوقوع في المسئولية:**

لا شكّ أنّ الجميع أدرك بعد كل هذه التفاصيل أنّه لا يمكن للتعذيب أن يكون حالة استثنائية، فيما يخص الولايات المتّحدة، وأنّ التعذيب لديها استراتيجية محكمة لها وسائل، وطرق تعليم وتدريب وكتب للتدريس وأهداف للتحقيق، وعلى الرغم من أنّ الذين يقومون بهذه الجرائم لا يخشَوْن شيئا، ولم يوقعوا على كافّة الاتفاقيات التي من شأنها محاسبة جنودهم او مساءلتهم لعلمهم بجرائمهم إلاّ أنهم يعتبرون أنّ الحذر مطلوب. ولهذا فقد شرعوا في ابتكار وسائل جديدة للتعذيب، وأماكن سرية لا يجري ملاحقتهم فيها ولا يزعجهم فيها فضول صحفي أو تدخّل منظّمة مستقلّة، أو صور إذاعة تلفزيونية ومن هذه الأساليب:

- استخدام الطائرات كمراكز تحقيق مع المعتقلين حيث لا يوجد أحد يطبّق عليهم أي قانون وهم في السماء، ولا أحد يراقبهم، وقد كشفت مجلة "نيوزويك" الأمريكية الأسبوعية عن أن وكالة المخابرات المركزية (CIA) استخدمت طائرات بوينج ٧٣٧ في استجواب من تسميهم واشنطن "الإرهابيين المشتبه فيهم" كجزء من نظام (سجن الأشباح العالمي). وكانت

تقارير إعلامية عديدة أشارت إلى أن وكالة مخابرات تستخدم طائرات نفاثة تجارية، كمراكز تحقيق، ودعمتها تقارير حديثة بأن طائرة نفاثة صغيرة، كانت جزءاً سريا للغاية، ضمن وسائل الاستجواب التي استخدمت في الحرب على "الإرهاب".

– تسليم المعتقلين إلى مخابرات في دول العالم الثالث (توصيات جورج تينت) حيث يتم تعذيبهم دون أن يعلم أحد بمكان وجودهم وقد أشار عدد من التقارير إلى أنّ هذه الدول غالبا ما تكون الدول التي تحتوي قواعد عسكرية أمريكية بالاضافة لبعض الدول العربية تلك التي لا تخضع لأي قانون أو تلك التي يتم استئجارها على سبيل المثال مثل "غوانتانامو" في كوبا.

– استئجار المرتزقة، والتعاقد مع شركات أمنية خاصّة من خارج الجيش مقابل أموال طائلة مما يبعد المسئولية عن أي قيادي في الجيش الأمريكي، ويتيح الفرصة أمام هؤلاء المرتزقة لاستخدام كافة أنواع التعذيب دون حسيب أورقيب، فهم يكادون يكونون حسب ما قاله تقرير "هيومن رايتس ووتش" الأخير بمأمن تام من أي مساءلة أو عقاب على أفعالهم لأن شروط عملهم مع الجيش الأمريكي تمنحهم الحصانة من المقاضاة أمام المحاكم، وهم لا يخضعون لتسلسل القيادة العسكرية، وبالتالي لا تجوز محاكمتهم أمام المحاكم العسكرية ولا الأمريكية.

– اختطاف المعتقلين وإخفاؤهم عن الأنظار واستخدام أسلوب "الإغراق بالماء" – المعروف في أمريكا اللاتينية باسم "submarino" – وحبس الأطفال (غوانتانامو سجن فيه طفل عمره ٩ سنوات آخر عمره ١٢ سنة، هل هذا إرهابي أيضا؟) واعتقالهم وأهاليهم، وهدم بيوتهم وتقليع أشجارهم ومزروعاتهم (وهو أسلوب صهيوني بامتياز) لإجبار المطلوب على تقديم نفسه والاستسلام. وقد أشار تقرير صادر عن "منظمة هيومان رايتس ووتش" بعنوان "مُختفي الولايات المتحدة: أشباح المخابرات الأمريكية المحتجزين لفترات طويلة الأمد" إلى أنّ أمريكا تستخدم أساليب مألوفة بين الدكتاتوريات القمعية.

لكن المحققين ليسوا من بلد دكتاتوري وإنما من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، السي آي إيه.

ويضيف التقرير "الاختفاءات" كانت علامة الانتهاك المميزة للدكتاتوريات العسكرية في أمريكا اللاتينية في "الحرب القذرة" ضد التآمر المزعوم. والآن أصبحت تكتيك الولايات المتحدة في صراعها مع القاعدة. ويضم سجناء السي آي إى "المختفين" (أبو زبيده)، مساعد مقرب لأسامة بن لادن، ورمزي بن الشيب الذي ربما كان أحد المختطفين في ١١/٩ لولا فشله في الحصول على تأشيرة دخول للولايات المتحدة، وحمبلي وهو أحد حلفاء القاعدة الأساسيين في جنوب شرق آسيا وعبد الرحمن الناشري الذي يزعم بأنه العقل المدبر، وراء تفجير المدمرة كول.

ووفقاً لـ"الفريق المستقل لتقييم عمليات السجن لوزارة الدفاع" الذي يترأسه وزير الدفاع السابق جيمس شلسينجر، فقد صُرح للسي آي أى "بالعمل وفقاً لقواعد مختلفة" عن تلك السارية على الجيش الأمريكي. وانبثقت هذه الأنظمة جزئياً من مذكرة من وزارة العدل في آب/أغسطس ٢٠٠٢ رداً على طلب من السي آي إى لتلقي إرشادات، حيث نصت المذكرة على أن تعذيب معتقلي القاعدة "قابل للتبرير" وأن القوانين الدولية ضد التعذيب "قد تكون غير دستورية إذا تم تطبيقها في عمليات التحقيق" التي تتم في سياق الحرب ضد الإرهاب.

***خاتمة:**

لا تعليق لدينا نضيفه على ما ذكرناه من فضح للاستراتيجيات الامريكية في التعذيب و الانحطاط الذى تعيشه هذه الدولة، ولكن يبقى لدينا سؤال نوجّهه لجميع من قرأ التقرير بعد أن فاضت عيناي دموعا في كل سطر منه سيما أنّ صورة أحد المعتقلين السابقين في سجن(أبو غريب) عند خروجه من السجن وهو يلقى تصريحًا نقلته (الجزيرة الفضائية) وقتها مازال عالقا في ذهني، رجل بكل ما للكلمة من معنى شامخ قوي معتز بدينه و شرفه لم تتمالكه نفسه فانفجر باكيا شاكيا قائلا "لقد اغتصبوني". لا أملك ما أفعله حيال هذه

الجرائم الأمريكية سوى ما سطّره قلمي مضافا إليه هذا السؤال: "مـــاذا لـــو تعرّض أحدكم لمثل ما حصل لإخواننا؟ ماذا سيكون ردّ فعلكم؟ ومـــا هـــو تصرّفكم؟ بالتأكيد لن يتكلّم أحد عن مزايا الديمقراطيّة الأمريكية، وعن رغبته بتنمية بلده وتطويره، وبخوض ما يسمى الانتخابات، وهم بها فرحون وما إلى ذلك بعد أن فقد أعزّ ما يملك وهو شرفه، وعرضه، وأخته، وأمّه وأبوه وبيته، وأرضه، وشعبه، ويجبرونه على ترك دينه، ولكن خسئوا إن كانوا يستطيعون، فاللهَ اللهَ في أسرى المسلمين والمعتقلين في السجون الغربية.

﴿وَسَيَعْلَمْ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء /٢٢٧]

صدق الله العظيم.

ومن أصدق من الله قيلاً ؟!

ملحق الكتاب :

الأسير الفلسطيني

تقرير شامل ...

حول أوضاع الأسرى و المعتقلين في السجون والمعتقلات الإسرائيلية (*)

لقد اجتهدنا، وسعينا، ونسعى دوماً إلى إبراز هذه القضية الهامة، وما يتعلق بها من مستجدات، ورفع صوتهم إلى شعبهم، ثم إلى العالم أجمع ، خاصة وأنهم محتجزون في ظل ظروف غير إنسانية تفتقر إلى الحد الأدنى لنصوص، وقواعد الاتفاقيات الدولية، والقانون الدولي الإنساني.

مع الإشارة بأنه من الواجب على كل من يقتبس أية فقرات من هذا التقرير بأن يشير إلى المصدر وإلى كاتب التقرير .

مقدمة :

بعد الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ م واحتلال إسرائيل لباقي المناطق الفلسطينية والفظائع التي ارتكبتها بحق الشعب الفلسطيني والتي ألمت بكل أنواع الممارسات اللاإنسانية ،وترافق معها ابتداع شتى أساليب القهر والتعذيب في حق المواطنين الفلسطينيين ، وكرد طبيعي من قبل الشعب الفلسطيني الذي عانى الاضطهاد والظلم، ومن قبلهما الاقتلاع والتشريد عام ٤٨ ، نشأت "حركة المقاومة الوطنية الفلسطينية" بهدف مقاومة هذا الاحتلال، وهذه المقاومة تجيزها وتشرعها كافة القوانين والأعراف الدولية ، وتصاعدت حركات المقاومة الفلسطينية واتسعت قاعدتها الجماهيرية، ونتيجة لذلك أصبح هناك مئات من الفدائيين المطلوبين للاحتلال الإسرائيلي ، وبهدف ردع هذه الظاهرة إلى جانب ما مارسه، ويمارسه الاحتلال من سياسة الإبادة والقتل الجماعي والتهجير ومصادرة الأراضي والممتلكات وهدم البيوت

(*) إعداد عبد الناصر عوني فروانة (غزة – فلسطين منتصف ابريل ٢٠٠٥)

وغيرها من الأساليب العنصرية والإنتهاكات الفاضحة للقانون الدولي ، افتتح الإحتلال سلسلة من السجون، ورثها عن الانتداب البريطاني، والحكم الأردني بعد حرب حزيران، وتم توسيعها عام ١٩٧٠م وبظروف أكثر قساوة هي أشبه بمعتقلات جماعية قلما شهدها العالم ، و لجأ الى اعتقال العديد من الشخصيات الوطنية، ومن يشتبه بأن لهم علاقة بالمقاومة من قريب أو من بعيد مستندًا إلى ما يعرف بـ" قوانين الطوارئ " التي تجيز اعتقال أي مشبوه عربي دون مذكرة توقيف، ودون محاكمة، وهذا يتناقض والمادة التاسعة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ": لا يجوز اعتقال أي إنسان، أو حجزه، أو نفيه تعسفاً "

وفي وقت لاحق بنى الاحتلال الإسرائيلي عدداً من السجون والمعتقلات بمواصفاته الخاصة: (كسجن بئر السبع ونفحة الصحراوي ومعتقل أنصار٣ في النقب وجلبوع وغيرها) وبشروط حياتية وصحية لاإنسانية ولا تصلح للحياة البشرية .

وعليه فقد تعرّض – ولا زال يتعرض – الأسير الفلسطيني والعربي في السجون والمعتقلات الإسرائيلية إلى العديد من الممارسات اللاإنسانية التي تهدف الى إفراغه من محتواه الإنساني قبل إفراغه من محتواه الثوري بهدف تحويله – إن قُدر له أن يبقى على قيد الحياة ويتحرر – إلى عالة على أسرته ومجتمعه ، ونتيجة لهذه الظروف القاسية استُشهد (١٧٧) أسيرًا داخل السجون والمعتقلات الإسرائيلية (٦٩ شهيدًا نتيجة التعذيب ، و ٣٧ شهيداً نتيجة الإهمال الطبي و ٧١ شهيداً نتيجة القتل العمد بعد الاعتقال مباشرة) ، وهناك المئات أيضاً استشهدوا بعد التحرر نتيجة لآثار السجن والتعذيب ... وفي دراسة ماجستير للأخصائي "محمد الزير" من برنامج غزة الصحة النفسية أثبتت " أن الأعراض والأمراض المزمنة، والمستعصية، والتي ظهرت، وبدأت تظهر على الأسرى المحررين لها علاقة بصورة دالة إحصائيّاً بخبرة السجن والتعذيب ، لذلك جميع الأسرى والمحررين بحاجة إلى عمل فحوصات كاملة، وبصورة روتينية كل فترة من الزمن للتأكد من خلوهم من الأمراض " وهذا

ما يدلل على استشهاد المئات من الأسرى بعد التحرر متأثرين بآثار السجن والتعذيب وسنوات الأسر الطويلة .

الأسرى في أرقام :

" إسرائيل " - ومنذ احتلالها لباقي الأراضي الفلسطينية عام ١٩٦٧م - اعتقلت مئات الآلاف من الفلسطينيين تجاوز عددهم ٦٥٠ ألف حالة (١٩٦٧-١٩٨٧ بلغت ما يقارب من ٣٨٠ ألفًا) وخلال "الانتفاضة الأولى" ومنذ اليوم الأول منها شنت قوات الإحتلال حملة اعتقالات واسعة جداً طالت كل قرية، ومدينة، وحي، ومخيم، ولم تتسع السجون لهذه الأعداد الهائلة، بل لجأت إلى افتتاح معتقلات تخضع للجيش الإسرائيلي مباشرة؛ أي لإدارة عسكرية كأنصار٣ في النقب الصحراوي والذي تم افتتاحه في مارس ١٩٨٨م ،وهذه المعتقلات أشبه بمعتقلات النازية من حيث الشروط الحياتية والمعاملة ، وزج بداخلها عشرات الآلاف (١٩٨٧م - ١٩٩٤ م بلغت ما يقارب من ٢٠٠ ألف حالة) ، وبعد اتفاق أوسلو تم الإفراج عن الآلاف من المعتقلين وتقلصت حالات الاعتقال أيضاً ، فتقلص معها العدد الإجمالي وأغلقت المعتقلات التي أنشئت خلال الانتفاضة، وبقيت السجون المركزية ، وأغلق منها ما يقع جغرافياً في المناطق التي سلمت للسلطة الوطنية الفلسطينية في إطار "اتفاق أوسلو" كسجن غزة المركزي، ومعتقل أنصار٢ في غزة وسجن جنيد في نابلس، وسجن الخليل في الخليل .

وفي سنوات ما بعد أوسلو تراجع عدد المعتقلين نتيجة للإفراجات السياسية، ومن الجانب الآخر الهدوء النسبي - إن جاز التعبير - وبالتالي تقلصت حالات الاعتقال ومع اندلاع انتفاضة الأقصى الباسلة ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠ لم يكن في السجون الإسرائيلية سوى ١١٥٠ أسيراً تقريباً، وأفرج عن بعضهم خلال إنتفاضة الأقصى لانتهاء مدة محكوميتهم ولم يبق منهم حتى الآن سوى (٦٤٠ معتقلاً) منهم ١٨٠ أسيراً من قطاع غزة و٣٢٩ أسيراً من الضفة الغربية ، و١٣١ أسيراً من القدس، والمناطق التي احتلت عام ١٩٤٨م

ومن البلدان العربية الشقيقة (ومن هؤلاء ٣٩٧ أسيراً معتقلين منذ ما قبل قدوم السلطة الوطنية الفلسطينية في مايو ١٩٩٤م) .

وخلال "انتفاضة الأقصى" عادت إسرائيل الى سياستها القديمة الجديدة، وشنت حملة اعتقالات، شاملة واسعة لكن بدرجة أقل من الانتفاضة الأولى، وفي الوقت ذاته تصاعدت عمليات الاغتيالات؛ أي: القتل خارج نطاق القانون، والتصفية بشكل عام، وبعد الاعتقال مباشرة بشكل خاص ، ولكن مع الفشل في قمع الإنتفاضة - بل وبالعكس: تصاعد وتيرتها، واتساع رقعتها الجغرافية، وتطور عمليات المقاومة - لجأت قوات الاحتلال الى شن حملات اعتقال واسعة جدّاً منذ أواخر مارس وأوائل ابريل ٢٠٠٢ م ، وقد تكون الأوسع منذ بداية الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧ حيث اعتقل خلال ثلاثة شهور حوالي ٥ آلاف مواطن فلسطيني في أوسع حملة اعتقالات عشوائية ، فطالت كل المدن والقرى الفلسطينية بما فيها المناطق التي تخضع للسيطرة الفلسطينية الكاملة وطالت الطفل والشيخ والشاب ، والفتاة والمرأة كما طالت عائلات بأكملها مستخدمة كافة أساليب وأشكال الاعتقال بما فيها اجتياح المدن والقرى والمخيمات، وتفتيش المنازل، وإتلاف وتخريب محتوياتها مصحوبة بمداهمات للجيش والدبابات والمصفحات، وغطاء جوي من الطائرات، ويرافقها إطلاق الرصاص بغزارة، وهدم المنازل، واقتلاع الأشجار، كما استخدمت قوات الاحتلال سياسة اختطاف المواطنين بشكل كبير عن طريق القوات الخاصة المتنكرة بزي عربي والذين يطلق عليهم " وحدات المستعربين " ، كما تحولت المعابر والحواجز العسكرية المنتشرة على الطرق، ومداخل المخيمات والمدن إلى كمائن لاصطياد المناضلين ، كما أقدمت قوات الاحتلال خلال انتفاضة الأقصى على اعتقال العديد من القيادات السياسية وأعضاء المجلس التشريعي الفلسطيني مثل "مروان البرغوثي" و"عبد الرحيم ملوح" و"حسام خضر" و"حسن يوسف" و"ركاد سالم" .

وأخطر من ذلك أنها استخدمت في حالات كثيرة المواطنين الأبرياء العزّل كدروع بشرية أثناء اعتقال مواطنين ، وفي كثير من الحالات وخلال

الاقتحامات والاعتقالات العشوائية استخدمت المنازل واالمؤسسات العامة وحتى المدارس كأماكن اعتقال واحتجاز للمواطنين العزل ، .. إلخ، ويتعرض المواطنون الفلسطينيون أثناء عمليات الاعتقال لأنواع مختلفة من التنكيل والإهانات والإذلال، مثل تقييد أيديهم للخلف، وعصب أعينهم، أو أن يجبروا على خلع ملابسهم أمام الآخرين، أوإجبارهم على جلوس القرفصاء، أو الجلوس العادي، أو الركوع لفترات طويلة ، ولم يُسمح لهم بالذهاب إلى المرحاض، وحُرموا من الطعام والبطانيات، وأحيانًا من الماء ، أو .. إلخ من الممارسات المهينة والمذلة ، وزجت بالآلاف من الفلسطينيين في السجون والمعتقلات!

وفي أبريل ٢٠٠٢ أعيد افتتاح معتقلات سبق أن أغلقت بعد الانتفاضة الأولى، ويشرف عليها الجيش مثل (أنصار ٣ في النقب وعوفر في رام الله، والدامون في حيفا .. إلخ) حتى وصل عدد حالات الاعتقال إلى قرابة (٣٥ ألف حالة اعتقال) خلال أربع سنوات ونصف من انتفاضة الأقصى (٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠ - ٢٨ مارس ٢٠٠٥) ، ويوجد منهم حتى الآن في السجون والمعتقلات الإسرائيلية ٦٨٠٠ معتقل، وإذا أضفنا إليهم ٦٤٠ معتقلاً منذ ما قبل انتفاضة الأقصى يصبح العدد الإجمالي للأسرى والمعتقلين قرابة ٧٤٠٠ معتقل (١٠ % معتقلين من قطاع غزة - ٨٢ % من الضفة الغربية - ٨ % من القدس والمناطق التي احتلت عام ١٩٤٨م ومعتقلين من البلدان العربية الشقيقة) موزعين على أكثر من (٢٥ سجناً ومعتقلاً ومركز توقيف) ، وفي قراءة سريعة لحالات الاعتقالات يتضح أن الغالبية العظمى منها كانت من نصيب السكان المدنيين، والذين اعتقلوا بشكل عشوائي، ودون تمييز ، ومن الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أنه وبالإضافة لأساليب الاعتقال المذكورة آنفاً فإن قوات الاحتلال صعّدت من استخدام أسلوب اعتقال الأقارب كوسيلة للضغط على الأسير أثناء التحقيق معه مثل: اعتقال الأم والزوجة والأخت، والتهديد باغتصابهن بهدف الضغط عليهم لانتزاع اعترافات منهم ، كما في حالات مماثلة اعتقلت أقارب المطلوبين بهدف إجبارهم على تسليم أنفسهم ،

والمادة الأولى من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان تقول: " يولد جميع الناس أحراراً ومتساوين في الكرامة والحقوق وهم قد وهبوا العقل والوجدان وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضاً بروح الإخاء .

وبالمقارنة ما بين الانتفاضة الأولى والثانية يتضح أن عدد حالات الاعتقال خلال ست سنوات ونصف من الانتفاضة الأولى وصل إلى ٢٠٠ ألف حالة أي بمعدل ٣٠ ألف حالة في السنة الواحدة ، في حين بلغت خلال أربع سنوات ونصف من انتفاضة الأقصى (٣٥ ألف حالة) بمتوسط ٧٥٠٠ حالة في السنة الواحدة تقريباً.

السجون والمعتقلات الإسرائيلية :

وهؤلاء المعتقلين موزعون على أكثر من ٢٥ سجناً ومعتقلاً ومركز توقيف، وهذه السجون موزعة جغرافياً وغالبيتها العظمى تقع في المناطق الإسرائيلية، ومنها في أماكن خطرة وهذا يتنافى واتفاقية جنيف الرابعة في فصلها الثاني المادة ٨٣ " :لا يجوز للدولة الحاجزة أن تقيم المعتقلات في مناطق معرضة بشكل خاص لأخطار الحرب "، وأيضاً المادة ٤٩ من القسم الثالث من ذات الاتفاقية " يحظر النقل الجبري الجماعي، أو الفردي للأشخاص المحميين أو نفيهم من الأراضي المحتلة إلى أراضي دولة الاحتلال، أو إلى أراضي أي دولة أخرى ، محتلة أو غير محتلة ، أياً كانت دواعيه ".

ويواجه الأسرى والمعتقلون في كافة السجون والمعتقلات الإسرائيلية شروطاً حياتية قاسية، وظروفاً لاإنسانية و أوضاعًا مزرية لا تطاق، تتنافى وأبسط الحقوق الإنسانية وتجاوزت أدنى وأبسط القيم والأعراف الإنسانية في العالم ، ، حيث إن المباني قديمة بالية تآكلت بفعل عوامل التعرية وسوء الصيانة، والغرف معتمة باستثناء نافذة صغيرة جداً هي نافذة القضبان الحديدية وشبكة من الاسلاك ، ويسود ، في كثير من الغرف، احساس بانعدام الهواء اللازم للتنفس وشعور بالاختناق بسبب الازدحام حيث يتكدس العشرات في غرفة واحدة .

وتخضع السجون والمعتقلات لإدارتين، ولكن يحكمها عقلية واحدة هي عقلية الاحتلال وسلوكه المشين؛ فهناك السجون المركزية التي تخضع لشرطة مصلحة السجون، وهذه عبارة عن مبانٍ أسمنتية، وغرف مثل سجن بئر السبع ويقع شرق مدينة بئر السبع ، وسجن عسقلان، ويقع وسط مدينة عسقلان ، والرملة في مدينة الرملة وبداخله قسم خاص للعزل ، ونفي ترستا وهو سجن للنساء، وتلموند وهو مخصص للأطفال ، وسجن كفاريونا شمال يافا، وسجن شطة جنوب بحيرة طبريا ، وسجن عتليت والدامون قرب حيفا ، وسجن الجلمة على الطريق العام ما بين حيفا والناصرة ، وسجن المسكوبية في القدس .. إلخ ، وهناك المعتقلات التي تخضع لإدارة عسكرية؛ أي للجيش العسكري مباشرة وينتشر بداخلها الجنود المدججون بالأسلحة، وكثيراً ما أطلق هؤلاء الجنود الرصاص الحيَّ على المعتقلين مما أدى إلى إصابة واستشهاد العديد منهم أمثال الشهيد "أسعد الشوا، وعلى الصمودي" عام ١٩٨٨ في معتقل النقب ، وهذه المعتقلات عبارة عن معسكرات اعتقال منتشرة فيها الخيام، وكل مجموعة من الخيام تشكل قسماً يحيطه السياج والحراس المدججون بالسلاح من كل الجوانب وهي أشبه بمعتقلات الاعتقال في عهد النازية ، وبمجرد وصول المعتقل يتم التعامل معه بالرقم، وليس بالاسم ، ومن هذه المعتقلات أنصار ٣ في النقب، وعلى الحدود المصرية ، ومعتقل عوفر في رام الله ومجدو في شمال البلاد وغيرها ، وتشهد هذه المعتقلات ظروفاً أكثر قساوة من السجون المركزية .

أما في غزة فلا يوجد سجون أو معتقلات سوى معتقل إيرز، الذي يقع في منطقة إيرز شمال قطاع غزة والتي تسيطر عليه " إسرائيل " وهناك العديد من مراكز التوقيف والموجودة في إسرائيل .

و لم تكتف دولة الاحتلال بما هو قائم من سجون ومعتقلات بل أقدمت خلال انتفاضة الأقصى على تشييد سجون جديدة كجلبوع والعديد من الأقسام الجديدة في بعض السجون المركزية وبشروط أكثر قساوة مما هو قائم.

أنواع المعتقلين

المعتقلون إدارياً / ١٥,٣ ٪

وإسرائيل استخدمت سياسة الاعتقال الإداري منذ اليوم الأول لاحتلالها للضِّفة الغربية، وقطاع غزة، مستندة في ذلك على أنظمة الدفاع (الطوارئ) الانتدابية لعام ١٩٤٥ المادة (١١١) بل قامت أيضاً بسن تشريعها الخاص بها المتعلق بالاعتقال الإداري ضمن تشريعات الأمن لعام ١٩٧٠ الأمر العسكري رقم ٣٧٨ متضمناً نفس البنود التي جاءت في أنظمة الطوارئ البريطانية، والموقف الدولي من الاعتقال الإداري واضح حيث يعتبر سجن أي شخص دون توجيه تهمة له، أو تقديمه للمحاكمة، خرقاً خطيراً لحق الفرد في الحماية من الاعتقال التعسفي والحماية على شخصه ، ويجري الاعتقال الإداري وفق ما يسمى (ملف سري) ويمنع الأسير ومحاميه من الاطلاع عليه ، ويستخدم كسيف مسلط على رقاب المعتقلين ، كما لا يعرف المعتقل متى سيتحرر، ومن الممكن كما حصل مع المئات من المعتقلين التجديد لهم لمرات عدة وأحياناً كثيرة تم التجديد لبعض المعتقلين لحظة الإفراج، وهناك من المعتقلين الفلسطينيين من أمضوا سنوات في الاعتقال الإداري ، ليس هذا فحسب، بل هناك من حولوا للاعتقال الإداري بعد انتهاء مدة محكومياتهم ، ويوجد الآن في السجون والمعتقلات الإسرائيلية ما نسبته ١٥,٣ ٪ من إجمالي عدد الأسرى والمعتقلين .

الموقوفون احترازياً و بانتظار المحاكمة / ٣٤,٨ ٪ .

المحكومون / ٤٩,٩ ٪ • ١٦,٢ ٪ محكومون من ٥٠ عاماً وما فوق .

- **١٨,٥ ٪ معتقلاً محكومين من ١٥ وأقل من ٥٠ عاماً .**
- **١١ ٪ معتقلاً محكومين من ١٠ أعوام وأقل من ١٥ عاماً .**
- **٥٤,٣ ٪ محكومون أقل من ١٠ سنوات .**

مجموع الأسرى الذين أمضوا أكثر من عشر سنوات ولا زالوا داخل السجون (٤٣٢ أسيراً) وموزعون كالتالي :

• **من أمضوا أكثر من ٢٥ عاماً ٥ معتقلين وهم :**

- **سعيد وجيه سعيد العتبة** (مواليد ١٩٥١) من نابلس ومعتقل منذ ١٩٧٧/٧/٢٩م أعزب وموجود في سجن عسقلان .
- **نائل صالح عبد الله برغوثي** (مواليد ١٩٥٧) من رام الله ومعتقل منذ ١٩٧٨/٤/٤م أعزب وموجود في سجن عسقلان .
- **فخري عصفور عبد الله البرغوثي** (مواليد ١٩٥٤) من رام الله معتقل منذ ١٩٧٨/٦/٢٣م متزوج وموجود في سجن عسقلان وقد التقى بنجليه قبل شهور داخل السجن .
- **الأسير العربي سمير سامي على قنطار** (مواليد ١٩٦٢) من لبنان معتقل منذ ١٩٧٩/٤/٢٢م وهو أعزب وموجود في سجن هداريم .
- **أكرم عبد العزيز سعيد منصور** (مواليد ١٩٦٢) ، من قلقيلية ومعتقل منذ ١٩٧٩/٨/٢م وهو أعزب وموجود في سجن عسقلان .

• **من أمضوا أكثر من ٢٠ عاماً وأقل من ٢٥ عاماً ١٣ أسيراً وهم :**

- **محمد إبراهيم محمود أبو علي** من يطا الخليل ومعتقل منذ ١٩٨٠/٨/٢١م
- **فؤاد قاسم عرفات الرازم** من القدس ومعتقل منذ ١٩٨١/١/٣٠م .
- **ابراهيم فضل نمر جابر** من الخليل ومعتقل منذ ١٩٨٢/١/٨م .
- **حسن علي نمر سلمة** من رام الله ومعتقل منذ ١٩٨٢/٨/٨م .
- **عثمان علي حمدان مصلح** من نابلس ومعتقل منذ ١٩٨٢/١٠/١٥م .
- **سامي خالد سلامة يونس** من المناطق التي احتلت عام ٤٨ من قرية عارة، ومعتقل منذ ١٩٨٣/١/٥م .
- **كريم يوسف فضل يونس** من المناطق التي احتلت عام ٤٨ من قرية عارة ومعتقل منذ ١٩٨٣/١/٦م .
- **ماهر عبد اللطيف عبد القادر يونس** من المناطق التي احتلت عام ٤٨ من قرية عارة ومعتقل منذ ١٩٨٣/١/٢٠م .

- **سليم علي ابراهيم الكيال** من غزة ومعتقل منذ ١٩٨٣/٥/٣٠م .
- **حافظ نمر محمد قندس** من المناطق التي احتلت عام ٤٨ من مدينة يافا ومعتقل منذ ١٩٨٤/٥/١٥م .
- **عيسى نمر جبريل عبد ربه** من مخيم الدهيشة ومعتقل منذ ٢١ / ١٠ / ١٩٨٤ م .
- **محمد عبد الرحيم سعيد منصور** من طولكرم ومعتقل منذ ٢٧ / ١ / ١٩٨٥ م .

– **أحمد فريد محمد شحادة** من مخيم قلنديا في رام الله ومعتقل منذ ١٦ / ٢ / ١٩٨٥ م

- **عدد من أمضوا أكثر من ١٥ عاماً وأقل من ٢٠ عاماً (١٢٤ أسيراً).**
- **عدد من أمضوا أكثر من ١٠ أعوام وأقل من ١٥ عاماً (٢٩٠أسيراً).**

الحالة الاجتماعية لمجموع الأسرى :

غالبية المعتقلين من غير المتزوجين حيث بلغت ما نسبته ٧٢ % من العدد الإجمالي ، اما المتزوجون فنسبتهم ٢٨ % .

الأسرى الأطفال : (٥,٢ %)

أحد مظاهر الاعتقالات كان اعتقال الأطفال الذين لم يتجاوزوا بعد مرحلة الطفولة ودون سن الثامنة عشرة إذ اعتقلت قوات الاحتلال آلاف الأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين ١١-١٨ عاماً ، وخلال انتفاضة الأقصى فقط اعتقلت قوات الإحتلال قرابة ٣٥٠٠ طفل ، بقى محتجزًا منهم حتى الآن ٣٠٤ أطفال (٢٩٦ من الضفة الغربية والقدس ، و٨ فقط من قطاع غزة) ، وموزعون على السجون ومراكز التحقيق والتوقيف الإسرائيلية من بينهم ٩ بنات ، و ٥ أطفال تتراوح أعمارهم ما بين ١٢-١٣ عاماً ، كما يوجد أكثر من ٤٥٠ معتقلاً فلسطينيا كانوا أطفالا لحظة اعتقالهم، وتجاوزوا سن ١٨ عاماً ولا يزالون في الأسر.

وعن فترة اعتقالهم فإن (٣٩) منهم اعتقلوا في العام ٢٠٠٣ ، و(٢١٦) اعتقلوا في العام ٢٠٠٤ ، و(٤٩) اعتقلوا هذا العام .

وهم موزعون على عدة سجون ومعتقلات وأغلبهم (١٠٥) في سجن تلموند ، و(٦٣) في عوفر، و(٥٧ في مجدو ، و(٣٩) في النقب .

وتحرم سلطات الاحتلال الإسرائيلي الأطفال الأسرى من أبسط الحقوق التي تمنحها لهم المواثيق الدولية، هذه الحقوق الأساسية التي يستحقها المحرومون من حريتهم بغض النظر عن دينهم وقوميتهم وجنسهم ، والحق في معاملة إنسانية تحفظ كرامة الطفل المعتقل.

وعلى الرغم من أن الاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان – وتحديدا اتفاقية حقوق الطفل – شددت على ضرورة توفير الحماية للأطفال ولحياقم ولفرصهم في البقاء والنمو، وقيّدت هذه المواثيق سلب الأطفال حريتهم، وجعلت منه "الملاذ الأخير ولأقصر فترة ممكنة "، إلا أن سلطات الاحتلال الإسرائيلي جعلت من قتل الأطفال الفلسطينيين واعتقالهم الملاذ الأول.

فقد تضمن العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية الصادر في ديسمبر ١٩٦٦الكثير من المواد ذات الصلة بحقوق المعتقلين، وخص المعتقلين الأطفال بعناية خاصة في المواد التي تناولت أوضاع المعتقلين وحقوقهم، خاصة المادة العاشرة منه، إضافة إلى المواد (٧،٩) .

من جهة أخرى، فإن سلطات الاحتلال العسكري الإسرائيلي ضربت بحقوق الأطفال المحرومين من حريتهم عُرض الحائط، وتعاملت معهم "كمشروع مخربين"، وأذاقتهم أصناف العذاب والمعاملة القاسية والمهينة من ضرب وشَبْحٍ وحرمان من النوم، ومن الطعام، وتهديد وشتائم وتحرش جنسي، وحرمان من الزيارة، واستخدمت معهم أبشع الوسائل النفسية، والبدنية لانتزاع الاعترافات، والضغط عليهم لتجنيدهم للعمل لصالح المخابرات الإسرائيلية.

كما يعاني الأطفال الفلسطينيون الأسرى في السجون والمعتقلات الإسرائيلية من ظروف احتجاز قاسية، وغير إنسانية تفتقر للحد الأدنى من المعايير الدولية لحقوق الأطفال وحقوق الأسرى. كما أن الأطفال محرومون من حقهم في التعليم ، واحتجز عدد منهم مع السجناء الجنائيين في سجن

تلموند مما عرضهم للضرب وبآلات حادة وإهانات وتهديد وتحرشات جنسية وهذا يتعارض بشكل فاضح مع اتفاقية حقوق الطفل، وخاصة المادتين ١٦ - ٣٧ .

ومن الأهمية بمكان التذكير هنا بأن أصغر أسير في السجون الإسرائيلية هوالطفل "نور" الذي أنجبته أمه الأسيرة "منال" داخل السجن؛ حيث اعتقلت وهي حامل به وعمره الآن سنة ونصف فقط ، ومحتجزة هي وطفلها في سجن تلموند الإسرائيلي وفي ظروف قاسية ولا إنسانية .

الإناث :

لوحظ خلال إنتفاضة الأقصى زيادة كبيرة في اعتقال الإناث؛ حيث وصلت حالات اعتقال النساء والفتيات إلى قرابة ٣٥٠ حالة ، بقيت محتجزة منهن ١٢٧ أسيرة (٤٠ أسيرة محكومة ، ٧٧ أسيرة موقوفة ، ١٠ أسيرات إداري) ، وحول أعمارهن فإن ٩ أسيرات منهن قاصرات و٦٠ % منهن تتراوح أعمارهن من ١٦ - ٢٥ عاماً) ، وبالنسبة للتوزيع الجغرافي فإن (١٢٤) منهن من سكان الضفة الغربية والقدس والمناطق التي احتلت عام ٤٨، و٣ أسيرات فقط من قطاع غزة .

وعن فترات اعتقالهن فإن (٣٨ منهن ٢٩,٩ %) اعتقلن خلال العام ٢٠٠٣ ، و(٦١ منهن ٤٨%) اعتقلن خلال العام ٢٠٠٤ المنصرم و(٧ أسيرات منهن ٥,٥ %) اعتقلن خلال هذا العام.

وحول أماكن تواجدهن الآن فإن ٧٢,٤ % منهن موجودات في سجن تلموند ، و٢٤,٤ % في سجن الرملة ، ٣,٢ % في سجن الجلمة .

وعن الحالة الاجتماعية للاسيرات فإن (٧٨,٨ % عزبة) ، (١١ % متزوجة) والباقيات ما بين مخطوبة ومطلقة وأرملة .

ولا بد من الإشارة بأن النساء والفتيات الفلسطينيات اللاتي يعتقلن يتعرضن للتعذيب أيضاً من سلطات السجون ،وان العقاب يتضمن الاعتقال في سجن انفرادي لفترات طويلة والضرب والحرمان من النوم والتحرش الجنسي و.. إلخ في حين أن المادة ١٤ من الباب الثاني لاتفاقية جنيف واضحة

في نصها (لأسرى الحرب حق في احترام أشخاصهم وشرفهم في جميع الأحوال ويجب أن تعامل النساء الأسيرات بكل الاعتبار الواجب لجنسهن)

الشيوخ :

ومن الجانب الآخر يوجد من بين المعتقلين من تجاوزوا الخمسين عاماً من العمر وعددهم قرابة ٥٠ معتقلاً ، ومن هؤلاء من تجاوزوا من العمر الـ ٦٠ عاماً .

أبرز الإنتهاكات التي يعاني منها المعتقلون :

- **الرعاية الصحية :**

انعدام الرعاية الصحية واستمرار سياسة الإهمال الطبي المتعمد، والمماطلة والتسويف في إجراء الفحوصات والعمليات الجراحية اللازمة ، وعدم التقيد بصرف العلاج اللازم ، مما يضاعف من الألم أحياناً، واستفحال المرض أحياناً أخرى، وهذا يتنافى والمادة ٣٠ من اتفاقية جنيف (تجرى فحوص طبية لأسرى الحرب مرة واحدة على الأقل في كل شهر ،ويشمل الفحص مراجعة وتسجيل وزن كل أسير، والغرض من هذه الفحوص هو على الأخص مراقبة الحالة العامة لصحة الأسرى وتغذيتهم ونظافتهم وكشف الأمراض المعدية) ، وخلال انتفاضة الأقصى تزايد اعتقال المرضى، والجرحى سواء من سيارات الإسعاف أثناء نقلهم إلى المستشفيات أو من خلال مداهمة المشافي واعتقال المرضى والمصابين ، أو من خلال إصابتهم وتركهم يترفون دون علاج لساعات طويلة ، و تزدحم السجون والمعتقلات الآن بقرابة ألف معتقل مريض (١٠٠٠معتقل) يعانون من أمراض مختلفة، ويحتاجون لعلاج سريع، ولعمليات جراحية لإنقاذ حياتهم ، ومنهم من اعتقل وهو مصاب برصاص الاحتلال الإسرائيلي، ولازال دون علاج، ولازالت الرصاصات في جسده مما يجعل منهم أمواتاً مع وقف التنفيذ نظراً للخطر الحقيقي الذي يتهدد حياتهم ، والأطباء يعملون مباشرة من خلال الجيش، ويتعاملون مع المعتقلين على أنهم أعداء، وأحياناً كثيرة يستخدمون مهمتهم في تعذيب المعتقلين، وزيادة معاناتهم.

كما تفتقر السجون والمعتقلات للطواقم الطبية المتخصصة، وهناك بعض السجون لا يوجد بها طبيب، وفي حال وجوده فان دوامه في السجن لا يتجاوز الساعتين، فقد أصبح الإهمال الطبي في السجون الإسرائيلية أحد الأسلحة التي تستخدمها سلطات الاحتلال لقتل الأسرى ببطء وتركهم فريسة سهلة للأمراض المزمنة والفتاكة ، في الوقت الذي لا يسمح فيه بإدخال أطباء من الخارج وعلى نفقة الأسرى ، وأحياناً تلجأ إدارة السجون إلى ابتزاز الأسرى، واستغلال مرضهم ومساومتهم بتقديم العلاج مقابل التعاون معهم، أو تقديم اعترافات عن أنفسهم، أو معلومات عن آخرين، وخاصة ممن يخضعون للتحقيق، أو من يُعتقلون وهم مصابون بالرصاص، وخير مثال على ذلك ما حصل مع الفتى المريض الأسير محمد زلوم (١٧عاماً) من مدينة رام الله لدى محققي الاحتلال في معتقل "المسكوبية" الإسرائيلي في القدس المحتلة، الذين صمموا على انتزاع اعتراف منه، وتوقيعه على إفادة ملفقة مكرهاً بالرغم من وجود ٧ رصاصات في جسده، وأكد الفتى الأسير أن جنود الاحتلال تعاملوا معه بشكل خطير وسيئ للغاية، بدءًا من اعتقاله في السابع والعشرين من تموز الماضي .

ونتيجة لهذه السياسة استشهد في السجون، والمعتقلات الإسرائيلية منذ العام ١٩٦٧ (٣٧ شهيداً) ومنهم الشهداء (عبد القادر أبو الفحم ، الحاج رمضان البنا ، راسم حلاوة ، فريد غنام ، أنيس دولة ، إسحق مراغة ، علي الجعفري ويوسف العرعير...إلخ) ، ويذكر أن (١١ شهيدًا) منهم استشهدوا خلال الانتفاضة الأولى ، فيما استشهد (٧ شهداء) خلال انتفاضة الأقصى، وهم: (محمد الدهامين، وأحمد جوابرة، وبشير عويس، وفواز البلبل في معتقل مجدو ، ووليد عمرو في سجن نفحة؛ ومحمد أبو هدوان في سجن الرملة، وآخرهم كان الشهيد الأسير راسم سليمان غنيمات من قرية كفر مالك برام الله إثر نشوب حريق نتيجة تماس كهربائي في معتقل مجدو ، حيث لا تتوفر الأجهزة اللازمة لإطفاء الحريق، أو الرعاية الطبية اللازمة لإنقاذه ، مما أدى إلى استشهاده وذلك بتاريخ ٢٧ يناير ٢٠٠٥ م .

وأخطر من ذلك أن عضو الكنيست الإسرائيلي، ورئيس لجنة العلوم البرلمانية الإسرائيلية داليا ايزيك كشفت في العام ١٩٩٧ عن وجود (١٠٠٠) تجربة لأدوية خطيرة تحت الاختبار الطبي تجري سنوياً على الأسرى الفلسطينيين والعرب في إسرائيل، وقد اعتادت وزارة الصحة الاسرائيلية إصدار ألف تصريح لشركات الأدوية الإسرائيلية الكبرى لإجراء تجاربها على الأسرى الفلسطينيين في إسرائيل ، كما كشفت (أمي لفتات) رئيس شعبة الأدوية في وزارة الصحة الإسرائيلية أمام الكنيست في ذات الجلسة أن هناك زيادة سنوية قدرها ١٥% في حجم التصريحات التي تمنحها وزارتها لإجراء المزيد من تجارب الأدوية الخطيرة على الفلسطينيين العرب في السجون الإسرائيلية كل عام: (لا يجوز تعريض أي أسير حرب للتشويه البدني أو التجارب الطبية أو العلمية من أي نوع كان مما لا تبرره المعالجة الطبية للأسير المعني أو لا يكون في مصلحته – اتفاقية جنيف الباب الثاني المادة ١٣) .

- **سياسة التعذيب :**

تمثل إسرائيل حالة فريدة من حيث ممارسة التعذيب قانونًا ما بين دول العالم، بحيث لا يوجد دولة أخرى في العالم تشرع التعذيب سوى إسرائيل.

تشريع التعذيب جاء بتاريخ ٨ نوفمبر ١٩٨٧ فيما صادق الكنيست الإسرائيلي على التوصيات الواردة في تقرير لجنة لنداو، والمشكلة من قبل الحكومة الإسرائيلية بتاريخ ٣١ مايو ١٩٨٧، بعد تزايد الانتقادات الدولية والمحلية لأساليب التحقيق التي يتبعها جهاز الأمن العام "الشين بيت" تجاه المعتقلين الفلسطينيين.

وابتداء من عام ١٩٩٦ أصدرت محكمة العدل العليا، واللجنة الوزارية التابعة لشئون المخابرات مجموعة قرارات تعطي فيها الضوء الأخضر لرجال الشاباك باستخدام التعذيب ، وهناك أكثر من ٧٧ أسلوبَ تعذيب يمارَس ضد المعتقلين في السجون والمعتقلات الإسرائيلية، ونادراً ألاّ يتعرض مًن يعتقل لأحد أشكال التعذيب مع الملاحظة أن عددًا كبيرًا من الأسرى يتعرضون لأكثر من نوع من أنواع التعذيب في آن واحد ، حيث إن (٩٩ %) من

المعتقلين تعرضوا للضرب ، فيما (٩٢ %) منهم تعرضوا للوقوف لمدة طويلة، و (٨٨ % ٩ تعرضوا للشبح، فيما (٦٨ %) وضعوا في الثلاجة ، بالإضافة لأساليب التعذيب الأخرى، ومنها: (أسلوب الهز العنيف ، الشبح المتواصل بأشكال مختلفة ، إسماع الموسيقى الصاخبة ، الحرمان من النوم ، غرف العملاء ، الضرب المؤلم ، التعذيب باستخدام الماء البارد ، التعذيب النفسي ، العزل ، الوقوف فترات طويلة ، الحشر داخل ثلاجة ، الضرب والصفع على المعدة ، تكبيل اليدين والقدمين معا على شكل موزة ، الحرمان من الطعام ، الحرمان من النوم ... الخ) .

وليس كل من تعرض للتعذيب نجا من الموت ليحدثنا عما تعرض له ، لكن هناك الكثير ممَن نَجوا تحدثوا، وبمرارة عما تعرضوا له ، وهناك من لا يزالون متأثرين من ذلك رغم مرور سنوات طوال على تحررهم، ولا يتسع المجال هنا للحديث عن تلك التجارب والمعاناة .

ونتيجة للتعذيب القاسي، والمميت في السجون والمعتقلات الإسرائيلية منذ العام ١٩٦٧م وحتى اليوم (٦٩ شهيداً) والغالبية العظمى منهم (٣٩ شهيداً) استشهدوا في الفترة ما بين ١٩٦٧ وحتى اندلاع الانتفاضة الأولى، ونذكر منهم الشهداء (عون العرعير، ومحمد الخواجا، وخليل أبو خديجة)، فيما استشهد (٢٣ شهيداً) منهم خلال الانتفاضة الأولى (١٩٨٧/١٢/٩ - منتصف ١٩٩٤) منهم (خضر الترزي، وابراهيم الراعي، وعطية الزعانين، ومصطفى العكاوي، وخالد الشيخ علي) ، و(٦ شهداء) منهم استشهدوا في الفترة ما بين (منتصف ١٩٩٤ -٢٠٠٠/٩/٢٨) ونذكر هنا الشهيد عبد الصمد حريزات ومعزوز دلال) ، فيما استشهد أسير واحد خلال انتفاضة الأقصى ، وهناك المئات أيضاً استشهدوا بعد التحرر نتيجة لآثار السجن والتعذيب ...

- **سياسة القتل العمد بعد الاعتقال :**

تعتبر عمليات الاغتيالات والتصفية والإعدام خارج نطاق القانون التي تنتهجها قوات الاحتلال الإسرائيلي بشكل ممنهج انتهاكاً صارخاً لمعايير

القانون الدولي الإنساني، وانتهاكاً لمعايير حقوق الإنسان وبشكل خاص الحق في الحياة ، وتاريخ الاحتلال الإسرائيلي حافل بالاغتيالات فهي ليست سياسة جديدة عليه، فتاريخه السياسي يرصد قائمة طويلة لهذه العمليات منذ ما قبل عام ١٩٤٨ وحتى الآن ولا تزال الذاكرة الفلسطينية تتذكر، وتخلد أسماء سياسيين وعلماء ومفكرين راحوا ضحية هذه السياسة بأساليب، وطرق مختلفة، وتحظى هذه العمليات بمباركة صناع القرار الإسرائيلي على كافة المستويات وأيضا مباركة القضاء العسكري .

والأسرى العزّل ليسوا بمعزل عن هذه السياسة، بل كانوا ضحية لها واستشهد نتيجة لهذه السياسة منذ العام ١٩٦٧ وحتى اليوم (٧١ شهيداً) تمت تصفيتهم بعد اعتقالهم مباشرة من خلال إطلاق النار بشكل مباشر على المعتقل عند إلقاء القبض عليه ومن مسافة قريبة جدًّا، أوعن بعد، والادعاء أنه حاول الهرب رغم إدراكهم أنه غير مسلح، وسهولة إلقاء القبض عليه، أو التنكيل بالمعتقل والاعتداء عليه بالضرب، وعدم السماح بتقديم الإسعافات الطبية للأسير الجريح بعد إلقاء القبض عليه وتركه يترف حتى الموت ، ومن هؤلاء الأسرى الشهداء الذين كانوا ضحية لهذه السياسة (قاسم الجعبري ، حريص أبو حية ، علي الجولاني ، سفيان العارضة، محمود صلاح ، أبو جندل، عبد الغفار القصاص ، فلاح مشارقة ، محمود كميل) وأشهرهم خاطفو الباص الإسرائيلي رقم ٣٠٠ عام ١٩٨٤م ، وغالبية هؤلاء الأسرى الشهداء (٤٧ شهيد) استشهدوا خلال انتفاضة الأقصى ، وهذه نسبة كبيرة إذا ما قورنت بفترات الاحتلال الماضية، وهذا يندرج ضمن إطار سياسة التصفية التي أقرها، و انتهجتها قوات الاحتلال ضد أبناء شعبنا بشكل متصاعد خلال انتفاضة الأقصى .

- **العزل سياسة ممنهجة، وتحظى بمباركة سياسية وشرعية :**

كل شيء مختلف تماماً عن باقي السجون ، فالعزل يعتبر من أقسى أنواع التعذيب والعقاب الذي تلجأ إليه إدارة السجون الإسرائيلية ضد الأسرى الفلسطينيين، حيث يتم احتجاز الأسير بشكل منفرد لفترات طويلة من الزمن

تتجاوز السنوات ، لا يُسمح له خلالها بالالتقاء بالأسرى، مما يسبب له مضاعفات صحية، ونفسية خطيرة، وذلك في غرف صغيرة تعرف بالإكسات ومقفلة بإحكام بباب حديدي سميك يزيد (عن ١٣ سم) وفيه فتحة صغيرة ، وفي كل غرفة سريران من الحديد بعضهما فوق بعض وكل واحد يصعد على السرير يجب أن يبقى مستلقياً، أو متكئاً لأن ارتفاع الغرفة لايزيد عن مترين، ويمنح كل سجين فَرشة ليضعها على السرير، وثلاث بطانيات، ويوجد في الغرفة مغسلة صغيرة (١٥×٢٠ سم) بجانب المرحاض ويشغلان نحو ربع مساحة الغرفة .

وسياسة العزل ليست مرتبطة بحقبة زمنية معينة بل انتهجت وموُرست على امتداد الأسر في السجون الإسرائيلية كنهج منظم ، وإزدادت شراسة مع اندلاع الانتفاضة الفلسطينيةالأولى وازداد عدد الأسرى المعزولين ، كما أنه طرأ ازدياد على فترة العزل، ولم تقتصر على أيام وأسابيع كما كانت في بداية تطبيقها بل امتدت لشهور وسنوات حتى بات حلم بعض الأسرى المعزولين ليس التحرر بل العودة إلى رفاقهم وإخوانهم في غرف السجون، وعادت وازدادت خلال انتفاضة الأقصى كأسلوب عقابي صارم بحق المعتقلين الفلسطينيين، و يتم عزل العديد من المعتقلين فترات طويلة دون تحديد سقف زمني لمدة العزل، حيث مضى على عزل بعضهم أكثر من ١٠ سنوات وهم في زنازين انفرادية ..

• **التحرش الجنسي والاغتصاب** استخدم أسلوب التهديد بالاغتصاب، والتحرش الجنسي في محاولة لتخويفهم، وانتزاع اعترافات منهم مع العديد من المعتقلين، وخاصة الأطفال الأسرى والأسيرات ، و لم يعد هذا الأسلوب شاذاً، أو استثنائياً بل تصاعد خلال انتفاضة الأقصى .

• **المعاملة السيئة، واستخدام العنف ضد المعتقلين** من قبل إدارة المعتقل، واستخدام العنف تجاه المعتقلين سواء بالاعتداء عليهم برشهم بالغاز المسيل للدموع، واطلاق قنابل الصوت نحوهم، او بالاعتداء بالضرب عليهم ، وبالرّصاص الحي أحياناً ، وانتهاج أساليب التفتيش الاستفزازية المستمرة

والليلية التي تقوم بها شرطة السجن، والعبث بمقتنيات الأسرى، ومصادرة بعضها ، وأخيراً وفي خطوة قمعية جديدة استخدموا رصاصا مطاطيّا خطيرا، ويستخدم للمرة الأولى، وهذه العيارات تحدث دائرة (بقطر ٥ سم) في جسد الأسير وتدخل بعمق (٢ ملم) مفرزة مادة حارة في جسم الإنسان إضافة لتخديره، وشل حركته لبعض الوقت ... وفي الآونة الأخيرة شكلت إدارة مصلحة السجون فرقة خاصة أطلق عليها اسم " أمن السجون " وهذه ترتدي زيّاً خاصاً ومهمتها قمع الأسرى مستخدمة الهراوات، والغاز المسيل للدموع، والرَّصاص المطاطي ومنتهجة أسلوب الاقتحام والتفتيش المفاجئ في الليل والنهار، متذرعة بحجج واهية، وتعتدي بالضرب على الأسرى .

• **سياسة التفتيش الجسدي والعاري المُذلة**

إن المعتقل بمجرد وصوله للسجن يتعرض لعمليات تفتيش مذلة، وكذلك العائد من المحكمة العسكرية أو المستشفى، أو زيارة الأهل، أو المحامي، وأحياناً يتم إخضاع المعتقل إلى التفتيش العاري ويجبرونه على خلع ملابسه ليبدو كما ولدته أمه، وسط سيل من الإهانات والشتائم، وهذا يشكل إذلالا ومسًّا بالكرامة الإنسانية .

ووزير الشرطة الإسرائيلية "تساحي هنغبي" اعترف بانتهاج أسلوب التعرية في سجون الاحتلال وذلك في رسالة جوابية لعضو الكنيست "أحمد الطيبي" في نهاية شهر حزيران ٢٠٠٤ ، وأيضاً مدير مصلحة السجون "يعقوب غانون" اعترف هو الآخر في لقاء مع عضو الكنيست "أحمد الطيبي" بتاريخ ٢٠٠٤/٧/٤ باستعمال أسلوب التعرية، قائلاً إن هذه وسيلة قانونية، وشرعية لإجراءات أمنية ضد المشتبه بهم بتهريب الرسائل، أو أشياء أخرى داخل السجن، مدعياً أن التعرية تتم بشكل فردي وليس جماعيا.

• **الحرمان من وسائل الحركة والتهوية**، وعدم دخول أشعة الشمس للغرف، وضعف الإنارة والسماح فقط للخروج للنزهة ساعتين يومياً، ومساحة المعتقل من النزهة لا تتجاوز ١٥٠ سم ، وأحياناً يحرمون من الخروج للنزهة كعقاب لهم، أو تقلص مدتها الزمنية .

• **في المعتقلات خيام مهترئة، وممزقة** مما يؤدى إلى تسرب المياه في فصل الشتاء إلي داخلها وتلف "حاجيات" المعتقلين الأساسية وملابسهم في ظل عدم توفر الأغطية اللازمة لمواجهة البرد القارس.

• **نقص في المواد الغذائية** كمًّا ونوعًا، وافتقارها للمواد الأساسية للنمو الإنساني ، في حين أن نص المادة ٢٦ من الفصل الثاني في اتفاقية جنيف كان واضحاً (تكون جرعات الطعام الأساسية اليومية كافية من حيث كميتها، ونوعيتها، وتنوعها لتكفل المحافظة على صحة أسرى الحرب في حالة جيدة، ولا تعرضهم لنقص الوزن، أو اضطرابات العوز الغذائي، ويراعى كذلك النظام الغذائي الذي اعتاد عليه الأسرى).

• **شُحّ مياه الشرب النظيفة**، وعدم توفر المياه الساخنة للاغتسال .

• **إجبار المعتقلين على تقليد حركات وأصوات الحيوانات .**

• **النقص في مواد النظافة الشخصية والعامة** مثل: الصابون والمواد المطهرة وتراكم القاذورات والنفايات مما أدى إلى انتشار الحشرات والزواحف والبعوض، وتلوث المفروشات والبطاطين وانتشار الروائح الكريهة خاصة في المعتقلات التي تخضع للإدارة العسكرية .

• **الحرمان من التعليم** والإفراغ الثقافي، وممارسة التجهيل والإفراغ الثقافي ومحاربة أي خطوة لها علاقة بتنمية قدرات المعتقل والمصادرة المستمرة للكتب والكراسات ، وبعد نضال شاق سمح باقتناء بعض الكتب بعد مرورها على رقابة السجن ، وفي التسعينيات سمح للأسرى بالالتحاق بالجامعة العبرية فقط، وهناك العديد من الأسرى أنهوا دراستهم الجامعية بنجاح ، كما أن هناك بعض الأسرى ناقشوا رسائل ماجستير ودكتوراه عبر الهواتف المهربة .

• **محاكَمات وأحكام جائرة**، وهذه المحاكم أقيمت بالاستناد إلى الأمر العسكري (رقم (٣٧٨) لسنة ١٩٧٠)، وبموجب هذا الأمر يحق لقائد المنطقة العسكري تشكيل محاكم عسكرية، يكون رئيس المحكمة ضابطاً في الجيش ذا أهلية قانونية بالإضافة إلى قاضيين من ضباط الجيش، ، ويتولى أيضاً قائد

المنطقة تعيين المدعي العسكري، ومن هذه المحاكم محكمة (بيت أيل) و (سالم) و (ايرز) و(عوفر) وجميعها تفتقر لأبسط المعايير الدولية للمحاكمة العادلة وانتهاك هذه المعايير يمثل انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان .

- **فرض غرامات مالية** كعقاب لأتفه الأسباب مثلاً بسبب وضع بشكير على الشباك، أو التأخر قليلاً أثناء الخروج للنزهة ، أو الزج في زنازين انفرادية لأتفه الأسباب .

- **تقليص الخدمات المقدمة للأسرى**، وإجبار الأسرى على شراء مستلزماهم على حسابهم الشخصي، وبأسعار مرتفعة.

- **تركيب ألواح زجاجية عازلة بدل الشبك في غرف الزيارات** ويبعد ما بين الأسير وذويه قرابة ٨٠ سم الأمر الذي يحرمه ملامسة أصابع ذويه، أو حتى سماعهم بشكل جيد .

- **عدم السماح للمؤسسات بإدخال احتياجات الأسرى الأساسية** مثل الملابس والمواد الغذائية والقرطاسية والكتب الثقافية.

- **الحرمان من تأدية الشعائر الدينية** ، وهذا يتنافى واتفاقية جنيف (القسم الرابع الفصل الثاني المادة ٨٦): (تضع الدولة الحاجزة تحت تصرف المعتقلين أياً كانت عقيدهم ، الأماكن المناسبة لإقامة شعائرهم الدينية) .

- **مراقبة دائمة** ، لم تكتفِ سلطات الاحتلال الإسرائيلي بمصادرة حرية الفلسطينيين باعتقالهم، والزج بهم داخل سجونها ومعتقلاتها، بل انتهكت أبسط الحقوق الشخصية للأسرى، من خلال مراقبتهم على مدار ٢٤ ساعة، وذلك بتثبيت كاميرات مراقبة، بما في ذلك كاميرات المراقبة الليلية وأجهزة التنصت لسماع ما يدور بين الأسرى بداخل أقسامهم، وغرفهم، وحتى في زنازين العزل ، وهذا ما يحدث في عدة سجون، منها سجن "جلبوع" الذي أنشئ حديثاً، وكذلك سجن العزل أيلون وغيرها.

• **الإبعاد القســري للمعتقلين**

عمليات الطرد الجماعي، والفردي هي سياسة متبعة من قِبَــل الإحــتلال مستندة للتشريعات المعتمدة على قوانين الطوارئ البريطانية التي تم ســنّها في عهد الانتداب ، وأجرت عليها حكومة الاحتلال بعض التعديلات كعقــاب للمواطنين ، وكانت البداية إبعادات عشوائية، هدفها إرهاب الشعب، وتفريغ الأرض من مواطنيها، ووقف المقاومة المتصاعدة ضد الاحتلال ، وبعد المقاومة الشعبية والاحتجاج والرفض الدولي، والعربي لهذه السياسة اضطرّت سلطات الاحتلال إلى التخفيف من هذه الظاهرة واتباع أسلوب جديد هو أســلوب الانتقائية في الابعاد وعلى أثر ذلك أبعدت سلطات الاحــتلال المئــات مــن المعتقلين إلى خارج الوطن .

وخلال انتفاضة الأقصى أخذت منحًى إضافياً، وشكلاً جديداً حيث إنــه تم إبعاد أكثر من (٣٥ معتقلاً) من سكان الضفة الغربية إلى قطــاع غــزة، ولفترات مختلفة، ومنهم من انتهت مدة إبعاده وعاد إلىَ بلدته في الضفة ومنهم من لا يزال ينتظر العودة ، هذا بالإضافة لمن أبعدوا بعد حصار كنيسة المهــد وحيث أبعد الجزء الأكبر منهم إلى قطاع غزة، والجــزء الآخــر إلى خــارج الوطن.

واستخدم سلاح الإبعاد كسيْف مسلط على رقاب الأســرى الإداريــين خاصة ، وبات كابوسًا يتربص بهم ليل نهار ، في الوقت الذي نؤكد فيه بــأن المبررات المساقة من حكومة الاحتلال المتعلقة بالإبعاد الجمــاعي والفــردي للأسرى عن أماكن سكنهم هي مبررات غير قانونية، وتعتبر في نظر القــانون الدولي جرائم حرب، حيث إن القانون الدولي يحرم كافة أنواع الإبعاد حسب المادة ٤٩ من معاهدة جنيف ، وهنا نناشد المجتمع الدولي للضغط على حكومة الاحتلال من أجل السماح للمبعدين بالعودة إلى أسرهم وديارهم .

أبرز مشاكل أسر المعتقلين :

- **إجراءات لا إنسانية على زيارة ذوي الأسرى**

اتبعت حكومة إسرائيل سياسة جديدة بما يتعلق بزيارات أهالي الأسرى لأبنائهم بعد عام ١٩٩٦، وتحت ذرائع ومبررات أمنية حيث فرضت قوانين جديدة على الزيارة تتمثل بعدم السماح بالزيارة لذوي الأسير إلا من الفئة الأولى، وهي: الأب والأم والزوجة والأولاد، أما الأشقاء فيسمح فقط لمن تقل أعمارهم عن ١٦ عاماً بالزيارة، وهذا الإجراء أدى الى حرمان أقارب وأصدقاء المعتقل من زيارته إضافة إلى حرمان الأسير الذي فقد والديه ولا يوجد له أشقاء من الزيارة وصحب هذه الإجراءات تحديد خط سير الباصات التي تُقل أهالي الأسرى، ضمن نقاط وحدود عسكرية، لا يسمح بتجاوزها، مما زاد من معاناة أهالي الأسرى الذين يتحملون مشاق سفر طويل، جدا وعذاب جسدي ومعنوي للوصول الى السجون داخل إسرائيل بالإضافة للاستفزازات المستمرة، والتفتيشات المذلة، وأحياناً يعودون الى بيوتهم دون زيارة أبنائهم وتحت ذرائع واهية أو بحجة أمنية ، وازدادت هذه المعاناة خلال انتفاضة الأقصى نتيجة كثرة الحواجز العسكرية وفرض الطوق الأمني المتواصل على مناطق عدة في الضفة الغربية والإغلاق المتواصل على قطاع غزة وزيادة الممنوعين أمنياً وحتى كبار السن من الأمهات والآباء مما أدى إلى حرمان العائلات من رؤية أبنائهم لشهور طويلة تتعدى في بعض الحالات العام والعامين بل وأكثر من ذلك وهذا يتنافى ويتناقض مع كل الأعراف والمواثيق الدولية (يسمح لكل شخص معتقل باستقبال زائريه، وعلى الأخص أقاربه على فترات منتظمة، وبقدر ما يمكن من التواتر ، ويسمح للمعتقلين بزيارة عائلاتهم في الحالات العاجلة بقدر الاستطاعة ، وبخاصة في حالة وفاة أحد الأقارب، أو مرضه بمرض خطير - اتفاقيات جنيف الفصل الثامن المادة ١١٦).

• **المعتقلون العرب :**

وإذا كان هذا هو حال المعتقلين عموماً ، فإن حال المعتقلين العرب أكثر سوءاً وأكثر حرماناً ومعاناة ، حيث يقبع في السجون الإسرائيلية الآن قرابة ٣٥ معتقلاً، ومنهم من أمضى سنوات طويلة وأقدمهم الأسير اللبناني (سمير قنطار) والمعتقل منذ ١٩٧٩/٤/٢٢م ، وهؤلاء المعتقلون لم يتمكنوا من رؤية ذويهم طوال فترة اعتقالهم بحيث لا تسمح السلطات الإسرائيلية بمنح أسرهم وذويهم تأشيرات دخول، وبالتالي يحرمون من رؤية أبنائهم وآبائهم وأمهاتهم، ولكن لابد من الإشارة هنا بأن ذوى بعض المعتقلين الفلسطينيين يقومون بهذا الدور بالتبني، كشكل من أشكال التضامن مع هؤلاء، وللتخفيف من معاناتهم، ويتعاملون معم كأبنائهم بالضبط في كل القضايا .

• **معاقبة الأهل وهدم البيوت**

سياسة هدم البيوت سياسة قديمة وتعود لبداية الاحتلال ، وتصاعدت هذه السياسة مع مرور الوقت، وازدادت خلال انتفاضة الأقصى، وأصبحت جزءاً من العقاب الجماعي لأهالي الأسرى بسبب قيام ابنهم بعمل ما ، ويطلق عليه "الهدم الأمني" و يهدف إلى تضييق الخناق على الأهالي من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والنفسية أيضاً ، وفي هذا الصدد هدمت قوات الاحتلال منذ احتلالها للضفة وغزة آلاف المنازل هدماً كلياً، وآلافًا أخرى هدماً جزئياً ، وخلال انتفاضة الأقصى هدمت مئات المنازل تعود ملكيتها لأهالي أسرى ومعتقلين ، مما فاقم من معاناة أهالي الأسرى وتركوا في العراء دون مأوى .

• **المساعدة القانونية للمعتقلين :**

من أهم الضمانات التي كفلها القانون الإنساني ، منح المحامي الحق في زيارة موكله لحظة القبض عليه ،وحقه في حضور التحقيق معه ،والاطلاع على ملف التحقيق، والحصول على صور عن الوثائق الخاصة بمذكرة التوقيف والتفتيش ،ولائحة اتهام، إلى غيرها من الوثائق اللازمة دون إعاقة ، ولكن في السجون الإسرائيلية فالأمر مختلف تماماً، فزيارات المحامين شحيحة وإن تمت

فإنها تتم بحراسة ومراقبة جنود الاحتلال، وهذه تتناقض مع أبسط حقوق السجين وفق اتفاقية جنيف (السماح للمحامي بزيارة الأسير بحرية، والتحدث معه دون وجود رقيب)...وهذا الوضع إختلف مع اختلاف الوضع الأمني والسياسي العام فمثلاً خلال الانتفاضة الأولى كانت زيارات المحامين تتم بشكل قد يكون مقبولاً، وكان يسمح لغالبية المحامين الفلسطينين بزيارة المعتقلين والترافع في المحاكم العسكرية، وكانت القاعدة أنّ المحامين الفلسطينيين يدافعون عن المعتقلين مجانًا وبدون مقابل ، أما خلال انتفاضة الأقصى فالأمور بهذا الصدد أكثر تعقيداً وأكثر معاناة ويعتريها العديد من المشاكل فإن محامي قطاع غزة ممنوعون من تخطي حاجز إيرز، وبالتالي لم يتمكنوا من زيارة المعتقلين والترافع عنهم ، ومحامي الضفة يعانون نفس المشكلة، ولكن بدرجة أقل، ولكن حتى من يسمح له بالزيارة والتنقل يواجه أحياناً خطر الإغلاقات، وفرض الطوق الأمني، والحواجز، وصعوبات التنقل مما يحد من زيارته للمعتقلين، وأحياناً من الوصول للمحكمة للدفاع عن المعتقلين ، ونادراً جداً ما يسمح لهؤلاء بزيارة (معتقل أنصار ٣) في النقب الصحراوي لدواعٍ أمنية ... الأمر الذي يدفع بعض المؤسسات المعنية بالاستعانة بمحامين عرب من (مناطق ال٤٨) أو محامين إسرائيليين وهؤلاء لا يستطيعون تغطية كل الحالات ، كما أن تكاليفهم وأجرهم المالية باهظة جداً، الأمر غير المستطاع توفيره للجميع في ظل الأعداد الكبيرة من المعتقلين ، كما أن ذوي الأسرى – ونتيجة للظروف الاقتصادية الصعبة – لا يستطيعون توفير هذه التكاليف ...

نضالات الأسرى :

خلال هذه المسيرة الطويلة والتي فاق عمرها عقودا من الزمن ، وما تخللها من معاناة متواصلة وصور قاتمة السواد ، استطاع الأسرى أن يسطروا صفحات مشرقة لهم ولشعبهم وسجلوا تاريخاً رائعاً وتجربة جماعية نموذجية وفردية ، و صنعوا ملاحم من الصمود وكتبوا فصولاً جديدة في كتاب الحركة الوطنية الفلسطينية، وأضافوا صفحات مشرقة في تاريخ سجناء الحرية في

العالم، و لقد شكّلت الحركة الوطنية الأسيرة بمجملها تجربة رائدة ضاهت في مستوى أدائها وبرامجها مدارس فكرية متعددة ، وعلى كافة الصعد السياسية والفكرية ، الثقافية والفنية، التنظيمية والديمقراطية ، فخرّجت القائد الفذ والمناضل العنيد ، الكاتب المبدع، والشاعر الرائع ، وهي ستبقى ماضياً وحاضراً مدرسة أثبتت أنها وقود الثورة الحقيقي، وتاريخ يتواصل يومياً ويزداد إشراقاً مع فجر كل يوم جديد ، وهذا لم يكن بلا ثمن، وبلا تضحيات وشهداء ، بل خاضوا معارك الاعتقال والتعذيب بإباء وصمود أسطوريين، وخاضوا مئات المعارك وعشرات الإضرابات عن الطعام، و لم ترهبهم السلاسل وقساوة السجان ، وسقط العديد منهم شهداء من أجل كرامة الإنسان الفلسطيني وحقوقه تحت شعار " نعم لآلام الجوع، ولا وألف لا لآلام الركوع" .

فخاضوا الإضرابات المفتوحة عن الطعام ، والمحدودة والجزئية، و لم يمر أسبوع إلاّ وتشهد السجون إضراباً عن الطعام في الوقت الذي تغلق فيه كافة الخيارات الأخرى وكان آخر تلك الإضرابات المفتوحة في آب من العام قبل الماضي ٢٠٠٤ و شمل كافة السجون والمعتقلات ، واستطاع الأسرى ومن خلال نضالهم المستمر من تحقيق العديد من الإنجازات، ومن تحسين شروط حياتهم، وانتزاع بعض حقوقهم .

الخلاصة :

تتصدر دولة الاحتلال "الاسرائيلي" قائمة الدول التي تنتهك حقوق الانسان والقوانين الدولية، على الرغم من كل ما يشاع عن الديمقراطية "الإسرائيلية" المزعومة المغلفة بالعنصرية... وإزداد استفحال أزمة حقوق الإنسان خلال انتفاضة الأقصى ، ورغم ان "اسرائيل" وقّعت (في العام ١٩٤٩) على اتفاقات جنيف التي تحكم وضع السكان الخاضعين للاحتلال ، ثم صادقت على هذه الاتفاقات (في العام ١٩٥١)، فإنها تجاهلت فيما بعد كل الحقوق المدنية للمواطنين العرب، ورفضت الاعتراف بأن الأشخاص المدنيين

في الأقاليم المحتلة يعتبرون أشخاصا محميين بموجب ما ينص عليه ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الانسان.

وفي هذا السياق فإننا ندعوالمجتمع الدولي للتدخل الفوري لوقف انتهاكات حقوق الإنسان الفلسطيني من قبل قوات الاحتلال، والتدخل الفوري لإنقاذ حياة الآلاف من المعتقلين الفلسطينين والعرب في السجون، والمعتقلات الإسرائيلية، بهدف الإفراج عنهم ، كما ندعو اللجنة الدولية للصليب الأحمر إلى زيادة عامليها وتكثيف نشاطاتها في الأراضي الفلسطينية بما في ذلك تقديم المساعدات الإنسانية، وتوجيه مندوبيها لزيارة السجون والإطلاع على أوضاع الأسرى الصعبة ، والتدخل العاجل من أجل السماح للأهالي بزيارة أبنائهم المعتقلين الفلسطينيين، والعرب في سجون الاحتلال، وضمان تمتعهم بحقوقهم التي كفلتها كافة المواثيق الدولية ، فهؤلاء الأسرى هم بوصلة الاستقرار في المنطقة، وهم أكثر الناس تَوَقَانًا للعيش بسلام ، ولكي يتحقق السلام ولكي يكتب لأي اتفاق النجاح لابد من الإفراج عنهم جميعاً دون قيد أو شرط أو تمييز .

وبعد : فما راءٍ كمن سَمِعا !!

صدر للمؤلف

١. كتاب " سجناء .. ولكن " دار الطلائع – القاهرة (٢٠٠٦).
٢. كتاب " تشريعات الاستثمار في الدول العربية "الملتقى التاسع لمجتمع الأعمال العربي– الدوحة (٢٠٠٥).
٣. كتاب " رؤى تشريعية " الكتاب الذهبي – روز اليوسف – القاهرة (٢٠٠٥) .
٤. كتاب " الوجيز في القيود والأوصاف الجنائية " دار الشروق – القاهرة (٢٠٠٥) .
٥. كتاب " فتحي نجيب " سلسلة أعلام القضاء – الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة (٢٠٠٤) .
٦. كتاب " قراءة تشريعية في بيانات الرئيس مبارك " الكتاب الذهبي– روز اليوسف (٢٠٠٤) ، الطبعة الثانية (٢٠٠٥).
٧. سلسلة كتب " من روائع الأدب القضائي " (ثلاثة أجزاء) مهرجان القراءة للجميع . مكتبة الأسرة (٢٠٠١ ، ٢٠٠٢، ٢٠٠٣) ، الطبعة الثانية دار الشروق (٢٠٠٦).
٨. كتاب " موسوعة التحكيم التجاري الدولي " دار الشروق – القاهرة (٢٠٠٢) .
٩. كتاب " ظاهرة التسول في المجتمع المصري " مع آخرين – إصدار المركز القومي للبحوث الجنائية والاجتماعية– القاهرة (٢٠٠٢) .
١٠. كتاب "الإدمان: أوهام . أخطار . حقائق " مع آخرين– إصدار صندوق مكافحة وعلاج الإدمان والتعاطي برئاسة مجلس الوزراء – القاهرة (٢٠٠٠) .

١١. كتاب " دليل رجال النيابة العامة والقضاء في قضايا المخدرات " مع آخرين – إصدار صندوق مكافحة وعلاج الإدمان والتعاطي برئاسة مجلس الوزراء ـ القاهرة (٢٠٠٠) .

١٢. كتاب " النظام القانوني لدور البنك في عقد الاعتماد المستندي القطعي " دار الطلائع – القاهرة (١٩٩٩) .

١٣. كتاب " مولد أمة . أضواء على خلق رسول الإنسانية " الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مهرجان القراءة للجميع ـ مكتبة الأسرة – القاهرة (١٩٩٩) .

١٤. كتاب " جريمة الاغتصاب " دار الراية (١٩٩٩) .

١٥. كتاب " طابا مصرية " الهيئة العامة المصرية للكتاب ، مهرجان القراءة للجميع ـ ثلاث طبعات ١٩٩٧ ، ١٩٩٩ ، ٢٠٠٠ ، وقد فاز هذا الكتاب بجائزة أفضل كتاب قانوني لعام ٢٠٠٠ ونال المؤلف تكريم السيد الرئيس حسنى مبارك رئيس جمهورية مصر العربية .

الفهـــرس